

فِي ظِلِّ الْأَنْبِيَاءِ

قِصَصُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ



مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ الصُّوَّبَانِي

العبيكان
Abekan

فِي ظِلِّ الْأَنْبِيَاءِ

قِصَصُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ

مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ الصُّوَرَانِي



الإهداء

إلى أخوي وصديقي العزيزين

أبي عبدالله محمد الفريح،

وأبي معاذ فواز المحرج

آدم ﷺ جمال في الجنة

في الملاء الأعلى.. فوق السماوات.. في مكان لا يمكن وصفه، ولا لغة تبوح بجلاله وهيبته.. في مكان تجوبه الأنوار والأجنحة والملائكة والمشاعر، ويزينه التسبيح والتقديس لله تعالى.. تترقب الملائكة حدثاً عظيماً، بعد أن تلقت أمراً من الجبار سبحانه بالسجود لمخلوق جديد.. مخلوق ينتمي إلى تربة تلك اللؤلؤة السابحة في الكون، التي تسمى الأرض.. مخلوق ينتمي إلى تربة ذلك الكوكب الملون الصغير. وذلك بعد أن قال لهم الجبار سبحانه وتعالى:

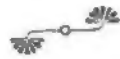
﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّتَّسُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

لم تعترض الملائكة على السجود والخضوع، لكنها دخلت في حوار مؤدب مع ربها سبحانه، حين أخبرهم بالمهمة العظيمة، التي كلف بها هذا المخلوق الجديد، وهي عمارة الأرض، والإبداع فيها بأمرين اثنين: (توحيد الله)، (والعدل)، فقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. حينها قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فهل عاشت يا ترى في الأرض مخلوقات سفكت الدماء، ثم انقرضت قبل خلق آدم؟ أم أن الملائكة تتحدث عن الصراع الدموي من أجل البقاء، الذي تمارسه الحيوانات على الأرض؟ وإذ بالجبار الحكيم سبحانه يقول: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أدرك الملائكة أن وظيفة الإنسان سامية، فأدم نبي، والله يقول عن أول رسائله لأتباعه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. أما الرسالة الثانية فهي إقامة النظام، حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

حدث الأمر، وخلق الله آدم، وصوره في أحسن صورة.. صورة معجزة مذهلة، ثم تركه ساكنًا، كتمثال وسط عالم من الجمال المبهر، والمساحات

الملونة، وسط الجنة.. ظل آدم دون روح.. دون حراك.. بين الثمار اللذيذة، والأنهار والأشجار والطيور والزهور، والمناظر الخلابة، والروائح المنعشة، وفي إحدى ساعات سكون آدم.. دب بين أشجار الجنة مخلوق ينتمي إلى عالم الجن.. عالم مختلف عن عالم الملائكة، فالملائكة خلقهم الله من نور، أما الجن فخلقهم الله ﴿مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. انساب الجني الذي يحمل اسم (إبليس) في فضول بين الأغصان.. يريد اكتشاف هذا المخلوق، الذي أمر بالسجود له قبل خلقه.. اقترب من هذا التمثال بارع الجمال، الذي ينتظر الحياة، ويشتاق للروح.. بدأ يطوف حوله.. يتأمله، وفجأة اجتاحه الفرح، فقد رأى شيئاً في آدم، أصابه بالزهو والخيلاء، بل أعلن تفوقه عليه.



لحظات السجود والتمرد

ظل إبليس يحدق بتكوين آدم الجميل، وبقامته الممشوقة.. تأمل عينيه الشاخصتين، وثغره الصامت، وشعره الجميل، وجسده الغض، وفجأة شعر بالتفوق على هذا الصامت، فقد اكتشف شيئاً، جعله يعتقد أنه أفضل منه.. اكتشف أن هذا البشر الطيني يحتوي فراغاً داخل جسده، وأنه (أجوف لا يتمالك) عندها أعلن ازدراءه له.. أعلن حرباً ضد شخص لم يتحرك.. لم يتكلم بعد، بل وليس به روح، ثم قال في نفسه: (ظفرت به خلق لا يتمالك)^(١).

بدأت نار الحسد تتأجج داخله، حتى جاءت اللحظة الحاسمة، حين نفخ الله الروح في آدم، فإذ بالملائكة تضع أجنحتها خضوعاً لأمره.. كان المشهد مهيباً، يأخذ بالمشاعر، لم يشوّهه سوى غطرسة إبليس، الذي

(١) رواه مسلم (٢٦١١) وابن حبان (٦١٦٣) واللفظ له.

رفض السجود. انتهت لحظات السجود، واشتد غضب الجبار على عبده إبليس، الذي حوله الحسد من مخلوق جميل إلى شيطان رجيم.. لم يسحق الجبار سبحانه عبده الحقود.. لم يقذفه في جهنم، بل منحه حرية مسؤولية، وأعطاه فرصة ليرد، بعد أن سأل عن سبب تمرده، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وإذ بالحسود المتكبر يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

لقد منحه الله سبحانه فرصة ليتراجع ويتوب، لكن إبليس كابر، وقال لربه معاندا: ﴿لَمْ أَكُنْ لَّا سَجْدَ لِشَرِّ خَلَقْتَهُ، مِن صَّالِحٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ أصبح إبليس أول متكبر مفاخر بأصله.. احتقر آدم لأنه من طين، مع أنه لا ذنب لآدم، ولا فخر لإبليس في ذلك، فالأصل ليس إنجازا.. هو هبة من الله، واختبار لشكر المخلوق أو صبره، لكن الكبر أعماه، فلم يرفي آدم سوى الطين.. الصلصال، لم يدرك دقة خلقه.. عشرات المليارات من الخلايا، وعشرات الأميال من الشرايين والأوردة، تذهل العالم قبل الجاهل. أعماه الكبر حتى عن نعم الله عليه، فانشغل بالتنقيب عن عيوب غيره.. تناسى أن الله أكرمه، وجعله في الملأ الأعلى، لكنه الحسد.. يهوي بصاحبه من التحليق في السماء، إلى اللهاث خلف أحذية المحسود.

انتهت مرافعة إبليس، ثم سكت بانتظار الحكم، أما آدم فأنعم الله عليه بأنيس يشاطره الحب والحياة.. حواء: الفتاة الجميلة، التي ملأت قلبه، وآنست وحدته، ثم عرض عليهما شيئا عظيما، هو الإرادة أو الأمانة. أمر اعتذرت السماوات والأرض والجبال عن حمله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾. قبل آدم وحواء تحمل الأمانة والإرادة، لذا جعل الله سكنهما الجنة دائما، لكنه مشروط بشيء يتعلق بإرادتهما، فما هو ذلك الشرط؟ أمام بوابة الخلود أو الوهم.

سكن الحبيبان الجنة، وبدأ اختبار إرادتهما، حين أباح الكريم سبحانه لهما كل شيء فيها.. كل شيء في الجنة لكما، عدا ثمار هذه الشجرة التي أمامكما. كان اختباراً سهلاً للوهلة الأولى، بل إن الحق سبحانه زاد من وعي الحبيين، حين حذرهما الخروج من الجنة، ولن يكون ذلك إلا بالإنصات لوسوسة عدو لا يعرفانه، لكنه يعرفهما.. حذرهما من إغراء وإغواء (إبليس)، فقال: ﴿يَتَذَكَّرُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى ۖ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝﴾.

كسا الله آدم وحواء من ملابس الجنة الفاخرة، وظلا ينعمان في أجوائها الحالمة.. يتهاديان عبر المساحات الساحرة وبين أنهارها وشلالاتها.. تتضوع الأماكن بالعطور، وأنغام الطيور، والسعادة الغامرة.. لا يعكرها سوى وسوسة أو رؤية إبليس بين الفينة والأخرى، فتحذير ربهما منه جعلهما يتوجسان، لذا ظل إبليس يدرس سلوكهما، حتى أدرك نقطة قوة وضعف فيهما، وهي الشغف.. الطموح، لذا توصل إلى فكرة قد تنجح في طردهما من هذا النعيم.. ففكر وفكر، وأخيراً وجدها، حين وجد شغفهما يوقفهما أمام تلك الشجرة، وكأنهما يقفان أمام لغز مثير. اقترب منهما، ليقذفهما بأول أكاذيبه ووسوساته.. كذبة قال فيها: إن في ثمار تلك الشجرة سر الخلود، وأنهما سيصبحان ملكين خالدين، بمجرد تناولها، بل أقسم لهما: أنه ناصح، يريد الخير بهما ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۖ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝﴾.

تأجج الشغف داخلهما.. أنساهما نصيحة خالقهما، فالطمع يعمي الإنسان عن الكثير الذي بين يديه، ليجعله يحدق بالقليل الذي عند غيره.. ظل فضول آدم وحواء يطوف حول تلك الشجرة، وكأنها الوحيدة في الجنة.. يتغافلان عنها لكن سرعان ما تعيدهما كلمات الشيطان. ظلا يترددان عليها، يتأملانها، ويتأملان الجنة الساحرة من حولهما.. لا يريدان مغادرتها، ولا يريدان للموت

أن يأخذهما عنها، وفي إحدى المرات تهاديا نحوها.. اقتربا حتى وقفا أمامها، وكأنهما يقفان أمام بوابة الخلود.. ازدادت خفقات قلوبهما، وهما يمتلئان بالأحلام الزائفة، وفي لحظة ضعف بشرية عجزا عن المقاومة.. مدا أيديهما نحو ثمارها، وكأنهما يستلمان مفاتيح الخلود، وبعد تردد قبضا على ثمرها وقطفها، بينما كان الشيطان يراقبهما، وحقده يفرك يديه حماسًا.. يتحرق لرؤيتهما مطرودين.. قرب آدم وفتاته الثمرة الحلم من أفواههما ثم تذوقا منها.



رحلة الهبوط المريرة

أكل آدم وفتاته من الشجرة.. لم تكن حواء هي السبب.. كانا شريكين في الأمر.. ظل طعم الثمرة يجول في رأسيهما، وهما ينتظران سريان الخلود في جسديهما، وفجأة حدث شيء أذهلهما عن الثمار والخلود وعن كل أحلامهما.. لم تظهر لهما أجنحة، ولم تتحول أجسادهما، ولكن سقطت عنهما ملابس الجنة.. أصبحا عاريين.. أدركا أنهما لم يعودا ينتميان للجنة.. أدركا أنهما وقعا ضحية مكيدة شيطانية خبيثة.. مكيدة أنستهما ثمار الجنة، التي لا تعد ولا تحصى، وأشغلتهما بشجرة واحدة.. شجرة لن يضرهما تركها.. مكيدة انتزعتهما من مساحات الحلال، التي لا حدود لها، ورمتهما في مستنقع صغير هو الحرام.



ذهل أبونا الشاب، وأما الشابة عن تلك الشجرة المحرمة.. انطلقا يركضان نحو الشجر الحلال، عله يسترهما بعد أن عراهما الحرام.. توجهتا نحو الأوراق الكبيرة منها.. بدأ ينتزعانها، ويلفانها حول جسديهما، بعد أن لفتتهما الفاجعة، ثم توقفا وبقيا في حالة وجوم وخوف وندم قاتل، وانتظار لما بعد المعصية، وإذ بالجبار الكريم الذي منحهما الجنة، من أقصاها إلى أقصاها دون مقابل، يناديهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

لم يكابرا كما كابر إبليس.. اعترفا بخطئهما، وتحملا مسؤولية الحرية التي منحت لهما، ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ﴿وَعَصَوْا آدَمَ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾، لكن إغواء آدم جعله يندم ويستغفر ربه، ﴿فَرَجَّحْنَا رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، لكن هناك مقدمة، وهناك نتيجة.. هناك قدر لا مفر منه، فالأكل من الشجرة المحرمة معصية، لكنه لا يعني دخول النار، بل يعني الخروج من الجنة، فلماذا أين؟ غادر آدم وزوجته النعيم والبذخ والثراء والساحات الغناء، والقصور الفارهة، والعوالم المدهشة، التي لا تعرف الكد ولا الشقاء، ولا الحر أو العراء.. تهاديا عبر أحد أبوابها، وهما يحملان حقائب الندم الثقيلة، ولكن إلى أين؟ إنهما الآن خارج بوابة الجنة، ينتظران وجهة السفر الآتية، والمحطة المقبلة.

خرجنا من الجنة؛ لتبدأ رحلة الهبوط المريرة إلى الأرض، عبر مسافات هائلة، وسرعة اختفى فيها الزمن.. نزل آدم وحواء، ونزل معهما إبليس، ليستأنف ضدهما حرب الكراهية على الأرض.. حرب الحقد، التي بدأها في السماء، فأى مشاعر اجتاحت أبونا، حين هبطا في العراء.. ما مشاعر أول يوم لهما على الأرض.



من مشاعر أول يوم على الأرض

قبل نزول آدم أراد الحكيم سبحانه أن يري الملائكة قدرات هذا المخلوق الجديد، فعرض عليهم أشياء يجهلون بها.. ربما كانت من اختراع الإنسان المستقبلية، فسألهم عنها، فلم يعرفوا أسماءها ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قالوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ بَأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّْي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

أدرك الملائكة مهمة آدم وحواء وذريتهما العظيمة، ثم نزل آدم وحبيبته إلى الأرض.. لامست أقدامهما الحافية وجهها.. سارا على تربتها.. على صخورها.. صعدا جبالها، وهبطا عبر أوديتها.. آه كم يفتقدان إلى نعومة طرقات الجنة وجمالها.. استنشقا هواء الأرض النقي، فلم يجدا عبير تلك العطور.. فارق مهول بين جنة رصفت بالأحجار الكريمة.. حصباؤها اللؤلؤ، وترابها الزعفران، وبين أرض يكسوها التراب والحجارة.. فارق بين أنهار وبحار وبحيرات صافية، قاعها منقوش باللؤلؤ، وبين أنهار قيعانها الطين والطيني.. ارتفع ذلك القرص المتوهج في السماء من جهة الشرق، وبدأت الحرارة بالارتفاع.. ما هذه القطرات التي يراها آدم، تنساب من جهة حواء، وعلى صدره وذراعيه.. إنه العرق.. لأول مرة يعرقان.. ثم يشعران بالظما، بعد أن كانا في جنة، لا يظما ساكنها ولا يضحى. شربا من الماء، وشعرا بالارتواء والانتعاش، ثم مرت الساعات، فقرصهما الجوع.. دبا في أرجاء المكان، يبحثان عن تلك الثمار الدانية، والفواكه الملونة، التي لا حصر لها.

إنها أرض ابتلاء، لا تنال ملذاتها إلا بالكد والتعب.. حصلا على بعض الطعام، فأكلا وحمدا الله، ثم بدأ القرص المنير يميل نحو الجهة الأخرى نحو الغروب، ثم بدأ شيئا فشيئا ينغمس في الأفق الأحمر، حتى غاب، وشيئا فشيئا خيم ظلام موحش.. لم يعودا يريان شيئا.. حتى إبليس اختفى، لا يستطيعان رؤيته، لكنهما يتذكرانه جيذاً، ويتذكران تهديده.. شعرا بالوحشة.. رفعا أعينهما للسماء، فإذا نجوم تتلأأ.. ظل قلباهما معلق بالله، ولساناهما يلهج بذكره، فلا ملجأ ولا منجاة منه إلا إليه.. شعرا بالتعب والخمول، بدأت أجفانهما تثقل، ثم لم يعودا يقدران على فتحها، ثم استلقيا وغرقا في أول نومة لهما على الأرض.



التأقلم مع أجواء الأرض

أشرق الفجر، فنهض آدم وزوجته نسيطين.. ذهب ذلك التعب والنعاس، وشعرا بالحياة تسري من جديد في جسديهما وعلى الأرض.. طيور هنا، وطيور هناك، وحيوانات تمر، وأخرى تُطارِد أو تُطارِد.. بدأ يمارسان مهاماً لم تكن في الجنة، فقد تغيرت الأحوال والظروف، ولم يعودا كما كانا.. أصبحا خاضعين لقوانين الأرض.. أجسام تتعب، تفرز، تعرق، تتسخ.. تحتاج لصيانة دائمة.. أمور لم يكونا بحاجة إليها في الجنة. إنه النظام الذي وضعه الله للأرض، والسنة التي سنّها لساكنتها.. بدأ الإبداع البشري وعمارة الأرض فيها.. صنعاً بيتاً يقيهما حرارة الشمس، والمطر، وبرد الشتاء.. صنعاً ملابسهما.. تعلمتا تربية المواشي المستأنسة، وركوب بعضها.. تعلمتا الصيد والادخار، وإشعال النار، والشئ عليها، والاستدفاء بها.. تأقلم الحبيبان مع الأرض.. يحدوهمما الوحي والتوحيد والصلاة لله والشوق للجنة، وبعد مدة لاحظت حواء أن بطنها يستدير.. يكبر، وبعد أشهر، بدأت تشعر بآلام كالموت.. رزقت بعدها بمولود، ينسبها لآلهما.. تلاعبه، ويؤنس وحشة الأرض من حولها، ثم ترزق بآخر، وأخرى وأخرى... كانوا ذكوراً وإناثاً.. بدأ الأنس البشري يزين الأرض، وغدت الأرض أجمل، ببراءة الأطفال وضحكاتهم وبكائهم، وابتساماتهم العذبة، وأجسامهم الغضة.. كبر الأولاد، وكبرت المسؤوليات، ونشأهم أبواهم على التوحيد، لكن خلافاً بين الأخوين حدث ذات يوم، حول أمر من الأمور، فبدأ آدم يمارس ثاني مهمات الأنبياء وهي العدل.. طلب منهما أن يقربا لله قرباناً.

أحضر كل واحد قرباناً مما يملك، وأوحى الله لآدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله تقبل قربان (هابيل)، ولم يتقبل قربان أخيه (قابيل). كابر قابيل وغضب، وتفاقم غضبه، وحرضته الأنانية على التخلص من أخيه، فهدده قائلاً: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾،



فرد بهدوء وخوفه بالله قائلاً: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

فرقت الدنيا بين الأخوين.. أصبحت المسافة بينهما بعيدة، وفي أحد الأيام كان هابيل في مكان بعيد عن والديه وأخواته، وإذ بقايل يتسلل نحوه، والشرف في عينيه، ثم يضربه ضربة أسقطته أرضاً وهو ينزف. يتلبط في دمه.. يهتز جسده، ثم يسكن شيئاً فشيئاً، حتى صعدت روحه، وفارق الحياة. وقف القاتل يتأمل جثة أخيه.. تأمل نفسه، وقد أصبح بلا أخ.. تلفت ندمه، فوجد أرضاً فسيحة، تتسع لكليهما، بل لمليارات البشر.



القاتل الأول

وقف قبايل أمام جثة أخيه.. يتأمل الأرض، فإذا هي فسيحة، تتسع لكليهما، بل تتسع للمليارات من البشر. أصبح أتعب من على الأرض.. لم يكن الأمر يستحق كل هذا العنف.. أثقله الندم حتى عجز عن مغادرة المكان.. شعر بالشوق لأخيه الطيب، فحمله وسار به يشخب دمه.. دار به حتى تعب.. ضاقت به الحيل.. لا يدري أين يضعه، ولا إلى أين يتجه.. لم تعد الأرض فسيحة كما كانت.. لم تعد جميلة.. شوهتها الجريمة. جلس ابن آدم يقطر حزناً وندماً: هل يذهب به إلى والديه فيفجعهما، أم يتركه طعاماً للوحوش، أم ماذا يفعل؟ وفجأة شعر بحركة قريبة منه.

التفت فرأى مشهداً أخذ منه كل حواسه.. رأى غراباً ينبش تراب الأرض، وبجواره جسد غراب ميت.. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ﴾، انتهى الغراب من النبش، بعد أن حفر تجويفاً في الأرض، ثم بدأ يزحزح جسد الغراب الميت بمنقاره، حتى وضعه فيه، ثم دفنه. حينها

أفاق قابيل على إحدى كوارث الجريمة، فقال لنفسه: ﴿يَتَوَلَّىٰ أَعْرَظُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَىٰ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ التَّذَمِّينَ﴾، ثم نهض، وبدأ بحفر شق في الأرض، يتسع لجسد أخيه المظلوم، ثم عاد وانحنى عليه، وحمله ووضع داخل التجويف، وأهال عليه التراب، ثم أفاق مرة أخرى على عالم آخر.. عالم بلا أخ.. غاب ذلك الطفل، الذي كان يعدو ويلعب معه، ويسابقه نحو أحضان حواء الحبيبة، أو ذراعي آدم اللطيف.. رحل الصديق، الذي كان يؤنس وحشته، والفتى الذي كان يرافقه للصيد.. رحل من أجل ماذا؟ إنه الطمع.. الحسد، الذي جعل العالم أسود في عينيه.. نهض من عند قبر أخيه، ينفض يديه من ترابه؛ لتبدأ خطواته الثقيلة سيرها للمجهول.. هائمًا على وجهه، تطوف به الأسئلة الباكية: ماذا ستقول لحواء الحبيبة، حين تسألك عنه؟ أي حزن سيحرق كبدها، حين تكتشف أنك قد حرمتها منه؟ من سيجيب آدم إن خيم الليل، وخرج عبر الأودية، ينادي حبيب القلب: أين أنت يا هابيل؟ ماذا ستقول لأخيك يوم البعث، حين يسألك: لم قتلتي يا أخي؟

وقبل ذلك، ماذا ستقول للجبار سبحانه، حين يسألك: لم قتلت عبدي؟ أدخلته الجريمة عالمًا معتمًا، وسن سنة القتل، فـ «لا تقتل نفس ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»^(١).. سار قابيل هائمًا حزينًا حتى التقت عيناه بعيون أمنا وأيينا.



بداية الوثنية والشرك

سار قابيل هائمًا على وجهه من شدة الحزن والندم.. سُئل تفكيره، حتى عجز عن التصرف بجثة أخيه هابيل، فكيف سيخبر والديه بجريمته.. الأمر

(١) صحيح البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧).

فوق طاقته.. التقت عيناه بعيني أمنا حواء وأبينا آدم بعد مدة.. تنهدت حواء وأنت.. بكّت، وارتفع نحيبها، وطال حزنها، وسافرت خناجر الحزن في قلب آدم، الذي فجعه الخروج من الجنة، وفجعه ابنه بابنه. وبكّت الأخوات بكاء مرّاً.

أي حزن أدخلته يا قابيل على أسرتك الصغيرة والوحيدة؟ أهكذا يكون البر بأبوين، أسعداك ورعيك، أم هكذا يكون التعامل مع أخ لم ترمه سوءاً.. لم يأخذ مالك، ولم يمد يده لك بسوء، بل أثرك على نفسه، وحقن دمك؟ طال الحزن على هذه العائلة، وطال، ثم مر مع الأيام والأعوام، وكثرت ذرية أولاد آدم وحواء، وواصلت الأعوام مرورها، وكبر أبونا وأمنا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وكساهما الشيب، وأنهكتهما الشيخوخة، ثم حانت ساعات الفراق للدنيا بأسرها.. بحلوها ومرها.. بذكرىات الجنة، ومعاناة الأرض. رحلا فبكاهما الأولاد والأحفاد والأسباط، ثم مات الأبناء، ومات قابيل ورحل، وظل بعده أحفاد آدم وحواء وأسباطهما، يعمرون الأرض بالتوحيد، والبناء والتشييد والابتكار.. برعوا في الزراعة والصناعة الخفيفة، التي تجعل الحياة أيسر وأسهل.. ظلوا على التوحيد، لا يعبدون إلا الله وحده، لا شريك له. جيلاً بعد جيل، طوال عشرة قرون.. لم تعرف الأرض شركاً بالله خلالها.. لا عبادة لأحجار، ولا لأشجار، ولا لحيوان، رغم محاولة الشيطان المتكررة، التي أكسبته خبرة في فهم السلوك البشري.. بعدها لاحت له فكرة شريرة، وكأنه قد انتشلها من الجحيم.. فكرة سيغوي بها ذرية آدم؛ ليعدهم عن التوحيد، دون أن يشعروا، فكرة غلفها بشعارات تحمل حب الله.

وسوس لهم الشيطان: أن يكرموا بعض الأموات من الأولياء الصالحين، من أمثال: (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر)، اصنعوا لهم تماثيل، تذكركم بعباداتهم وصلاتهم.. تماثيل إذا رأيتموها نشطتكم للعبادة، وبعد تردد. نفذ أحد الأجيال تلك الفكرة الشيطانية، فصنعوا تماثيل لإحياء الذكرى، وتنشيط

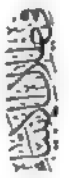
الذاكرة فقط، ثم جاء جيل آخر، فشاهد تكريم تلك التماثيل، فظن أن أرواحًا تسكنها، وتؤثر فيمن يخاطبها، ثم جاء جيل تعلق بالحجارة نفسها، وأغفل الخالق سبحانه.

هنا بدأت الوثنية لأول مرة، وكثرت الأصنام، حتى ولد وسط هذا العالم الوثني طفل سماه أهله (نوحًا).



نوح وعالم الوثنية الأول

بعد أكثر من ألف عام من التوحيد النقي لله سبحانه على الأرض.. بدأت الوثنية تحت شعار تكريم الصالحين، وتخليد ذكراهم، ثم انتشرت انتشارًا مخيفًا، حتى طغت على سكان الأرض قليلي العدد، وفي وسط ذلك الجو الوثني، ولد طفل سماه والداه بـ (نوح).. كبر نوح ونضج.. كان ذكيًا حر التفكير.. تأمل أصنام قومه، فأدرك أن من البلاهة والحمق: أن يعبد الإنسان العاقل حجرًا أصم، صنعه بيده، بل صنعه بالأساس، لتخليد ذكرى بشر مثله، فاصطفاه الله سبحانه، وأنزل عليه الملاك جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ليكلفه بتلقي الرسالتين، اللتين بشر بهما جده الأول آدم (التوحيد والعدل).



انطلق نوح يبشر بهما قومه، كلما أتحت له فرصة.. في معابدهم.. في مجالسهم.. في أنديتهم، وبأي وسيلة ممكنة. بدأ الناس يتهامسون حوله، يشيرون إليه حتى اشتهر، فأثار غيرة الوجهاء، وسدنة الأصنام، لكنه لم يتراجع، فبدأ نجمه يعلو ويرتفع.. وهو يردد في كل مسمع كلماته الرحيمة الحانية العاقلة: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كلمات أثارت حفيظة سدنة الأصنام والتقاليد المتتبعين من بلاهة عابديها السذج.

أدركوا أن هذا الرجل يصرف الناس عنهم، ويصرف الأموال عن جيوبهم، وأن التوحيد سيكشف دجلهم واستغلالهم للبططاء، فبدؤوا بتسفيه رأيه، حتى ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، لكن جدية نوح أفشلتهم.. خاطب عقولهم برقي، فقال: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتُنقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، لكنهم لم يأبهوا، بل انتقلوا لتلفيق التهم له، والتحريض عليه، كي يسهل التخلص منه، بل واغتياله، لكن نوحاً عليه السلام تجاهل تلك العقول الخشبية لكبار القوم، واتجه للبططاء والفقراء، الذين وجدوا فيه إنصافاً وعدالة وإنسانية، فثارت ثائرة الوجهاء مرة أخرى.. هاجوا وماجوا، ليحولوا بينه وبين العامة من الناس.. توجهوا للبططاء يحذرونهم منه ومن التوحيد، بحجة غبية، ويقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، لكن نوحاً ظل مقنعاً يدعو بلا يأس.. هنا عقد كبار قومه اجتماعاً حاسماً، وبعد المداولات قرروا أن ينصبوا له فخاً.. قرروا القيام بخدعة يكسبون من خلالها كل شيء، ويخسر نوح معها كل شيء.



خدعة قوم نوح

قرر قادة الوثنيين تحطيم مصداقية نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم أمام أتباعه بخدعة، هي أن يطالبوه بطرد أتباعه المساكين، كشرط أول لإسلامهم، لأنه إن طردهم فسيكتشف الناس أنه حامل شعارات لا أكثر، ولا تهمه سوى مصلحته وهنا ستركونه.. بعدها سيوجهون له ضربة قاضية برفض التوحيد، فيخسر الطرفين معاً.

وافق المجتمعون على تلك الخطة، ثم توجهوا نحو نوح ليقدموا عرضهم، واثقين أنه سيفضلهم، ويفضل وجاهتهم ودعمهم على أولئك الفقراء. قابله وصارحوه، ثم سكتوا بانتظار الرد، وإذ بنوح يصدمهم.. يبين لهم أنه مجرد حامل رسالة أمين، وأن كنوزهم لا تساوي عنده إسلام فقير واحد.

قال ثقة بربه: ﴿وَيَقُولُوا لَا آتَيْنَاكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِظَارٍ
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكَيْفَ آتَيْنَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقُولُوا مَنْ يَنْصُرُنِي
مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي
أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الْظَالِمِينَ ﴾ .

جن جنون الصناديد.. أصيبوا بالذهول، وهم يرون الإسلام لا يفاضل بين
الناس حسب موروثهم ولا أموالهم، بل حسب إنجازهم وقربهم من الله..
تهوروا، فأعلنوا القطيعة مع أي مجلس يتحدث فيه، لكن نوحًا واصل دعوتهم،
فلم يزد هم إلا فرازا، حتى بلغ السخف ببعضهم أنهم كانوا إذا سمعوه ﴿جَعَلُوا
أَصْوَعًا فِي ءَادَانِهِمْ﴾، ومنهم من يقوم بحركة بالغة الوقاحة.. كانوا إذا سمعوه
شوشوا عليه ﴿وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، وغطوا بهار رؤوسهم لإشعاره بالإهانة، لكنه
ظل صابرا محتسبا متحملا تفاهاتهم.

طال عمر نوح، وطالت معاناته، ويبدو أن معجزته كانت في طول عمره
المديد.. تمر السنوات وهو صامد لا يتزعزع.. مسجلا نفسه أول أولي العزم
من الرسل.. ينوع أسلوب دعوته حسب الظروف والأشخاص، حتى وصف
معاناته معهم قائلا: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾،
أغراهم بمستقبل جميل قائلا: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ وَأُغْفَرُ إِنَّكَ غَفَّارٌ ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ قَذَرًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾، لكن صلفهم
وعنادهم جعلهم يتحدثونه أن يأتي بالعذاب بل هددوه بالقتل.. هنا نزل الوحي
بأمره بأمر مخيف، فإذ به يتوجه إلى المؤمنين ويحولهم إلى شعلة من النشاط
والحركة، وذلك حين طلب منهم أن يقوموا بتحويل أحد الأمكنة إلى ورشة
ضخمة.. التف حولها الوثنيون جاعلين منها مسرحًا للضحك والسخرية
والتندر.

الورشة المخيفة

لم يؤمن مع نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوى القليل، حتى تحدثه الأكثرية قائلة: ﴿يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنشُرِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾، فضاق به قومه، وهددوه بالقتل قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، بل إن إحدى زوجاته وأحد أبنائه خذلاه. ضاقت الأرض بهذا النبي الصابر، بعد هذا العمر المديد، ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

هنا نادى نوح ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾، دعا الجبار سبحانه دعاء مظلوم، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ (٢٤) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٥﴾، ولا يلام، فعشرات السنين من العناد تخلق اليأس، فكيف بقرون، وفجأة نزل الوحي، يأمره بأمر أثار استغراب المؤمنين، بل فجر سخرية الوثنيين.

نزل الوحي يأمره بصنع سفينة ضخمة، لكن نوحًا لا يسكن أرضًا على البحر، ولا يعرف كيف تصنع السفن الضخمة، التي تسمى الفلك، لكن الجبار سبحانه أمره بصنعها بتوجيه من الوحي، الذي سيخبره بتصميمها، وقال له: ﴿وَأَصْنِعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئْ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾. بدأ نوح بتنفيذ الأمر.. انطلق هو والقلة المؤمنة معه نحو الغابة.. بدؤوا بقطع الأشجار العملاقة، وتشذيبها، وإعداد الدسر، وهي المسامير الكبيرة.. حدد نوح مكان الورشة، فحملت تلك الأشياء إليها.

بدأت المناشير والمطارق عملها، حتى بدأ شكل الألواح الخشبية يتجسد شيئًا فشيئًا.. كان الوثنيون يمرون بنوح وفريق عمله.. يتأملون جباههم اللامعة، وسواعدهم التي تتصبب عرقًا، فيرفعون حواجبهم وكأنهم يقولون: لقد جن نوح، بل قالوا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرَىٰ نُوحًا مِّنْهُمْ قَوْلًا﴾، تحولت الورشة إلى مسرح كبير مفتوح في الهواء الطلق.. يتحلق حوله الوثنيون..

يتهامسون.. يفرغون ما بأنفسهم من حقد وبذاءة.. تردد الغابة قهقهات السخرية التي يطلقونها، بينما كان البيت الخشبي العملاق يرتفع شيئاً فشيئاً، وأصوات الاستهزاء ترتفع كلما ارتفع، وفي أحد الأيام توقف العمل. اكتمل البناء، وعيون الوثنيين المتلصصة تكاد تخترق جدرانها بنظراتها، ووجوههم المتطفلة تتلفت داخل غرفه، منذهلة من دقة الصنع وروعة التصميم، وفجأة بدأ أتباع نوح يقومون بعمل أثار جنون الوثنيين.



واهتزت الفلك

اكتمل بناء سفينة نوح ﷺ، وسط قهقهات الوثنيين، التي آلمت نوحاً ومن معه، فلم يطق صبراً ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾، ظل نوح ينتظر بقية الأوامر، وفجأة رأى العلامة.. تلبدت السماء بالغيوم حتى حجبت السماء، وبدأ الماء يفور من باطن الأرض.. اقتربت ساعة الصفر، فجمع نوح أتباعه وأخبرهم بأن موعد الرحلة المخيفة قد حان، فانطلقوا إلى من آمن من أهلهم وأصدقائهم على الفور وأخبروهم.. تداعت آلاف الخطوات نحو السفينة، بينما كان نوح وبعض أصحابه يجمعون من كل حيوان من الحيوانات التي حولهم زوجين اثنين، لتناسل في تلك الأرض البكر.

ربما لأنها سترسو على أرض ليس فيها حيوانات مستأنسة، يؤكل لحمها ويشرب لبنها، وتحمل الإنسان في تنقلاته وأسفاره، فقد أوحى الله عز وجل لنبيه، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، سبقت البهائم المنتقاة، وأدخلت حظيرة أعدت لها داخل السفينة، وهنا أطلق نوح النداء الأخير للمسافرين: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَاهَا مِرْسَئَهَا إِنِّي لَعَنُورٌ رَحِيمٌ﴾.

اكتملت أعداد المسافرين وسط اتساع أعين المشركين، الذين ابتلعوا ألسنتهم، وتلاشت سخريتهم، ولم يبق سوى زوجة نوح وابنه المعاند. بدا المشهد مخيفاً ومرعباً، حين بدأ فوران الماء يزيد، والوجوم يكسو وجوه الوثنيين.. ارتفع الماء شيئاً فشيئاً.. ارتفع إلى مستويات غير مسبوقة.

وفجأة اهتزت الفلك.. ثارت حولها براكين الماء المخيفة.. دب الهلع في المكان، وتفرق المتفرجون الوثنيون.. فروا يبحثون عن ملاذات.. عن مرتفعات لا يصلها الماء.. يركضون هنا.. يهربون هناك.. ينطلقون هلعاً في كل اتجاه، والنوافير العملاقة تتفجر تحت أرجلهم.. تطوح ببعضهم كالبراكين.. لم تكن الأرض وحدها غاضبة.. السماء بدأت تقصف.. انشق الغمام الأسود شلالات عملاقة وهائلة.. اختفت الأرض.. الأرض ماء، والسماء ماء، والأمام ماء، والخلف ماء، وكأن الكون ماء.. طفت السفينة العملاقة، والوثنيون صراخ.. بعضهم يتسلق شجرة، والبعض يتشبث بخشبة، وآخرون يركضون نحو الجبال، واليائس يحاول ملازمة السفينة، التي كان يسخر منها بالأمس، لكن الطوفان حوت يبتلع كل شيء، وفجأة صاح نوح من الألم.



نوح يصيح من شدة الألم

مخرت السفينة عباب السيل.. تشق أمواجاً كالجبال، بعد أن نزل الوحي على نوح ﷺ يقول له: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، امثل النبي الشكور، وامتلات السفينة بحمد الركاب وتسييحهم للجبار، وخلال اصطفاق الموج التفت نوح التفاتة خطفت قلبه.. فتى منعزل يصعد بصعوبة سفح جبل.. حلق به فإذا هو فلذة كبده، فاجتاحته عاطفة كالأمواج وصاح به: ﴿يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، التفت الفتى ونظر لأبيه، وقد أخذته العزة بالإثم، و﴿قَالَ سَتَاوَىٰ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِفُنِي﴾

مِنَ الْمَاءِ ﴿١٠٥﴾، فصاح نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾، وقبل أن يجيب الابن المغرور ارتفع سد هائل بينهما.. جدار هائل من الأمواج ابتلع الابن ومضى بينما كان الربان على حافة السفينة يحدق.. ينتظر رد ابنه التعيس، لكن كل شيء قد اختفى.. اختفى الجبل والابن والكلمات، ولم يبق سوى الحسرات تمزق قلب الابن الحنون ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾، موج هائل ابتلع الابن ومضى، فلم يعد نوح يرى ابنه.

نزف قلب النبي الحنون، الذي استنفد كل طاقته في إقناع هذا الابن العاق، الذي هوى مع بقية الوثنيين للقاع، بينما كانت السفينة ترتفع.. تعلو بالمؤمنين ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، وهم يتمسكون بمقاعدھا.. بسواریھا.. بحوافھا، وقبل ذلك بوعد ربهم، وهي تمضي بهم، متجاوزة أرض العناد، والأصنام التي غرقت، وغرقت معها صناديدها.

ذابت الوثنية في مياه الطوفان.. لم يعد فوق الماء سوى التوحيد وأهل التوحيد، وبعد مدة من السفر لا يعلمها سوى الله نزل أمر الجبار سبحانه: ﴿يَتَّزِشُ آبَاؤُكَ مَآءُكُ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي﴾.

بدأ السحاب المحارب يغادر سماء المعركة، وتوقفت براكين الماء، وبدأ غضب الأمواج يهدأ، وقلوب الركاب تهدأ، وبعد مدة علت الابتسامات، وابتهجت النفوس، وفاضت دموع السعادة أمام مشهد ساحر.. ماء وسماء وسحابات متفرقة، تتخللها أشعة الشمس، وتصبغ الأفق بألوان الطيف.. بدأ منسوب الماء ينخفض، والسفينة تنخفض وتنخفض، حتى اقتربت من مكان يسمى الجودي، ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾، ورست عليه، فارتفعت أصوات الشكر، وفاضت العيون، امتناناً لله سبحانه.

توقفت السفينة، لكن مشاعر الأبوة لم تتوقف، ولهيب الفقد لم تطفئه مياه الطوفان، فقلب نوح لا يزال يحترق على ابنه، فالله أمره بإركاب أهله في

الفلك، وابنه من أقرب أهله، لذا توجه لربه حزينا مناشدا متسائلا، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنَا مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.



ماذا بعد نوح؟

احترق قلب النبي نوح ﷺ على ابنه، وهو يتذكر وعد الله، لذا توجه لربه حزينا مناشدا متسائلا، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنَا مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. وإذ بالجبار سبحانه يصحح له معلومة خاطئة.. قال تعالى: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

أفاق نوح.. وفتح الوحي عينيه على مسؤولياته، فأرغام الناس على الإيمان ليست مهمة الأنبياء.. مهمتهم هي التعليم، ونشر الوعي، والقيادة. والقيادة لا تدار بالعواطف، ومتى ما حركتها العواطف أو الغرائز أوردتها المهالك، وبعد هذا العتاب الرباني، أدرك نوح أن الوثنيين ليسوا من أهله، وعلى ابنه تحمل ضريبة الحرية، التي أعطاها الله إياه، ودفع ثمن عناده.

هدأ نوح، وأدرك المسافة الشاسعة بينه وبين ابنه، فاستغفر ربه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ثم أفاق على كلمات ربه، تبشره بالنصر المبين، وتفتح عينيه على المستقبل، حين أمره الله بالنزول، وقال: ﴿يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هبط نوح، ولامست قدماه أرض التوحيد الجديدة، وهو يقول: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾، ظل نوح كثير الشكر والامتنان لربه، حتى امتدحه الله سبحانه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، نزل الرجال والنساء والأطفال

من السفينة آمنين مؤمنين، يرددون عبارات الشكر للكریم سبحانه، وتوجه البعض نحو تلك الحظيرة، وأخرجوا الحيوانات منها، ثم أنزلوها بطريقتهم من السفينة.. انتشر المؤمنون كالحب على تلك الأرض البكر، واستقروا فيها، وعمروها بالتوحيد، ورعوا فيها، وزرعوا، وصنعوا، وكثروا وكثرت بهائمهم، ومرت الأعوام تلو الأعوام توحيداً وعدلاً، ثم شاخ نوح ﷺ، وضعف ضعف الموت وآن الرحيل.

كان أحد أبناء المؤمنين عند رأسه، فنظر إليه ﷺ بعينه وقلبه، وأوصاه قائلاً: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن، ثم أوصاه بسبحان الله وبحمده، قائلاً: إنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء^(١). ثم نهاه ﷺ عن أمرين خطيرين ومهلكين.



عودة الشرك بعد نوح

أوصى نوح ابنه وهو على فراش الموت، فقال: «آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعن في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة لقصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق كل شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر»^(٢).

(١) سنده صحيح، رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٥٤٨)، وغيره من طرق عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبدالله بن عمرو قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ وعطاء وزيد عالمان ثقتان، والصقعب ثقة أيضاً.

(٢) هو جزء من الحديث السابق.

لم يكن نوح يقصد بالكبر لبس فاخر الثياب والأحذية، وسكن الفخم من المنازل، واقتناء أفخر المراكب، ولا أن يحف بالمرء خدم أو حشم أو أصحاب يجلسون إليه.. الكبر الذي حذر منه نوح هو باختصار: (سفه الحق، وغمص الناس)^(١)، أي رفض الحق، واحتقار الناس.

بعد تلك الوصية البليغة بمدة فارق نوح الحياة، بعد عمره المديد بالنضال والدعوة ونشر الوعي، فبكاه أهله وأبنائه وأحفاده، وبكته أمته، وظلت تحمل رسالته من بعده، جيلاً بعد جيل.. رسالة التوحيد والعدل، وكثر أحفادهم، حتى أصبحوا شعوباً وقبائل، ثم تفرقوا في قارات الأرض.. يروون للأجيال قصة التوحيد والطوفان، الذي اجتاح أرض الأجداد.. تفرقوا فتشقت من لغتهم التي لا يعلمها إلا الله لهجات، ثم تطورت تلك اللهجات إلى لغات، ونشأت من بين تلك اللغات اللغة العربية، وقد انتشرت القبائل الناطقة بها في منطقة على شكل شبه جزيرة، سميت فيما بعد شبه الجزيرة العربية، ومن بين تلك القبائل قبيلة استقرت في جنوبها.. قبيلة يقال لها (عاد).. سكنت مناطق تتوافر فيها الواحات الشاعرية والعيون العذبة.. في مساحات تمتد من حضرموت إلى عمان.

منطقة جميلة، يقال لها (الأحقاف)، والأحقاف كثبان رملية، أقل من الجبال ارتفاعاً.. كثبان تتشكل بطريقة طويلة ومائلة جميلة، ويمكن اليوم رؤية خطوط تلك الأحقاف الرملية البديعة عن طريق صور الأقمار الصناعية، وكان أهلها قد برعوا في بعض الحرف، حتى أصبحت بلادهم مضرب المثل في الإتقان.. اشتهروا بفن البناء، كما برعوا بصنع الخيام الضخمة، ذات العماد الطويلة.. يتفننون في صنع تلك الخيام وجاهة وترفاً.. إنها ﴿إِرمَ ذاتَ الْعِمَادِ﴾ ^(٧) الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ، مرت سنوات طويلة، وإرم على التوحيد، تزداد قوة ونهضة،

(١) سنده صحيح وهو جزء من الحديث السابق.

لكنَّ وباءَ خطيرًا بدأ ينتشر في تلك البلاد الجميلة، وبين تلك الأمة القوية..
وباء متى ما حل بأمة قوّضها وجعلها آيلة للسقوط، حتى لو كانت عملاقة
ومهابة بين الأمم.



هود بن إرم

تغيرت قبيلة (إرم) الموحدة، التي حكمت جنوب الجزيرة العربية.. تسلل
الغرور إليها.. أصبحت مزهوة بقوتها.. خاصة عندما انتشر بين قادتها وأفرادها
شيء يهدد وجودها.. الشرك بالله، والظلم.. مصيبتان تعلنان بداية النهاية للأمم
القوية. أصبحت (إرم عاد) باطشة ظالمة، وتفاقم الظلم والزهو حتى تجاوز
الحد، وفي أجواء الغرور والثنية تلك ولد طفل سماه أهله (هود).

نشأ هود على توحيد الله، ليكبر فيزيده الإسلام وعيًا وإدراكًا بتفاهة عقول
تعبد خشبًا، تنجرها بأيديها، أو حجارة تقدها من جبل.. ظل هود بعيدًا عن
أصنام قومه.. مناجيًا خالقه، وفي أحد الأيام هبط عليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي،
وأخبره أن الله سبحانه قد اصطفاه رسولاً، وأمره بالدعوة للتوحيد والعدل، فالله
هو وحده الخالق والرازق ومالك الملك، وأعظم ذنب عنده هو الشرك.

امتل هود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبدأ يدعو قومه، فإذ بمأساة نوح تتكرر.. رماه قومه
بالسفه، واتهموه بالكذب، فقال لهم: ﴿يَقُولُوا لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٧ أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، لكن إرم ركبوا
رؤوسهم.. رفضوا أن ينصتوا للنبي نشأ بينهم. حاول عَلَيْهِ السَّلَامُ إنعاش ذاكرتهم
بما حدث لأسلافهم قوم نوح، وقال: ﴿أَوْعَيْبَتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى
رَجُلٍ مِّنكُمْ يُنذِرُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ
بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.



ظل يطوف بين سكان تلك العيون والواحات الساحرة والخيام المميزة..
 يناشدهم التعقل، لكن صلفهم زاد، فلم يُسلم إلا قلة منهم، لكن هودًا لم ييأس..
 ظل يحذرهم من الاغترار بما وصلوا إليه من قوة اقتصادية وعسكرية، ومظاهر
 عمرانية مبهرة، وأن عليهم شكر الله، فهو من أمدهم بأسباب القوة، وهو قادر
 على سلبها منهم في أي وقت، قائلًا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَخْدُونَ
 مَصَائِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾
 وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ رِيزِينَ ﴿١٣٣﴾ وَخَسَفَ وَغُيِبَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ
 عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾، وإذ بالحجة البليدة تتكرر: الأصنام تراثنا وميراثنا
 الثقافي، ولن نتخلى عنه مهما قلت، و﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ
 ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾.. مرت سنوات لكن عناد إرم لم يمر، بل ازداد
 وتفاقم، حتى ارتكبوا شيئًا محارمًا، وطوّح بخيامها تلك الأحقاف.



حين تمطر السماء عذابًا

أصيبت إرم بالغرور.. استخفوا بكل شيء، حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾،
 تجاهلوا مناشدة ابنهم البار (هود صلى الله عليه وسلم) بالتعقل.. تجاهلوا تذكيره بعذاب
 الله للمتجبرين، الذي أصاب قوم نوح، لكن صناديدهم كرروا تهور صناديد
 قوم نوح، حين طالبوه أن يأتيهم بالعذاب قائلين: ﴿أَجِثْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ،
 وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

حينها اشتد غضب هود لهذا الصلف والاستخفاف بقوة الجبار سبحانه،
 ومن أجل ماذا؟ من أجل أخشاب وصخور يستطيع حتى الأطفال صنعها،
 لذا دعا عليهم، وقال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّونَنِي
 فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي
 مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾، لم يكثر أولئك المتعطرسون، بل كابروا وقالوا:

﴿وَمَا تَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، وفجأة نزل الوحي يخبره أن الوقت قد حان، وأن على المؤمنين المغادرة.

توجه هود لأتباعه فأمرهم بالاستعداد للرحيل المر، لينطلقوا بعدها نحو بيوتهم.. يجمعون أمتعتهم وما يحتاجونه، ثم شدوها على ظهور جمالهم، وودعت قلوبهم مراتع الصبا والذكريات، وعيونهم تفيض حزناً على تلك العيون والواحات والذكريات، وما أقسا الرحيل عن الأوطان. أخذوا أزمتهم مطاياهم عبر الواحات.. بين الخيام العملاقة والنخيل الباسقة، ثم بدأت أقدامهم تنقش خطوات الوداع على الرمال.. غابت قافلتهم.. ترفعها أحقاف، وتخفضها أحقاف، فتنفس الطواغيت الصعداء، فلن ينغص الدعاة عليهم بعد اليوم عبادة أصنامهم ولا عبثهم، بل شعروا أن رحيلهم فال حسن، فهي السماء تحتفل معهم بسحاب، يحمل مطراً، تتلمظ لقطراته الصحراء.. ابتهجوا، فقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا﴾.

أقبل السحاب، ولما اقترب تغير.. أصبح داكناً جداً.. أظلمت الأرض، وكأن الليل قد هبط قبل أوانه.. اقترب فإذا هو ليس بسحاب، بل إعصار يطاول السماء، يلتف حول نفسه.. يتلوى كقمع هائل، يكبر ويتضخم حتى سد الأفق.. خيم الليل في رابعة النهار، وتلاشى الحلم بالمطر.. بدأت حواف القمع تصل.. تملأ الأفواه والعيون والبيوت بالرمال.. فإذا هي ربح عقيم.. صرصر عاتية، تقتلع من في طريقها.. تقتلع الأعمدة الضخمة، وتجتث الخيام، تقل أطناناً من الرمال، وكأنها تطوح بالأحقاف على إرم. كل شيء فوق الأرض يطير: الكشبان.. الجرائد.. الآلهة.. العسبان.. النخيل. وحتى الإنسان.



أسبوع بين السماء والأرض

إرم يبتلعها الإعصار.. أجساد الأحياء وجثث الأموات، تتطاير طوال اليوم.. طوال الليل. دخل اليوم الثاني في الظلام، وكأن الإعصار قد طوح بالشمس.. أقبل اليوم الثالث والرابع والخامس وكذلك السابع بلا شمس بلا طعام أو شراب، من لم يمت بالريح مات جوعاً أو عطشاً أو تحت الرمال.. لا الليل ليل ولا النهار نهار.. رعب لا يتوقف، ولا يستثني أحداً، وفي اليوم الثامن بدأت الريح تخف شيئاً فشيئاً حتى توقفت، وكأنها لا تريد التوقف غضباً للجبار سبحانه.

هبطت حبات الرمال الغاضبة على الأرض، وانقشع الظلام، وظهرت الشمس لأول مرة منذ أسبوع، فإذا الأرض غير الأرض.. لا عيون ولا آبار ولا واحات ولا نخيل ولا خيام ولا أصنام.. انطمرت تحت ملايين الأطنان من الرمال. أشرقت الشمس فإذا مدينة إرم بقايا مساكن.. امحت أمة أنساها الغرور قوة خالقها.. أصبحت كتيب رمل وقصصاً تروى، بينما أصبح هود وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على أرض أخرى آمنة برحمة الله.. يعمرونها ويعيدون الاستفادة من خبرتهم التقنية في التشييد والإبداع بالتوحيد والعدل، لتمضي السنون، وتمضي سنة الله، فيكبر هود ويشيخ، ثم يموت ويموت صحابته، فتتلوهم أجيال من بعدهم أجيال وقبائل على التوحيد.. انتشرت في الأرض، وقد رحل بعضهم ليسكنوا بلاداً في جهة الشمال.. راقى لهم تضاريسها، فتفننوا في التعامل معها، حتى حولوها إلى أغرب بلاد الأرض.. يدخلها المسافر فيحتار: أبيت هي على شكل جبال، أم جبال على شكل بيوت، أم معارض فنية في الهواء الطلق؟

تلك كانت المدائن أو ما يسمى بـ(الحجر): جمال ورمال ونخيل وبساتين ومنحوتات أبدعتها. قبيلة عربية أخرى تدعى ثمود توحّد الله، وتبرع في فن

النحت.. تتفنن في تحويل الجبل إلى قصر.. إلى بيت إلى نسر إلى سبع.. يمر بها المسافرون، فتدهشهم وتبهرهم، حتى تسلل العجب إلى نفوس أهلها، بعد أن امتلأت رؤوسهم بالمديح، فظنوا أن لا أحد مثلهم.

زهو أنسأهم فضل خالقهم عليهم. هنا بدأ الانحراف، فبدلاً من أن يشكروا الله، ويستمروا في الإبداع.. انصرفوا للابتداع في الدين.. لم يعد النحت فناً فقط.. تعلق الأجيال الجديدة منهم بالمنحوتات، فكسوها بالأساطير والخرافات، حتى غدت أصناماً وآلهة يعبدونها، لتقربهم إلى الله، ثم تعلقوا بها ونسوا خالقهم سبحانه، وفي وسط هذه الثقافة بالغة التخلف، ولد طفل اسمه (صالح).



الآية المخيفة

كبر صالح على التوحيد.. مدركاً أن هذه المنحوتات مهما بلغ جمالها، تظل صماء، لا تنفع ولا تضر، فاصطفاه الله، وأنزل عليه الوحي؛ ليعيد قومه للتوحيد. حاول صلى الله عليه وسلم تفعيل عقولهم، قائلاً: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

كان يذكرهم بنعم خالقهم سبحانه، والناس تحب من يحسن إليها بالقليل، فكيف تتنكر لخالقها ومانحها النعم، التي لا تقدر بثمن. استبد الغرور بقوم صالح، فلم يؤمن معه إلا قلة، أما الأكثرية فأعمت العادات والتقاليد عقولها وقلوبها.. تكرر الأقوال السائدة والنمطية، التي كررها قوم نوح وهود، وتقول: ﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ آبَاءَنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، لكن صالحاً بين لهم أن دعوته ليست اختراعاً منه قائلاً: ﴿يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَيْتُنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُنِي مِنَ



اللَّهُ إِنَّ عَصِيئَتُهُ، فَأَتَرِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ»، ظل يدعو وهم يكذبون، حتى أشرق ذلك اليوم المخيف.

يوم صمت فيه الجميع.. الشوارع والمارة.. اتسعت الأعين، وقطع المتحدثون أحاديثهم، وترك النحاتون تماثيلهم، والباعة بضائعهم ودكاكينهم.. تحولوا إلى تماثيل.. شلت المدائن.. شل كل شيء فيها أمام مشهد أخاذ.. نبي الله صالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدخل المدينة، يتهادى في شوارعها، ومعه مخلوق مخيف، وكأنه يقتاد ديناصورًا ضخماً.

ناقة عملاقة لا مثيل لضخامتها وطول رقبتها، ولا لارتفاع سنامها. من أين أحضرها؟ هل سيمزقهم بها، أم ستطحنهم بأخفافها، التي تهز الأرض.. نظرات السكان خائفة زائغة، لكن صالحاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طمأنهم، وقال: ﴿يَقُولُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ الْإِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾، ثم ذكرهم بالنعمة التي أغدقها خالقهم سبحانه عليهم، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يُوْتًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

سكنت مخاوفهم من الناقة، لكنهم لم يستفيدوا من ظهورها، فظهورها آية على صدق نبوة صالح، لكن الجشع والوسوسة والمناكفة بدأت تقلقهم تسألهم: ما الذي سيكفي هذا المخلوق العملاق من طعام وشراب؟ وقبل أن يفصحوا عما بأنفسهم، بين لهم صالح طريقة التعامل مع الناقة.. طريقة أثارت تسعة مجرمين منهم.

الناقة والمجرمون التسعة

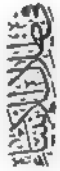
قدم النبي صالح ﷺ لقومه الناقة آية من عند الله.. كانت ناقة وحيدة، وليس صحيحًا أن لها ولدًا (فصيلًا)، لكن منظرها الهائل جعل المشاعر حولها، تتحول إلى حكايات وقصص، تترين بها مجالسهم، أما صالح ﷺ فأرشد قومه أهل الحجر إلى طريقة التعاطي معها، وهي أن يتناوبوا على ورود العين، بحيث يشربون يومًا، ثم يتركوا لها العين، لتشرب هي في اليوم الذي بعده.

ثم كرر ﷺ تحذيره من المساس بها، قائلاً: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمُ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۝ وَلَا تَمْسُوهُا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فهي آية على صدق نبوته، وهم من طلب آية تدل على صدق نبوته، لكن كل من يختلف معك قد يتفق يومًا، إلا المعاند والحاقد، وهؤلاء المعاندون شعروا أنهم تورطوا بهذه الآية، ووجودها بينهم يخرج بقاءهم على الوثنية.. وجودها يثبت صحة نبوة صالح، وهو أمر يثير جنونهم، لا سيما وهم لا يعلمون مدة بقائها، فكلما طالّت مدة بقائها طال إحراجهم، لذا انقسم أهل الحجر حول الناقة، ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

قسم مع الحق مع التوحيد والعدل.

وقسم آخر مع الفوضى والوثنية وتقديس العادات والتقاليد.

أما الناقة فظلت تجوب الحجر، وتدهش المدائن.. يتمايل سنامها الضخم في الطرقات، وهي تدب دون قائد في اليوم المحدد لشربها، ثم تتوقف أمام العين، فتخفض رأسها، وتحني رقبتها العملاقة، لتعب من الماء حتى ترتوي، ثم يحلبونها بكميات هائلة، تزيد يقين المؤمنين، وشكر الشاكرين، وتثير حقن الوثنيين، وتُشعرهم بالهزيمة فيزدادون صلفًا.



مرت الأيام والحقد يتورم، كسرطان في نفوس الوثنيين، وكان من أشرسهم ﴿تَسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، تسعة أشقياء يعرفون الحق، ويصرون على حربه، فالحقد ينغص عليهم طعامهم وشرابهم، ويقض مضاجعهم.. لهم وشوشة في الطرقات، كلما رأوا صالحًا وما جاء به.. بدؤوا يعقدون الاجتماعات عليهم يصلون إلى طريقة، يتخلصون بها منه، فلن يطيب لهم عيش، إلا بالتخلص منه، ولن يطيقوا الحجر، وهو يمشي على ثراه.. طفح كيلهم، فعقدوا اجتماعًا أخيرًا.. تداولوا الأفكار الشريرة، وبعد التداول والتشاور انتهى الاجتماع، وتفرق الأشرار التسعة بعد أن اتفقوا على أمرين: أحدهما أسوأ من الآخر.

أمران أقسموا على عدم التراجع عنهما مهما كانت الأسباب.



من هو قدار بن سالف؟

عقد الوثنيون الأشرار التسعة اجتماعًا حاسمًا، اتخذوا فيه قراراتين: الأول: القضاء على صالح صلى الله عليه وسلم وأسرته، ثم القسم على إنكار أن لهم يدًا في المجزرة، وقد حكى القرآن ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَكَاكَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

أما الأمر الآخر، فهو القضاء على آية صالح، ودليل صدقه، وهي (الناقة)، لأن بقاءها وتردها بينهم يعني المزيد من الإحراج، وقد تطوع للقيام بالجريمة الثانية شقي يميل لونه للحمرة، اسمه (قدار بن سالف). انفض الاجتماع بحماس شديد، بينما كان الشريك يديه فرحًا.

مرت الأيام وجاء موعد الغدر بصالح وعائلته، لكن العملية أجلت، ربما لصعوبة المهمة وكثرة المستهدفين، لذا تم الانتقال للخطوة الثانية، وهي عقر الناقة، لأنها هدف واحد، وهدف سهل.

حدد الأشقياء موعد التنفيذ، وتصدى الأحيمر (قدار بن سالف) للمهمة. وفي اليوم المحدد تسلل المجرمون الثمانية: كالحيات لرصد الطرقات المؤدية إلى مكان الناقة.. يتلفتون، يرصدون، ويتهامسون، حتى خلت لهم الطرقات، وصفت الأجواء، وأصبحت الناقة لوحدها، وإذ بقدار يتعاطى رمحه أو سهمه، ويقبل كالشيطان نحوها.. وضع سهمه القاتل في كبد القوس، ثم شد الوتر إلى منتهاه، ثم أطلق السهم قذيفة، شق أزيزها الهواء، حتى اخترقت جوف الناقة.

دوى في الحجر صوت رغاء هائل.. رغاء رددت الجبال صداها، فانقشع الجناة من الطرقات، وفروا من مكان الجريمة كالفران، لكنهم تركوا بصماتهم عند علام الغيوب. انفجر جرح الناقة العملاقة شلالاً من الدماء، وبدأت تترنح، ورقبتها تتمايل، ورغاؤها الحزين يذيب القلوب.

فتحت الأبواب، وخرج أهل الحجر من البيوت فزعين.. نزفت الناقة ونزفت، ثم هوى جسدها الضخم بالأرض، وارتطم ببحيرة الدماء، فتطاير الدم حولها، وكأنه يستنجد.. ظلت رقبتها تتلوى، تتلون بالدم من الألم، ورغاؤها يخفت شيئاً فشيئاً حتى اختفى، وسكنت الناقة سكون الموت، وكأن قلب المدائن قد توقف.. صعق المارة ببركة الدم، وركض البعض يصيح.. يخبر صالحاً بما جرى.. صُدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخبر، فأقبل مفجوعاً، ثم توقف أمام الساحل الأحمر.. يتأمل الناقة الغارقة، يتأمل آية الله بعينين غارقتين، وإذ به يأمر أتباعه بأمر مخيف.

تمتعوا ثلاثة أيام فقط

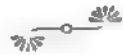
أقبل النبي صالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو الناقة مفجوعًا، ولما توقف أمام بحيرة الدم، تأمل آية الله بعينين تفيضان.. أوجعه صلف الوثنية، وخطرسة طواغيتها.. انتهت المدائن بالنسبة له، ولم يعد في الحجر الحبيبة متسع، لذا توجه نحو عيون أصحابه الدامعة حزنًا، وطلب منهم التأهب للرحيل، فانطلقوا على الفور نحو بيوتهم وبساتينهم، يجمعون أمتعتهم وطعامًا يبلغهم في سفرهم، ثم التفت صالح بحزن إلى قومه المتكبرين، الذين أمضى معهم عشرات السنوات من التنوير والدعوة للتوحيد.

حذر بوجوههم الصفيقة المبتهجة بقتل حيوان، كل ذنبه أنه دليل على صدق التوحيد، وصدق نبينهم، وأنه يمد لهم بالغذاء، لكن صالحًا ليس هو من سيغادر رغم رحيله.. هم من سيغادر رغم بقائهم. تأمل عيونهم، التي يتطاير منها الشرر، وتصفح تقاسيمهم المتشفية، ثم نطق بأحرف كالصوت: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

سارت قافلة المؤمنين خلف نبينهم، الذي اعتصر قلبه حزنًا، وهو يودع دياره.. ساروا بين الجبال المنحوتة، وقلوبهم تعصف بها لوعة فراقها.. تركوا المدائن للوثنيين، الذين اختلطت مشاعرهم: منهم الفرح بمغادرة المؤمنين، حتى تخلو لهم أجواء الفساد والوثنية، وهناك الإمعات التي تقاد.. لا تعرف معروفًا، ولا تنكر منكرًا.. إمعات تتساءل: لماذا ثلاثة أيام. ها قد غابت شمس اليوم الأول، ثم طلعت شمس اليوم الثاني ثم غابت، ثم طلعت شمس اليوم الثالث وارتفعت، فارتفعت معها مشاعر الترقب والقلق، ثم غابت، وفي صبيحة اليوم الرابع صحا الوثنيون من نومهم المضطرب.

وفجأة فتحوا عيونهم لكنهم لم يغلقوها.. دوت صيحة هائلة في سماء المدائن.. صيحة صدعت الجبال، وارتجفت منها الأرض، وخلعت القلوب، وانتزعت الأرواح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ﴾.

أصبحت ثمود متحفًا مهجورًا للتماثيل والجثث.. اكتسحتها غزوة بلا غزاة، فإذا هم قتلى بلا سيوف بلا رماح، فالدم المسفوح كان دم الناقة فقط.. جثث هنا وجثث هناك.. جثث في الغرف والممرات والأبواب وعلى الأسطح وفي البساتين والطرقات والساحات، وغربان هنا ونسور هناك.. تنقر الجماجم والعيون، وتبقر البطون، وتلتهم الأحشاء.. لم تعد المدائن جميلة.. لم يعد أحد يريد النزول بها، ولا الشرب من مائها.. كل الذي يفعله العابرون هو تغطية الأنوف، فرائحة المدائن تزكم الأنوف عفنًا.



إبراهيم في العراق

لم تعد مدائن صالح جميلة.. لم تعد نظيفة.. تناثرت على أرضها الجثث.. تنهشها الحيوانات الرامة والناشبة، وازدحمت السماء بالغربان والنسور.. كان ساكنوها يتطيرون، ويتشاءمون بصالح وصحابته المؤمنين، ويقولون له: ﴿أَطِئْنَا بِكَ وَيَمَنَ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، فحولتهم الغطرسة إلى مدينة مشؤومة.

المدائن الفاتنة أصبحت مدينة أشباح، تجوبها الغربان والرعب، أما صالح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلم بما جرى، وأن قومه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ صَعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، صاعقة دمدمت عليهم حتى أفنتهم، فخاطبهم من بعيد بعد أن تولى ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ﴾، حل المؤمنون في أرض جديدة، فعمروها بالتوحيد والإبداع

والعدل، ومرت القرون تلو القرون، والحجر مهجورة تبكي التوحيد.. تبكي صالحًا وأصحابه الطيبين، وييث صمتها شوقًا للأحبة لا يطاق.. عاد التوحيد للانتشار، لكن الشيطان ظل يوسوس للبشر.. يغريهم بالشرك.. بعبادة الحجر والشجر وحتى البقر.. بعبادة أي شيء..

المهم عند الشيطان أن لا يعبدوا الله وحده، ومن العبادات التي انتشرت.. عبادة الكواكب خاصة في العراق والشام، وكان في العراق رجل وثني اسمه أزر، وقد رزق بعدة أبناء، من بينهم طفل سماه إبراهيم.. نشأ الطفل في تلك البيئة، لكن عقله كان أكبر من أن يكون وعاءًا للتقاليد البالية.. تزوج من فتاة عاقلة، بارعة الجمال تدعى سارة.. كان كثير التأمل لهذا الكون وكواكبه، فأدرك أن له خالقًا ليس كمثله شيء، لذا فهو وحده سبحانه يستحق العبادة، أما تلك الأصنام فليست سوى حجارة، لا تصلح حتى للزينة، فاصطفاه الله لرسالته، وأنزل عليه الوحي، وأمره بإيقاظ قومه.

بدأ إبراهيم صلى الله عليه وسلم بالأقربين.. بدأ بأبويه. خاطب والده بأسلوب عذب ولطيف، فقد كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية لذا خاطبه، قائلًا: ﴿يَتَأْتِيَ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، العقل يقول ذلك، والوحي يؤكد، وأن ما سوى التوحيد هراء وتخاريف، فلا الأصنام تنطق أو تتحرك أو تمنح أو تمنع.. كان إبراهيم متعلقًا بأبيه.. يحبه ويجله، ويتمزق قلبه وهو يراه على الوثنية. قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه: ﴿يَتَأْتِيَ إِيَّيَ قَدْ جَاءَ فِي مَرِ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، لكن يبدو أن قلب الوالد قد قسا، كتلك الحجارة التي يعبدها.. انفجر في وجه ابنه البار، وهدده برجمه بالحجارة إن لم يكف عن دعوته للتوحيد.

حوارات إبراهيم

لم يتراجع النبي إبراهيم صلى الله عليه وسلم عن دعوة والده، وكيف يتراجع ورؤية والده عاكفاً على الأصنام كالخنجر في قلبه، وهل هناك أقسى على قلب ولد بار من رؤية والد مشرك يعبد غير خالقه سبحانه، لذا توجه إلى أبيه آزر، وأخبره عن الشيطان، الذي لن يقنع من ذرية آدم إلا بالركوب معه للجحيم، وقال: ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۝﴾.

انتفض آزر.. فقد صوابه.. أخذته العزة بالإثم: كيف لطفل الأمس أن يوجه أباه الذي وخطه الشيب.. غلا تعصبه للموروث على العقل، وقدم التقليد على التفكير، فطلب من ابنه إبراهيم عدم التحدث معه في هذا الموضوع، بل هدده قائلاً: ﴿أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝﴾، شعر إبراهيم بحزن شديد على أحب الناس إليه.. والده الذي يريد أن يكون من أهل التوحيد والجنة.. نظر إليه بعينين تفيضان رحمة، وخاطبه بكلمات تقطر برًا، وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝﴾.

خرج صلى الله عليه وسلم من عند والده مجروحاً، لكن النبوة أمانة، والتوحيد رسالة، ولا بد أن يوصلها لكل فرد من قومه، وخسارته لو والده لا تعني إهمال غيره.. توجه لقومه في أنديةهم وأسواقهم وشوارعهم وبساتينهم، وحتى في بيوتهم.. لم يترك وسيلة ناجعة إلا استخدمها، ولا حجة إلا أفحمهم بها.. يخاطب عقولهم: كيف يقارنون خالقهم العظيم بجذع نخر أو صخرة صماء، ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْقُضُوا ذُلُّكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ۝﴾، نبههم إلى أنهم عائدون إلى الله، فبم سيجيئونه غداً؟ وقال: ﴿قَابَلْنَاهُ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

انتفضر الوثنيون انتفاضة والده آزر.. طلبوا أن يكف، ففي تراثهم الوثني ما يكفي، قائلين: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَيْنِدِينَ ۝٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، ثم أخبرهم أنه حامل رسالة، ولا طموح له بمنصب أو جاه أو مال، حتى يتهموه.

ذكرهم بشيء مفرع.. ذكرهم بمصير الأمم الطاغية قبلهم، قائلاً: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، كانت غربة إبراهيم مرة.. لم يؤمن به سوى زوجته وابن أخيه (لوط)، ولا يسليه سوى ذكر ربه، حتى إنه طلب منه سبحانه يوماً طلباً غريباً.



إبراهيم والطيور الأربعة

كان الرسول إبراهيم صلى الله عليه وسلم يعيش بين قومه في غربة، لا يذهبها سوى مناجاة ربه وحبيبه سبحانه، حتى إنه طلب من ربه طلباً غريباً، فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، فقال له الجبار: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ فقال: ﴿بَلَى وَلَئِنْ لَيْتُمْ مِثْنَ قَلْبِي﴾، فأوحى إليه: أن يأخذ أربعة طيور، ثم يقطعها كيفما شاء، وقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أخذ إبراهيم صلى الله عليه وسلم الطيور الأربعة، ثم ذبحها وقطعها قطعاً، ثم خرج حتى أصبح بين مجموعة من الجبال. انطلق نحو جبل، فصعده ووضع قطعة على قمته أو سفحه، ثم اتجه نحو ذاك الجبل، وكرر فعله.

ظل إبراهيم يصعد هذا الجبل، وينحدر من ذاك، حتى انتهت القطع، ثم مشى حتى أصبح في نقطة تحيط بها كل تلك الجبال، ثم توقف، وقلبه يخفق بانتظار معجزة خالق السماء والأرض، وما بينهما من مجرات ومخلوقات..

الجبار الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، ثم رفع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عقيرته، وصاح بالأوصال.. هتف بمزع اللحم يناديها.

وفجأة اقشعر بدنه، وزاد خفقان قلبه، وسبح ربه، وهو يشاهدها تلثم، ترفرف في السماء، ثم تقبل عليه؛ لتستقر بين يديه اللتين قطعتها قبل قليل.. آية شحنته يقيناً ومعنويات، لا حدود لها، فتناسى عناد قومه، وعاد لدعوته بطاقة لا حدود لها.. ظل يدعو باللطف بالحسنى، فلم يجد إجابة، لا من بقية عائلته، ولا من قومه، بل تفاقم عنادهم، وتعاظم تعصبهم، فالتقاليد والموروثات أمست كالجرح المتعفن، وتطهيرها سيثير ألماً لا يطاق، ويحتاج إلى عزم، وإبراهيم من أولي العزم، لذا قرر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القيام بصدمة، قد توقظهم من هذه البلادة والغباء، فاختار للقيام بذلك وقتاً ملائماً، وهو ليلة احتفالهم بمناسبة وثنية، يقدمون فيها طقوساً أو طعاماً وقربات لأصنامهم.

نظر إبراهيم للسماء، وصدق بالنجوم.. إنه الموعد، وما هم في طريقهم لاحتفالاتهم وبعض قومه ينادونه للمشاركة. اعتذر إبراهيم، وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فانصرفوا وتركوه، وفي أثناء انصرافهم همس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾.

سمعه بعضهم، لكنهم لم يأبهوا، بل توجهوا للمعبد، وقاموا بطقوسهم، وقدموا قرابينهم لأخشابهم وحجارتهم، التي يسمونها آلهة، بينما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراقب من بعيد.

انتهت الطقوس، وبدأ الكهنة والزوار بالمغادرة، حتى خلا المعبد، وساد فيه الصمت، ولما خلت الطرقات تسلل إبراهيم نحو المعبد يحمل فأساً.



القبض على إبراهيم

دخل النبي إبراهيم ﷺ المعبد بعد انصراف الوثنيين.. يحمل بيده اليمنى فأسًا، أو أداة معدنية، تستخدم لتحطيم الصخور أو الاحتطاب. وقف الخليل أمام مدخل المعبد.. جال بصره بداخله، فلم يجد فيه حركة، سوى انتفاض ألسنة لهب المشاعل.. تهادى بين الأصنام البليدة، ثم وضع الفأس على الأرض، ثم مد يده والتقط طبق طعام تركه قومه بعد احتفالهم، ثم تهادى به حتى وقف أمام أحد الأصنام، ومدّه نحو فمه.

حدق بوجهه، الذي تلونه أضواء المشاعل، ثم خاطبه وخاطب غيره من الأصنام، قائلاً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ؟﴾، لم تتحرك تلك الشفاه الصخرية، وساد الصمت، فصاح في وجوهها: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ؟﴾، ولو رآه أحد عابديها لقال: لقد جن إبراهيم، كيف يخاطب حجارة؟ لكن الوثني لن يسأل نفسه: كيف أعبدها؟ طاف إبراهيم بينها، فلم يجد إجابة، فوضع الطبق على الأرض، فاليوم ليس يوم طعام، ثم انحنى نحو فأسه، والتقطه بيمينه، ثم عاد لإكمال حوارهِ.

وإذ بالفأس ترتفع في الهواء، ثم تهوي كالقذيفة على هاماتها البليدة، ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، ضربة بعد أخرى.. تتوالى الضربات، والجدران تردد صدى الضرب، وارتطام الحطام بين بقايا الطعام، والأصنام تترنح.. تتشقق.. تتحول إلى شظايا ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ثم وقف أمام أكبر الأصنام فلم يحطمه.. تركه شاهد عيان، ثم ألقى الفأس عنده، وغادر المعبد بعد أن حول الآلهة إلى نفايات.. منتظرًا نتيجة الصدمة، التي ستدوي غدًا؟

ارتفعت الشمس، واستيقظ كهنة الدجل، ثم توجهوا نحو معبدهم، ومصدر رزقهم.. دخلوا ببطء، لكنهم خرجوا بسرعة، للشوارع، للميادين، يصرخون، يولولون. لم يستغيثوا بالهتهم. كانوا يستغيثون لآلهتهم.. لشظايا آلهتهم.

علا الصراخ واللطم والعويل في الطرقات، ففتحت الأبواب والنوافذ، وأطلقت الرؤوس تتلفت.. تبحث عن مصدر الصوت.. انطلقت عشرات الأسئلة، فانتشر خبر التحطيم، فخرج الوثنيون مذهولين.. أطلقوا سيقانهم نحو المعبد، ولما دخلوا اتسعت أعينهم، وتعالى الصياح: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، امتلأ المعبد بالضجيج.

وفجأة صاح الذين سمعوا إبراهيم، وهو يهدد الأصنام، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا قَوْلَ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، أجل.. إبراهيم، ومن غيره؟

صدر أمر الكهنة بالقبض عليه، و﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾.



اتركوا إبراهيم فالجاني أمامكم

انطلقت مجموعة من الوثنيين تبحث عن رسول الله إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يجدوا صعوبة في العثور عليه، فتم اقتياده مخفوراً نحو مكان النفايات، وهو في غاية السكينة، كان يتهادى بهدوء، عبر سرادق من الوجوه المكفهرة.. تكاد تحرقه بنظراتها وشتائمها، حتى أوقفوه أمام كبار الكهنة المتاجرين بعقول البسطاء، ليبدؤوا استجوابه: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾.

تأملهم، فقرر كشف حجم عقولهم.. رفع يده، ومدّها نحو أكبر الأصنام، فالفأس تحته، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

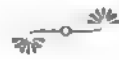
اضطرب المعبد، ونظر الوثنيون إلى بعضهم، وتعالى الضجيج واللغط، بل هناك من اعترف، وأيد إبراهيم قائلاً: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾، نجح إبراهيم في تفعيل تلك العقول الخشبية، فتساءلت: كيف نلومهم، والفأس بين يدي صنمنا الأكبر؟ ألا يمكن أن يكون هو الفاعل؟ أو ليس هو إلهاً؟

لكن، ألسنا نحن من قطعه من الغابة، أو قده من الصخر؟

شعروا بالخجل.. بالغباء، لأنهم لا يستطيعون طرح سؤال قصير ومباشر على الصنم، مع أنهم يدعونه، ويستغيثون به ليل نهار، ويقدمون له القرابين؟ سؤال من عشرة أحرف (أأنت فعلتها؟) لن يكلفهم طرحه شيئاً، لكنهم سينكشفون إن هم فعلوا.. يا لها من ورطة! وضعهم فيها الخليل ﷺ.

فكروا وفكروا، فقررروا الفرار إلى الأمام.. إلى العناد: أجل إنهم سيعبدونها، حتى وإن كانت بكماء صماء. هنا وصف الله انتكاسهم وصفاً مذهلاً، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ نكسوا، وكان عقولهم تحولت إلى أحذية ليست للتفكير، بل للتبرير.. تبرير العادات، فقال ﷺ: ﴿لَأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَبْقَعُونَكَ أَوْ يُصْرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تأفف إبراهيم من تفاهة العقول، وأدرك أن قومه أعداء للتفكير، قائلاً: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ لَكُم مَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم أعلن المفاصلة: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾، ثم كشف لهم الفارق بين الانحطاط والسمو.. وبين أخشابهم وبين خالق الكون سبحانه ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ﴾، كلمات أصابتهم بالجنون، فتشاوروا، وقررروا القيام بعمل أسوأ من الجنون.



محاكمة بلا قضاة

زلزلت كلمات إبراهيم ﷺ المعبد والأصنام والوثنيين.. كلمات تفيض تمجيذاً وعرفانا للخالق سبحانه.. كلمات تقول: لو أنكم عرفتم الله

حقًا لما عبدتم حجراً أو خشبة من خلقه. عجزوا عن الرد، فلعجؤوا الحيلة الفاشل.. قرروا محو ملف إبراهيم تمامًا، فهو إن استمر في طرح أدلته العقلية، ووحى ربه المقنع، فسيكسب أتباعًا، ويسقط دينهم المزيف، لذا حبسوه، ريثما يقررون طريقة للتخلص منه، ثم عقدوا اجتماعًا تداولوا فيه كيفية ذلك، وبعد المداولات قرروا ما يلي:

أولاً: حرق إبراهيم حيًا.

ثانيًا: تكون عملية الحرق مؤلمة لإبراهيم ورادعة لغيره، وذلك ببناء برج مرتفع، يوضع إبراهيم على قمته، ثم يرمى وسط نار عظيمة تحت البرج، ليشهد الجميع مصيره. قالوا: ﴿أَبْنُوا لَهُ بُيْتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾، ثم إصدار الأمر بالبناء، فانطلقت سواعد العمال والبنائين تقذ الصخر وتبني، وكلما وضعوا حجرًا دنا الموت من إبراهيم، وبعد أيام ارتفع البناء ارتفاعًا، يمكن الجماهير من رؤيته، وهو يهوي في النار.

تم تحديد يوم الإعدام، فانطلقت مجموعة من الخطابين، تحمل الفؤوس تجتث الأشجار اليابسة، ثم تحملها نحو البرج، حتى توافرت أمام مقدمته أكوام هائلة من الحطب. مرت الأيام وإبراهيم محتسب في زنارته، ثم طلعت شمس يوم الإعدام على المدينة.

فتحت أبواب المنازل، فلم تنطلق الخطوات نحو الدكاكين والأسواق، ولا نحو المزارع.. خرج الرجال والنساء نحو البرج، مكان الإعدام. منهم من يمشي، ومنهم من يركض.. تسكنهم مشاعر مختلفة.. منهم الفرح كالكهنة وبقية الوثنيين، ومنهم من تختلط داخله مشاعر الحزن بالغضب كوالد إبراهيم، ومنهم ينفطر قلبه مثل والدته وسارة ولوط، اللذين أمضوا ليلة حزينة، وفارقهم فيها النوم، فلن يروا حبيب القلب بعد اليوم.. احتشدت المدينة خلف أكوام



الحطب الهائلة، وقام بينهم وبين الحطب جلادون يحملون مشاعل اللهب،
وسط صيحات الرعاع وحماسهم.

حضر كهنة المعبد، وقادة المدينة، وكبار القوم، ومن بينهم آزر والد
إبراهيم، سحب خطاه.. مد الجلادون المشاعل الملتهبة، نحو أكداس
الحطب، فامتدت ألسنتها حريقاً هائلاً، واللهب يعلو، يلفح وجوه الحشود،
ويتطاير منه الشرر، فيتراجعون اتقاء شره.

وفجأة دبست حركة لوت أعناق المتفرجين، وأدارت رؤوسهم.. خليل الله
صلى الله عليه وسلم يسوقه الزبانية نحو البرج، وهو يرسف في قيوده، ثم بدأ يصعد نحو
القمة، وهو في قمة الهدوء.



دعوة مظلوم على منصة الإعدام

جلبة وأصوات وحركة، لوت أعناق المتفرجين، أمام البرج وحول أمواج
الجحيم.. وأدارت رؤوسهم.. حدقوا، فإذا بخليل الله صلى الله عليه وسلم يحيط به
الجلادون.. يسوقونه نحو منصة الإعدام. أوقفوه وراء البرج، الذي تتأجج
النيران أمامه، ثم بدؤوا يصعدون به، وإذا بمشاعره ترفرف قبلهم نحو السماء
نحو الله.. غير آبه بمن حوله من همج، يهتفون للأصنام والظلم، ﴿حَرِّقُوهُ
وَأَنْصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِنَّ كُنُتُمْ فَعِلِينَ﴾.

كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم يلهج بذكر الجبار.. يلوذ به ويحتمي.. يستغيث به
سبحانه، فاخفت أمامه قوى الأرض، فلم يعد يرى سوى قوة خالق السماوات
والأرض، وفجأة أطبقت عليه قبضات الجلاوزة.. رفعت في الهواء، ثم طوحت
به نحو ألسنة اللهب، وهو يردد الكلمة الملاذ.. الكلمة المعجزة، حين تخرج

من القلب: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فإذا بالكلمة الخالقة تقول للنار: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

تعالى الضجيج وإبراهيم يطير في الهواء، ثم ينغمس بين أمواج النار، فيتطاير شررها وجمرها، ويزداد حسيها. اختفى إبراهيم تمامًا خلف أسوار اللهب، وسط حماس الغوغاء، لكن حماسهم خفت شيئًا فشيئًا حتى اختفى. كانوا ينتظرون صراخه، أو استغاثته، أو حتى أنينه، لكنهم لم يسمعوا، ولم يروا له تخطيًا أو تلبطًا، ولم يشموا رائحة شواء.. انحبست أنفاسهم، وشلت ألسنتهم، لا يدرون ما الذي يجري داخل قلعة النار، ولا يستطيعون الاقتراب منها للتحقق.

وفجأة اتسعت أعينهم، وفغروا أفواههم، وتحنطوا أمام مشهد مخيف. ما هذا؟

إبراهيم يتهاذى فوق الجمر وبين الشرر.. يخرج سليمًا بين أقواس اللهب، التي تقله وتظله، وكأنه يتنزه بين أغصان حديقة باردة الأنسام. لا حروق، ولا جروح، ولا حتى شعور بالحرارة.. ارتفعت التأوهات، وفاضت عينا سارة، وتهلل وجه لوط، وهما يريان قدرة الجبار، وضعف الطغاة، الذين شعروا بالجمر، ينتقل من قلب اللهب إلى صدورهم.



حذق إبراهيم في وجوه القوم، وكأنه يقول لهم: هل تريدون دليلًا أقوى من هذا على صدق نبوتي، وتوحيد ربي سبحانه، ثم غادر المكان تاركًا الجموع حطامًا كأصنامهم بالأمس.

توجه نحو ربه، الذي اصطفاه وابتلاه ونصره، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّيقِي بِالصَّبْرِ الْحَقِيقِي﴾ (٨٢) ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤) ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥) ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (٨٧) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وإذا به وهو في أوج الانتصار يتلقى عتابًا من الله.

محطات خطيرة في الطريق للقدس

كان حب إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبيه حب الابن البار، الذي يحذب على شيخ عنيد قاس القلب، لكن الله كان أرحم بهذا القلب الطيب من أن يذهب من أجل عدو لله، لا يريد أن يرحم نفسه، لذا أمره أن يكف عن الاستغفار له، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَأَنَّ اسْتَغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، فهذا الشيخ المعاند لا يريد رحمة الله، ولا يابسه بها، ولا يقيم وزناً لمن خلقه، وأعطاه السمع والبصر.

امثل إبراهيم، ثم طلب من سارة ولوط الاستعداد للرحيل، فلا مكان لهم بين الوثنيين، فقال لوط لوالديه وأهله: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِِّّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

هاجر الثلاثة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مثقلين بوجع الفراق، فالأهل قساة، والأقربون تحولوا إلى أعداء.. امتطوا رواحلهم نحو الديار المقدسة في الشام.. يقطعون الفيافي والقفار.. بين الأودية والجبال، حتى مروا ببلاد يعبد أهلها الكواكب. ربما كانوا متأثرين بفلسفة ما، فبعض الفلاسفة يرون أن الكواكب والنجوم أطياف خالدة، أرقى من الإنسان، ولها تأثير على روحه، بل ليست تراباً وصخوراً، كما اكتشف العلم الحديث.

حط المؤمنون بتلك البلاد، فرآها الخليل فرصة للتنوير، ونشر الوعي. وكعادته اختار التوقيت المناسب، لتعرية التخلف. الليل، حيث تنتثر الكواكب، فتلهب المشاعر، وحين تلهب مشاعر ضعاف العقول، يصبحون كتلة من العواطف المندفعة، التي تتأثر بأشياء، فتخليها على غير حقيقتها، لذا أراد تفعيل عقولهم وإيقاظها، فتقمص شخصية من يتأثر بالشيء فيعبده. اجتمع بهم بعد الغروب ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (٧٦) ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ

الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَمَا الشَّمْسُ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ
يَنْقُومُ إِلَيَّ بَرِيٌّ مِمَّا تُمَثِّرُونَ ﴿٧٨﴾ إِلَيَّ وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

نظر الوثنيون إلى بعضهم.. صدمهم إبراهيم بكلماته الواعية، وهو
يريهـم كيف أن الوثني بلا عقل، حين يعبد جمادات مسيرة، لاتستطيع حتى
تغيير مسارها.. كان كلامه واضحًا، فعلى أي أساس عقلي يُعبد كوكب دون
كوكب، أو حجر أو حتى بقرة؟ بقي الدعاة الثلاثة مدة، ثم واصلوا نحو الديار
المقدسة.. مروا ببلدة يحكمها أحـمق، يدعي أنه رب، فلم يترك إبراهيم الفرصة؛
لإثبات دجله أمام شعبه.. وقف بين يديه، فسأله الطاغية: من هو ربك؟ فقال:
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. فهون الطاغية إجابة إبراهيم، وقال:
﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾. فصعقه إبراهيم بطلب سهل إن كان ربًا حقًا.



القبض على سارة

أجاب الطاغية إجابة ملتوية، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، ويعني بذلك: أن
أحكم بالإعدام، أو أعفو عن محكوم بالإعدام.

هنا صدمه إبراهيم حين قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ
الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

كان الحكام الظلمة منتشرين في ذلك الزمان، وقد دعا إبراهيم الكثير
منهم أو حاورهم، فبعد مغادرته ديار ذلك الطاغوت مر ببلدة يحكمها وثني،
سيطرت عليه غرائزه، فأصبح بلا أخلاق، وكان له أعوان على درجة متدنية
من الانحطاط.. يفتشون له عن أي فاتنة، حتى لو كانت متزوجة، وما إن لمح
بعضهم سارة، حتى سال لعابهم لأعطية في مستوى جمالها، فسألوا عنها،



فعرفوا من تكون. ومن زوجها، ثم انطلقوا نحو ملكهم؛ ليشرّوه بالصيد الثمين، ولما وصلوا استأذنوا للدخول، والفرحة تلون وجوههم، فلما أصبحوا أمامه سألهم: هل من جديد؟ في مهمتهم النبيلة، فقالوا: «دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء»^(١).

تضعض الحاكم الغرائزي أمام الوصف.. تناسى حرمة الضيف، ولم يرحم غربة الغريب، ليفاجأ إبراهيم وسارة بالحرس يدخلون عليهما التزل، ويقبضون عليه.. كانت تهمته هي أن زوجته جميلة. اقتادوه نحو القصر، فاستأذنوا، فأذن لهم، وما إن رآه الملك حتى سأله: «يا إبراهيم من هذه التي معك؟» تحير إبراهيم ما يقول؟ خاف على حبيبته، وفي النهاية «قال: أختي»^(٢) لعل وعسى، لكن الطاغية قرر الظفر بسارة، حتى وإن كانت أخته، فأمر بإحضارها، فشعر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحزن، وعاد بصحبة الحرس، الذين سينتزعون سارة منه.

دخل إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حبيبته سارة، وما إن رآها حتى قرأ الخوف في عينيها، والتساؤل عما جرى له؟ سأله وقلبها يرتجف عن سبب استدعائه، فأخبرها أنها السبب، فالجمال تهمة في هذه البلاد، وحاكمها يريد لها حالاً، وحرسه في الخارج سيأخذونها، لذا رجاها أن لا توقعه في حرج، حتى لا تتعقد الأمور، قائلاً: «لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي»^(٣). «إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام»^(٤).

ارتبكت عَلَيْهَا السَّلام.. ارتجف قلبها رعباً.. شعرت بمشاعر العفيفات بين الذئاب المتسلطين.. قلت حيلتها، فلا تدري ما تفعل، ولا إلى أين تفر،

(١) صحيح البخاري (٢٢١٧).

(٢) جزء من الحديث السابق.

(٣) جزء من الحديث السابق.

(٤) صحيح مسلم (٢٣٧١).

والبيت محاصر؟ أغلقت الأبواب في عينيها، إلا باب الجبار، فرأت من خلاله زوجها، وهو يخرج بالأمس من النار بسلام، فعادت إليها طمأنينتها، فروح هذا الطاغية وجسده وكل حواسه بيد الجبار سبحانه.

صغر الظالم في عينيها، فتوجهت لمكان في البيت، فأخذت بعض الماء، وتوضأت وصلت لربها، واستودعته عفافها.. فاضت عيناها، تناجي الملاذ حين يعز الملاذ.. تناجي ملك الملوك وخالق الملوك.



سارة في معية الله

فاضت عينا سارة الخائفة تناجي ملاذها وحاميها، ثم أخذت بعض الماء وتوضأت وصلت لربها واستودعته عفافها.. ناجت الملاذ حين يعز الملاذ.. ناجت الجبار وقاصم الجبابرة وملك الملوك وخالقهم قائلة: «اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، فلا تسلط عليّ الكافر»^(١).

ثم ودعت حبيبها بقلب واثق وعينين لامعتين، وخرجت من مكان إقامتها، وسلمت نفسها لشرطة الطاغية الوثني، فاقتادوها وعينا زوجها وقلبه تلاحقها، حتى غابت عن ناظره، ثم توجه لربه يصلي.. يدعو أن يحمي حبيبته ويعيدها إليه.

تهادت سارة مع الحرس حتى وصلت القصر، وما إن وصلتته حتى سُمح لها بالدخول.. أدخلوها مجللة بالوقار والحياء، ثم أوقفوها بين يدي الظالم، الذي فقد صوابه حين رآها، فأنساه جمالها وقار الملوك.. نهض من كرسيه، ودب نحوها كالذئب، ولما اقترب منها مديده نحوها، وفجأة صعق يده ألم شديد شلها.

(١) صحيح البخاري ٢٢١٧.

أدرك الطاغية أن في هذه الفتاة الطاهرة سرًّا.. نظر إليها فزعًا، وناشدها قائلاً: «ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك». فشعرت سارة بمعية الله.. بعظمته تحيط بها.. تحميها، وأدركت ضعف من يقبض على يدها، فدعت ربها أن يطلق يده، وما إن دعت حتى استعاد الرجل يده، وبدأ يحرك أصابعه بارتياح، وينظر إليها وسط دهشة حاشيته وهلعهم، لكن نزوته الشيطانية عاودته، فمدها مرة أخرى، فإذا بألم يشل يده أشد من الألم الأول.

شعر بضعفه وهو ينظر لحاشيته، لكنه اضطر صاغرا التكرار طلبه أن تدعو الله، فدعته فتحررت يده، لكن العزة أخذته بالإثم، وكأنه يقول لحاشيته: إنه ما زال يسيطر على الأمر، فمد يده، فإذا بألم لا يطاق، يحرق يده، حتى جعله يصيح مستنجدًا: «ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أن لا أضرك»، ففعلت، وأطلقت يده، وما أن تحررت يده، حتى صاح بالموظف المسؤول عن تلك المهام الهابطة، ولما جاء صاح به غاضبًا: «إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي».

خفق قلب سارة شكرًا لله، لكن قبل أن تغادر القصر شعر الطاغية بالخوف، فطلب من أحد موظفيه أن يمنحها إحدى خادmates المميزات، وهي فتاة مصرية مؤدبة. اسمها هاجر، فقال: (أعطها هاجر).

ذهب الحرسى، وأحضر الفتاة، وطلب منها الالتحاق بهذه المرأة الصالحة، خادمة لها. خرجت سارة من القصر، وكلها ثناء لله، ولما أقبلت على النزول، كان إبراهيم يصلي، يناشد ربه ويناجيه. فلما رآها إبراهيم انصرف، فقال لها: «مهيم؟ قالت: خيرًا، كف الله يد الفاجر، وأخدم خادمًا»^(١).

اطمأنت العائلة الصغيرة، لكن ذلك لم يدم طويلاً فقد عاد الحرس مجدداً، فأبلغوه أن الملك يأمره بمغادرة البلاد هو ومن معه فوراً. حمل الزوجان

(١) صحيح مسلم (٢٣٧١).

متاعهما، وركبا وغادرا البلاد، ومعهما لوط وهاجر.. فيا لخليل الله، ما أقسى حياته وحياة زوجته، لكن إلى أين هذه المرة؟



هاجر لم تعد خادمة؟

سافر إبراهيم ورفقته الطيبة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومعهم الفتاة هاجر، التي دعاها الخليل للتوحيد، فرأت نقاء العقيدة، ورقي السلوك النبوي، فأسلمت. تمايلت رواحلهم نحو الأرض المقدسة، ولما وصلوها اتخذوا بيتاً، واستقروا هناك، يدعون للتوحيد والإسلام. ومرت سنوات فكبر لوط، فأنزل الله عليه الوحي، وأمره بالتوجه نحو قرية وثنية سيئة السمعة، يسكنها قطاع الطرق واللصوص الشاذون، يقال: إن اسمها (سدوم)، فانطلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها، وبدأ يدعو أسوأ قوم على وجه الأرض.

مرت الأيام والسنوات، وكبر إبراهيم، وبلغت سارة سن اليأس دون أن تنجب، فجلست يوماً تفكر في حال زوجها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحلمه بطفل، يبهج حياته، وتتأمل جمالها الأخاذ، الذي بدأ يذبل، وخصلات شعرها، التي بدأ الشيب يلون بعضها: الشباب ولى يا سارة، والعمر يمضي، والزوج لا يزال يحلم.

خفق قلبها لإسعاد زوجها بفكرة مريرة على النساء، فتحاملت على نفسها، وتفوقت على غيرتها وطبيعتها الأنثوية، فتنازلت عن ملكية هاجر، ووهبتها لإبراهيم علَّ الله يرزقه بذرية منها. وافق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد تسعة أشهر، انطلقت صرخة بريئة، بين جدران ذلك البيت الجميل. ابتهج إبراهيم ابتهاج الكبير بالمولود، وملأت السعادة قلب هاجر.. حتى سارة كانت سعيدة بهذا الصغير العذب، الذي طالما تمننت أن يكون منها. فحمله وشمه وضمه وقبله، وشكر الله الذي لا تحصى نعمه، وسماه (إسماعيل). كان من فرط حبه، يعيده بربه

كل يوم، ويقول: «أعيدك بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(١).

لكن سعادته بطفله لم تدم طويلاً. سرعان ما ابتلاه الله بفراقه، فهذه الأسرة لم تعرف طعم الرفاهية والاستقرار. حيث دخل إبراهيم ﷺ ذات يوم على هاجر، فأمرها بالاستعداد للرحيل، فنهضت عَلَيْهَا السَّلام، وجمعت ثيابها ومتاعها، ووضعتها على راحلتها، وحملت رضيعها، وودعت سارة التي ودعت ذلك الرضيع بالدموع.

انطلق إبراهيم وهاجر مغادرين الأرض المقدسة نحو الجنوب، وعبروا الفيافي والقفار.. ارتفعوا وهبطوا، وبعد أسابيع احتضنهم واد صامت، تحفه الجبال. توقفت راحلة الخليل تحت دوحة عند جبلين صغيرين، هما الصفا والمروة، فنزل ﷺ، ومدت له هاجر رضيعها، فأخذه منها فتزلت. لم يكن في ذلك الوادي شيء.. لا بشر ولا زرع ولا حياة.. لا شيء، سوى الجبال وبعض الأشجار والانتظار. أنزل المسافرين ما معهما من ماء وجراب تمر، ثم ارتاحا من عناء السفر، ثم أخبرها الخليل: أنها في مكان يقال له بكة، وأن تلك الراية المرتفعة التي أمامها، ستكون مكان بيت الله المحرم، وبعد يوم أو يومين تلفتت هاجر فلم تجد حبيبها إبراهيم ﷺ. فانطلقت مذهولة تركض عليها تسترده.



لماذا تتركني يا إبراهيم؟

نزل رسول الله إبراهيم وهاجر وابنهما إسماعيل عَلَيْهِمُ السَّلام في واد، يقال له بكة.. خال من السكان والزرع والحياة.. بين جبلين صغيرين، سميا فيما بعد

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

(الصفاء والمروة). مر اليوم الأول، وهما يأنسان بذكر الله، وقرب بيته الذي كان مجرد رابية مرتفعة.

غابت الشمس فانتشرت النجوم، تحديق بالغرباء، وشمخت الجبال كالحرس حولهما، وفي الغد أو بعده حدث شيء أذهل هاجر: إبراهيم يقبل طفله ويودع حبيبته، ويتركهما عائداً للأرض المقدسة الأولى بالشام! كيف يحدث هذا؟ ما مصيرها وسط هذا الوادي القاحل؟ ما مصير رضيعها المسكين؟ أهذه هي الفرحة بالوليد بعد هذا العمر الطويل؟

أسئلة خائفة، لا تدرك معاناة الأنبياء، وثقل أمانتهم. انطلق الخليل الحزين، فشعرت هاجر بالخوف من سباع الوادي وضواريه.. من الجوع والعطش فيه.. من الوحدة، فلم تستطع البقاء إلى جانب صغيرها الذي يحب. وضعت على الأرض وانطلقت تركض خلف حبيبها، عليها تثنيه عن رحلته.. تستعطفه: «يا إبراهيم، أين تذهب وتركنا بهذا الوادي؟! الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟»^(١) تناشد أبوته وهو لا يرد.. تلتف حوله تريد رده، أو حتى صده، وهو ماض كالخنجر في قلبها. لم يلتفت إبراهيم، وكأن الحزن يمنعه من الالتفات، وهي تتوسل تريد إجابة مقنعة لتركها: «أين تذهب؟» ترى هل اشتاق لسارة، أم يريد التخلص منها؟

وفجأة أفاقت هاجر.. أدركت أنها رفيقة نبي، فقالت لنبيها: «الله الذي أمرك بهذا؟»^(٢) هنا فقط نطق إبراهيم، وهو صابر محتسب، فقال: «نعم»، وهنا توقفت هاجر. لم تعد بحاجة إلى أحد مع الرحمن الرحيم.. أدركت أن رحلتها وحي، وأن رحيله وحي، وأنها بمعية الجبار ورعايته سبحانه، فودعته بكلمات أرسى من الجبال، التي تحيط بها، وقالت: «إذن لا يضيعنا»^(٣).

(١) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٦٤) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

اخترقت كلماتها قلب إبراهيم فتزف رحمة بطفله الرضيع وأمه. سار حتى
توارى عنهما، وكأن عينيه لا تطيقان النظر إليهما ثم توقف، والتفت نحو البيت
واستقبله، ودعا بقلب منقطر: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ
الشَّمْرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

أما هاجر فأنشت، وألم الفراق يعصف بقلبها.. عادت لطفلها، عادت لهذا
الجميل، الذي يحبو لهفة عليها، فأنحت عليه، وأخذته وضمته، وأغمضت
عينيهما عليه، فسالت الدموع رحمة به وشوقاً لأبيه، واسترحاماً لمن أودعها
هذه الأرض القاحلة.. لم تدر أنها ستكون أمّاً لشعوب وقبائل عظيمة تتدفق
من هذا الوادي، وتسيح في أرجاء الجزيرة، وتتردد عليه.

لم تنته أحزان هاجر.. فجأة استبد بها رعب أشد من رعب الأمس، وركض
أشد من ركض الأمس.



الموت يجول في الوادي

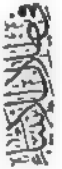
ظلت هاجر مع رضيعها إسماعيل يوماً أو اثنين.. تلاعبه مرة، وتهدهده
مرة، وترضعه أخرى.. عاشت ساعات من الخلوة مع الله عند بيته المحرم..
لحظات من لذة المناجاة، وصفاء الروح، طالما بحث عنها الأولياء في أجواف
الليالي.. في البراري.. في الخلوات بعيداً عن أعين الخلق، حيث يشعرون
بصفاء يغمر القلب، وأنوار تعرج بالروح. إذا اشتد عطشها أخذت جرعة من
قربتها، وإن جاعت مدت يدها لجراب التمر، فتناولت ثمرة أو تمرتين، تمضغها
ثم تضع شيئاً منها في فم الرضيع، الذي يتلمظ لسانه الصغير فرحاً بحلاوتها،
وتهتز أطرافه حماساً، فيزين واديهما بمناعاته ونظراته البريئة العذبة، لكن التمر

بدأ يقل، والماء بدأ ينفد، وقد يجف صدرها إن نفذ الماء والتمر.. ظلت قلقة،
ثم تحول قلقها إلى هلع.

جفت شنة الماء، فكادت تفقد صوابها.. ناولت رضيعها صدرها، لكن
شفتيه لم تبلل بشيء، ينظر إليها ييكي، فينفطر قلبها، ويستبد الرعب بها،
وتشعر بالموت يدنو من صغيرها الحبيب، فتفقد صوابها، وتتركه على
الأرض، وتنطلق وهو ييكي يتلبط.

تركض بلا وعي نحو جبل الصفا علّها ترى أحداً قادماً يسعفها. صعدته.
حدقت. استشرفت فارتد طرفها حسيراً، فانحدرت تركض ركضاً شديداً نحو
جبل المروة المقابل وبكاء رضيعها عن يسارها يرتفع.. يمزق قلبها وهو يحبو
نحوها يريد لها، فتصعد المروة علّ مسافراً من الجهة الأخرى يقبل بجرعة ماء..
تاهت عيناها الغارقتان بالدموع، ثم عادت للصفاء تركض وبكاء الصغير يزيد
حزنها وعطشها.. ظلت تركض بين هذا الجبل وذاك، حتى أنهكها الركض،
وفقدت الأمل، فانحدرت بعد المرة السابعة من المروة منكسرة حزينة، وقد
سلمت أمرها لربها، وفجأة توقفت.. صه:

هناك صوت.. حفيف يشق السماء والهواء.. أنصتت تحاول التقاطه بين
سكتات رضيعها.. ما هذا الصوت؟ صاحت في الوادي: (قد أسمعت إن
كان عندك غواث)، ثم التفتت عن يمينها نحو طفلها، فإذا بالمشهد يذهلها:
جبريل كبير الملائكة ﷺ قائم بجانب الرضيع.. يضرب كبير الملائكة
بعقبه الأرض، فتتصدع من ضربته، كما يتصدع الزجاج، وإذا بالماء ينساب من
كل الجهات، نحو مركز الضربة، ثم يبدأ بالنبع من موضع الضربة يترقرق، ثم
يفيض بشراً ليس كالآبار.. نبعت أول قطرات زمزم، فاجتاحت الفرحة هاجر،
وحمدت الله، وركضت نحو الماء الذي بدأ يسيل على وجه الأرض.



مدت يديها نحو التراب المبلل بالماء، وصنعت منه جدارًا صغيرًا لتحجز الماء، ثم نهضت نحو قربتها وأحضرتها، وضمت كفيها كالمغرفة، وأدخلتهما الماء، وبدأت تغرف، وتملأ الشنة، والماء يفور يترقرق، ثم رفعت قربتها الملائى، فشربت منها، فكانت أول امرأة تشرب من زمزم.



الوادي ينبض بالحياة

بللت هاجر ثغرها بضيعها بالماء، وعادت الحياة لها ولصغيرها الحبيب، فكانا أول من يشرب من هذه البئر المعجزة، ثم تأملت هذا الملاك المهيّب، الذي يقف إلى جوارها، وقبل أن شكره هتف كبير الملائكة وطمأنها قائلاً: «لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضع أهله»^(١)، وأشار إلى الرابية المرتفعة أمامها، وآثار السيول عن يمينها وشمالها، ثم خلق الملاك في السماء، بعد أن دبت الحياة في الوادي المبارك.

حتى السماء سرت فيها الحياة، بدأت الطيور تحلق نحو نبع الماء.. تحوم وتهبط قرب.. تؤنس وحشة هاجر، وتزيد من فضول الرضيع الذي يحب نحوها.. يناغيها، وبعد أيام انحدرت من جبل كداء قافلة يمنية من قبيلة جرهم، فشدها شيء في السماء لم تره من قبل.. طائر يحوم. حديق المسافرون بطريقة طيرانه، فأدركوا بحكم خبرتهم أنه طائر عائف، والعائف هو الذي يحوم على الأماكن التي فيها ماء، لكن ماذا يفعل هذا الطائر، وليس في هذه المنطقة ماء؟ إنها مجرد أودية جافة تتعطش للمطر.

توقفت القافلة على غير العادة، فالقوافل عادة تمر فلا تتوقف هنا.. قرروا

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

اكتشاف أمره، فقال بعضهم لبعض: «إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهذا بهذا الوادي وما فيه ماء»^(١).

طلب كبيرهم ملاحقته، فانطلق رجل أو رجلان وعيونهم تتردد بين السماء والأرض.. بين الطائر والهدف، وفجأة توقفوا.. اتسعت أعينهم.. فوجئوا بشابة وطفل ونبع ماء.. لم يفعلوا شيئاً.. لم ينادوها. اكتفوا بثني أزمة مطاياهم، والعودة نحو قافلتهم، التي أدركت أنهم عثروا على السر، وما إن وصلوا حتى زينت الابتسامات الوجوه، وعلت الأصوات تبشر وتستبشر.. غمرت المسافرين فرحة عارمة، فانطلقت القافلة نحو الماء، ولما أقبلوا أدهشهم المشهد فتوقفوا.

كان اليمينيون مؤدبين جداً.. تقدموا نحو أم إسماعيل.. تبادلوا التحايا بطريقة ما.. قد يكون بالإشارة، لأن القافلة عربية جهرمية، أي من العرب العاربة، أما هاجر فلم تكن هي ولا زوجها إبراهيم عليهما السلام من العرب. استأذنوا أن ينزلوا ويجاوروها حول هذا النبع الرقراق، فوافقت، لأنها كانت متعطشة للأنس البشري، ولكنها اشترطت أن الماء ليس من حقهم، وأنهم مجرد ضيوف كرام عليها: «ألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس»^(٢) وأسعدها ثم أناخ المسافرون مطاياهم، ونزل الرجال والنساء والأطفال.. اغتسلوا وشربوا، ودب الأنس في المكان.

نصبوا خياماً مؤقتة.. تبادلوا مع أم إسماعيل الزيارات، وأهدوها من طعامهم، كما أهدتهم ماءها.. يحملون طفلها.. يلاعبونه، وهو يحبو بينهم حتى كبر، وتعلم لغتهم، وأصبح يرعى الغنم معهم، وفي أحد الأيام تعرض إسماعيل لأمر بالغ الخطورة.

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح البخاري (٣٣٦٤) عن النبي صلوات الله عليه وآله.

زمزم يحول الوادي إلى مدينة

بدأ الرضيع إسماعيل يقف على قدميه، ينتفض ثم يسقط.. يخطو خطوة، ويعثر خطوتين ويسقط.. يتراكم نحو أمه هاجر، وابتسامته تسعد قلبها، وضحكته تزين الوادي.. تحول المسافرون اليمنيون إلى عائلة كبيرة لهما.. طاب لهم المقام بين إسماعيل وزمزم، ثم أصبحت مكة محطة للمسافرين، ثم مكانًا للإقامة، قد السكان الجدد الصخور من أطراف الوادي، وشيدوا البيوت هنا وهناك، وبدأت استجابة الله لدعوة إبراهيم تتشكل على أرض مكة، فتحولت من واد إلى قرية تجارية مفعمة بالنشاط.

زمزم المعجزة الربانية.. حولت مكة من واد صامت إلى قرية تنبض بالحياة.. كبر فيها إسماعيل.. بدأ يلعب مع صبيان القبيلة اليمنية.. يرعى الغنم معهم.. يتكلم لغتهم ولغة أمه هاجر التي ربه على التوحيد، ثم أصبح الطفل مراقبًا يفوق أقرانه أدبًا وخلقًا.

وذاث يوم من تلك الأيام كان السراب خلف جبل المروة، يتماهى بطيف قادم من بعيد.. يتهادى شيئًا فشيئًا، ويفصل عن السراب شيئًا فشيئًا، ولما اقترب المسافر أدهشه المشهد، وخفق قلبه وقد تحققت المنى، فها هو الوادي يعج بالحياة والأنس كما تمنى، وها هي الأفئدة تهوي إليه، ويطيب لها العيش فيه.. تساءل شوقه كيف غدا حبيب القلب إسماعيل وأمه؟ توجه نحو بيت الله فوجد الماء والحياة وحبيبه هاجر وإسماعيل.

عانق الشيخ ابنه بشوق، وفاضت عيناه هاجر وهي ترى إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه السنوات.. أمضى الثلاثة أيامًا سعيدة، واختلط إبراهيم بالسكان، وبصّرهم بالتوحيد رسالة الأنبياء، وزادهم وعيًا بأمور دينهم برسالته الثانية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، فالعدل

مكمل للتوحيد، لتتناغم الدنيا بالآخرة، والسماء بالأرض، فلا عمارة حقيقية للأرض دونهما.

ظل إبراهيم ينير القلوب والعقول، ويبدو أن لهاجر وزمزم دورًا في إيمان تلك القبيلة الطيبة، وفي أحد أوقات الإيمان والوعي تلك.. وفي مكان كالخيال كان إسماعيل مستلقيًا، وإذ بوالده إبراهيم يقترب منه فجأة، ويمسك برأسه، ويسل سكينًا فينحر رقبته.. تفجر الدم، فأفاق إبراهيم من نومه حزینًا من هذه الرؤيا المخيفة.. كيف ينحر فلذة كبده في مكان مقدس، يحرم سفك الدم فيه.. مكان يقول الله عنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَةً مِّنَ الْآيَاتِ لِلنَّاسِ وَأَمَّا﴾.

ومما زاد حزنه هو أنه لا بد من تنفيذ هذه الرؤيا، فرؤيا الأنبياء وحي. ولن يتردد الخليل في تنفيذ الوحي.. ياله من اختبار صعب.. أي ابتلاء أشد على النفس من هذا؟ ما أكثر ابتلاءات إبراهيم وأثقلها. نهض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مرقده وهو مهموم بتنفيذ أمر ربه: هل يصارح ابنه، أم ينحره وهو نائم، أم ماذا يفعل؟



إسماعيل يودع هاجر

بعد تلك الرؤيا أخذ إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنه الحبيب بعيدًا عن أمه، حتى لا يجمعها، وما إن اقترب منه، حتى قال له بصوت يتهدج حزنا: ﴿يَبْنَؤُاْ إِنِّيْ أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّيْ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى؟﴾.

ارتجف قلب إسماعيل خوفًا، لكن سرعان ما تماسك.. لم يقل: لماذا، وكيف، وما ذنبي؟ سلّم أمره لله سبحانه، بل حثّ والده على تنفيذ وحي ربه، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيْ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، قدم الفتى إرادة ربه على إرادته، ورضي أن يكون قربانًا لله، والحزن يفطر قلبه على فراق أمه.. كأنني به بعد ذلك يجلس قربها.. يطيل النظر إليها، والتأمل في طيفها

الحبيب، وهي لا تدري ما سر تلك النظرات؟ لا تدري أنها نظرات مودع.. تقدم له طعامًا فيعتذر.. لا حاجة لي بالطعام يا أماء.. النظر إليك أول وآخر وجباتي، فهل سيتحمل قلبك رحيلي، وكم من الدموع ستدرفينها بعدي.. يتذكر طفولته وغربته معها.. ينفطر قلبه وجداً عليها، فلن تناديه بعد اليوم، ليحضر لها ماء من زمزم، أو يحلب شاتها.

دنت الساعة.. نهض الفتى مع والده، ومشى حتى غاب عن ناظريها.. مشى ثقيلًا حزينًا.. حتى مر بملاعب رفاقه حول زمزم، فيزداد حزنه.. لن يلعب معهم بعد اليوم، ولن يسابقهم، كلما أقبلت قافلة أو أقفت.. إنه الآن يسير بجانب والده الحزين، الذي يحمل سكينًا حادة، لن تأخذ منه وقتًا في تغييبه عن هذا الوادي الجميل، بل عن الدنيا بأسرها، وبعد خطوات ثقيلة وحزينة، توقف الوالد، فهل تعانقا، وسالت دموعهما؟

أضجع إبراهيم ابنه على الأرض، وكأنه لا يريد لعينه أن تلتقي بعيني فيضعف ويتراجع، لذا تله للجبين، وأدار وجهه نحو الأرض.. بدأت دقات قلب إسماعيل تسارع، وأنفاسه تتصاعد، والتراب يتل بقطرات دموعه، ويلتصق بشفتيه المرتعشتين.. قرب إبراهيم سكينه من رقبة ابنه الصغيرة، وإذا بصوت مهيب يقاطعه.. يوقف يده وسكينه، ويقول له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا ۚ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَمَوْ أَلْبَتُوا الْمَيْنُ ﴿﴾، رفع إبراهيم رأسه، وفاضت عيناه، وتنفس الصعداء، وألقى السكين، واستعاد ابنه وضمه، وانهمرت دموع الفرح والشكر لله، وقبل أن ينهض الاثنان، التفتا على صوت وحركة قربهما، فرأيا كبشًا بالقرب منهما. معجزة أخرى لهذا النبي الصابر، يقول الله عنها: ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

نهضا نحو الكبش، وأخذاه نحو مكان النحر، وقرباه لله، وأهدوا من لحمه، وتصدقوا، وأكلوا، وابتهجوا، ومرت الأيام على قصة الفداء والابتلاء، لكن

الحزن عاد.. ها هو إبراهيم يودع أحبته، ف لديه مهمة في الشام.. سافر الخليل
المبتلى، لتمر على فراقه سنوات وسنوات، كبر خلالها الفتى، وبلغ مبلغ
الرجال، والجميع يجلسونه، ويجلسون أمه.. كان إسماعيل مهوى أفئدة العذارى،
فمن هي التي ستفوز بأمير مكة، وسيد زمزم؟



ورحلت هاجر

كانت أسر قبيلة جرهم اليمنية تحب الفتى إسماعيل ﷺ وتجله..
خاصة بعد قصة الفداء، فعرضوا عليه الزواج من إحدى فتياتهم، فوافق،
وابتهجت هاجر، وزفت عروس ابنها، وامتأ الوادي الجميل بالأفراح، لكن
تلك الأفراح لم تدم طويلاً لآل إبراهيم، فالحزن لم يغادر الوادي.. إنه يختبئ
لهذه الأسرة بين الجبال.. الحزن مجدداً يعصف بقلب إسماعيل، فها هو عند
فراش حبيبته هاجر، والمرض يفتك بجسدها الشاب.. يأخذها شيئاً فشيئاً،
حتى أسلمت الروح، وفارقت الحياة. ذرف الشاب الدموع حزناً عليها وشوقاً
إليها، لكنه لم يكن وحده الحزين. الوادي كله حزين، ونساء الحي ورجاله
يكونون بحرقة السيدة الكريمة.. السيدة المضيفة.. يكون أميرتهم وسيدة مكة
عليها السلام، وابنها البار يضعها في قبرها، ويهيل التراب والدموع عليها.

رحلت أول امرأة سكنت مكة، وأول امرأة شربت زمزم.. رحلت من
اصطفاه الله، لتكون أما لإسماعيل، وأما لقبائل عظيمة من العرب.. رحلت
المناضلة التي لم تهناً بشبابها.. تقاسمته الغربة والمعاناة والبذل لله.. لم تهناً
بحبيبها إبراهيم.. ماتت والشوق إليه يملأ قلبها.. أصبح إسماعيل في غربة..
أم تحت التراب، ووالد لا يدري متى سيراه.. ما أقسى حياة آل إبراهيم عليهم السلام.

مرت سنوات لتفاجأ مكة بحبيبها إبراهيم على مشارفها.. يتهادى وقلبه يخفق حزناً على هاجر.. تذكره مكة بها، فتحت هذه الدوحة نزلت عن دابتها، وهنا لحقت به ونادته: «أين تذهب يا إبراهيم، وتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟» وهنا هتفت به: «الله الذي أمرك بهذا؟»، وهنا تهدج صوته حزناً، وهو يقول لها: «نعم». مشى ﷺ حتى أصبح أمام باب إسماعيل، فاستأذن فخرجت له فتاة، حيته وحياها، فعرف أنها زوجته، فسألها عنه؟ فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن أحوالهم المعيشية والمادية، فوجد إجابة تطفح بالطيش والتذمر. قالت: «نحن بشرٌ. نحن في ضيق وشدة»^(١)، وبدأت تتلو عليه قائمة من التذمر، لا تليق ببيت نبي.

أنصت ﷺ لها، ولم يقاطعها، وحالما انتهت اكتفى الشيخ بكلمات قليلة غير مفهومة. ثم ودعها وكلها حيرة. عاد إسماعيل، ولما دخل سأل زوجته: «هل جاءكم من أحد؟» قالت: «نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته: أنا في جهد وشدة»، قال: «فهل أوصاك بشيء؟» قالت: «نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك»^(٢).

خفق قلب إسماعيل ﷺ حزناً وشوقاً، وأدرك مغزى الوصية، فنظر إلى فتاته المتذمرة بحزن، وقال: «ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك. الحقى بأهلك»^(٣) فطلقها، ثم بقي مدة أعزب، حتى لاحت له فرصة للزواج من فتاة أخرى أطيب.



(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

إسماعيل لا يناقش أوامر الله

مرت أسابيع وربما أكثر، فإذ بإبراهيم صلى الله عليه وسلم يستأذن مرة أخرى على باب إسماعيل، فتفتح فتاة بشوش، تحييه وترحب به.. عرف أنها زوجته، فسألها عنه، فقالت: «خرج يتغني لنا»، فأعاد طرح السؤال قائلاً: «كيف أنتم؟» وسألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: «نحن بخير وسعة»، وأثنت على الله.

شعر صلى الله عليه وسلم بارتياح من إجابتها، التي تليق ببيت النبوة، وأحب تلك الفتاة المستعدة لتحمل مسؤولياتها، فواصل الحوار معها، وقال: «ما طعامكم؟» قالت: «اللحم؟» قال: «فما شربكم؟» قالت: «الماء». قال: «اللهم بارك لهم في اللحم والماء»، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم حب دعا لهم فيه» ثم قال: «فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يشرب عتبة بابه»^(١) ثم ودعها ورحل. فحياته صلى الله عليه وسلم ترحال ودعوة. فلما عاد إسماعيل أخبرته، فملأت السعادة قلبه بتلك الوصية، فقال لزوجته: «ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك»^(٢)، وبعد مدة كان إسماعيل مقبلاً من مكان ما، وهو يحمل مجموعة من الأغصان انتقاها بعناية، ثم اتجه بها نحو دوحة قريبة من زمزم، ولما وصلها توقف، وجلس تحت ظلها، ونثر ما معه من أعواد على الأرض، ثم أخرج سكيناً، وبدأ يكشط تلك الأغصان غصناً غصناً.. يريها بعناية، ليصنع منها أسهماً للصيد، (وكان صلى الله عليه وسلم رامياً^(٣)) ماهراً، وبينما كان منهمكاً في عمله.. فوجيء بطيف حبيب يقبل عليه.. حذق به إسماعيل، وكلما اقترب زاد ارتجاف قلبه.. ألقى إسماعيل سكينه وأسهمه، وفز نحو الشيخ الحبيب.. تعانقا، وخنقت العبرات العبارات، (فصنعا كما

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري ٢٨٩٩.

يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد^(١)، وتداعت ذكريات هاجر في القلوب، وبعد أن جلسا وهدأت المشاعر.. نظر إبراهيم إلى ابنه الشاب، وكأنه يبشره بإرهاصات النبوة، وقال له: «يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر». قال إسماعيل: «فاصنع ما أمرك ربك؟» قال: «وتعيني؟»

لم يتردد الشاب ولن يتردد، فقد وافق يوماً على أن يكون قرباناً لله. لذا قال: «وأعينك» فمد الشيخ يده، وأشار نحو الأكمة القريبة المرتفعة على ما حولها، وقال: «فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً»^(٢).

اجتاحت السعادة إسماعيل بالمهمة، وأخذ والده نحو بيته وزوجته الطيبة، ليمضي معه أسعد أيام حياته.. يوم بلسم جراح الغربة، وفقد هاجر الحبيبة.. تناولوا اللحم، وشربا من ماء زمزم، وأشرق يوم جديد على العالم.. وزع إبراهيم المهام بينه وبين حبيبه، ثم انطلق نحو تلك الرابية، ليخط الخليل على الأرض مكان بناء قواعد البيت وأساساته وجدرانها، أما الفتى فانطلق بحماس نحو المكان، الذي تقد منه الصخور.. ظل إسماعيل يجلب الحجارة، وإبراهيم يحفر ويبني، وهما يرددان: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).



كيف كان شكل البيت عند بنائه؟

أصبح إسماعيل نبياً منذ بدء لحظات بناء الكعبة، وطلب منه كما طلب من والده عَلَيْهِمَا السَّلَام: أن يطهر البيت من أي مظاهر للشرك، وأن يهيئاه للمصلين

(١) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري ٣٣٦٤ موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤/١٤٢-١٤٤ رقم ٣٣٦٤) موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.

والطائفين، فقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

ارتفعت جدران الكعبة أمتارًا، فجاء إبراهيم بحجر أسود، فوضعه في الزاوية الشمالية الشرقية من الكعبة، ووضع للكعبة بابًا من جهة الشمال قرب الحجر، وبابًا يقابله في الجهة الجنوبية قرب الركن اليماني، ولم يبنيا للكعبة سقفًا.. بدأ يطوفان حوله، ويقولان: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

اكتمل بناء الكعبة، ولم يجعلاه مربعًا كما هو اليوم، بل كان على شكل الحرف الإنجليزي (D)، أي أن جدار حجر إسماعيل المقوس كان جزءًا من جدرانها. هذا هو أول بيت لله على الأرض، والذي يقول سبحانه عنه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾.

كانت قبيلة جرهم اليمانية الطيبة تستمتع بمشهد البناء، وتتلقى التوحيد طريًا من الوحي.. من فم إبراهيم، فلم يعان منها كما عانى من أهله وقومه.

وبعد أن اكتمل البناء، فنزل الوحي على إبراهيم، يأمره بأن يدعو الناس للحج، فقال له تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا لَا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

بدأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته للحج في مكة.. يعينه إسماعيل، وصحابتها من قبيلة جرهم.. لم تعد مكة أهم مركز تجاري في الجزيرة العربية.. أصبحت منارة وعي.. يمر بها التجار والمسافرون الوثنيون، فيتغيرون.. يصبحون موحدين.. يحملون ثقافة التوحيد وعيًا نحو بلدانهم.. يحملون أخلاق الإسلام، وأمانة الإسلام، حتى بعد رحيل إبراهيم.. ينهلون من إسماعيل دروسًا في الأمانة والصدق، حتى أثنى الله عليه، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.



ظل إسماعيل في مكة، فرزق ببنين وبنات وأحفاد وأسباط.. أصبحوا فيما بعد قبائل وشعوبًا عظيمة، ينشرون التوحيد، ويترددون على البيت، لكن ماذا عن إبراهيم بعد بنائه الكعبة؟ أين ذهب بعد أن دعا للحج؟

لقد ودع ابنه وصحابته، وتوجه مجددًا نحو القدس.. حيث سارة التي اجتاحتها السعادة.. بقي إبراهيم سنوات ينشر التوحيد، فيزداد المؤمنون والمؤمنات، وبعد أن تجاوز الثمانين، أمره الله أن يبني ثاني مسجد على الأرض، وهو المسجد الأقصى.



ما الذي أضحك سارة؟

أمر الله سبحانه رسوله إبراهيم ﷺ أن يبني ثاني مسجد على الأرض (المسجد الأقصى)، وذلك بعد بناء الكعبة بأربعين عامًا، فبناه وأعانه صحابته، وصلوا فيه، وأخبرهم أنه قبلة المؤمنين، وفي أحد الأيام فوجيء الشيخ الثمانيني بغرباء على بابه.. نهض ﷺ نحو الباب، فحياهم، وأدخلهم رغم أنه لا يعرفهم، بل ولا أحد من أهل المدينة يعرفهم.. لم يسألهم ما الذي أتى بهم؟

انطلق مباشرة نحو الحظيرة، فأخرج وخدامه عجل بقر سمين، وسمى الله وذكاه، بينما كانت النار تتوهج في مكان معد للشواء، فحُمِل لحم العجل، ووضع على النار، وبدؤوا بتقليبه حتى تغير لونه، وطاب طعمه، ثم حُمِل الشواء اللذيذ، ووضع أمام الضيوف، ورائحته تتضوع في المكان، وتشير الشهية، بينما كانت سارة قائمة خلفهم لخدمتهم.. حذق الضيوف بطبق الحنيذ اللذيذ، وأيديهم مكفوفة.. طالت مدة الصمت، فشعر ﷺ بالقلق، وهو يتصفح وجوههم.. ارتاب من سلوكهم،

فقال لهم: «ألا تأكلون؟» لم تمتد أيدي الضيوف نحو الطبق، لكنهم قرؤوا الخوف في عيني إبراهيم، فطمأنوه، وكشفوا عن هويتهم، وقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾. كانوا مجموعة من الملائكة مكلفة بمهمة تجاه قوم ابن أخيه لوط. هنا ضحكت سارة، فما الذي أضحكها؟

هل هو تحديقهم بالشواء دون أكل؟ أم تضحك على مجهود زوجها الذي ضاع هباء، أم على خوفه منهم، ونظراته المتشككة، أم تذكرت تلك الأيام الغابرة، حين قدم الطعام لأصنام قومه، وقال الكلمة نفسها: ألا تأكلون؟ الاحتمالات كثيرة، لكن الضيوف لم يتركوا السارة مجالاً لمواصلة الضحك.. سرعان ما قلبوا ضحكها صياحاً، حتى صكت وجهها بكفيها.. رفع أحدهم رأسه نحوها، وقال: إنك ستنجبين ابناً، هو إسحاق، وإسحاق سينجب يعقوب.

صعقت سارة، كما تصعق العجائز بمثل هذا الخبر.. استغراب ممزوج بفرح بخوف بخجل.. صرخت ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، ﴿يَوْنَلَىٰ ۖ أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، لكنهم بشروها بالرحمة وقالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾.

أما إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشعر أن العمر يوشك على انقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَّيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرْتُمُونِ﴾، أين البشرى هنا؟



قرية للأندال وقطاع الطرق

بعد أن بشر الملائكة إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطفل وقد تجاوز الثمانين.. شعر أن العمر يوشك على الانقضاء، وأن فرحته بالطفل لم تعد كما كانت، فقال: ﴿أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَّيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرْتُمُونِ﴾، وإذ بإجابتهم تبين له أن البشرى

أبعد من الحصول على مجرد طفل.. إنه الاصطفاء.. إنها النبوة التي ستتسلسل في ذريته.. ذرية ستواصل نشر توحيد الله، فالوثنية والجحود لنعم الله ينتشر كالوباء بين الأمم، ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾، بعدها أنشأ إبراهيم على ربه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

ثم انتقل الحديث بين الملائكة و خليل الله إلى المهمة الثانية (قوم لوط)، ﴿قَالَ فَاخْطُبُكُمُ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٢١) ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ (٢٢) ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَ مِثْلِ طِينٍ﴾، هنا بدأ إبراهيم يجادل حول هلاكهم، وإذ بالملائكة توقفه وتقول له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنَا بِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا ظَالِمِينَ﴾.

سأل إبراهيم ﷺ عن مصير ابن أخيه، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرَاهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾، اطمأن إبراهيم ثم استأذنه الضيوف، فلديهم رحلة مرعبة نحو قرية سادرة في غيها وشذوذها، وما هي إلا ثوان، وإذ بالضيوف يتهادون بوقار عبر شوارع لا تعرف الوقار.

قرية سدوم التي دخلها لوط قبل سنوات.. جاء داعية لهذه القرية المجرمة الشاذة عن بقية القرى.. كانت بالغة السوء سيئة السمعة.. يتجنب المسافرون الطرق المؤدية إليها، لأن أغلبية رجالها من الإرهابيين وعصابات قطاع الطرق، أما ممارساتهم داخل البلدة فبالغة البشاعة.. أقاموا ناديًا يمارسون فيه طقوس الشرك والشذوذ، أو ما يسمى المثلية المنحطة بلا خجل.. ضاق لوط بانحطاطهم، لكن الأرض ضاقت به حين رأى الضيوف ببابه، شعر بالخرج فقومه لم يكتفوا بأعظم الذنوب عند الله وهو (الشرك)، بل انحطوا لدرجة أدنى من البهائم، فلا كرم ولا كرامة لضيوف عندهم، ولا حتى للمار بديارهم، بل اغتصاب للمارين بديارهم وللضيوف والغرباء ولأموالهم.

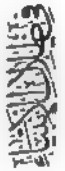
كانت بلدتهم وكرًا لعصابات السطو والسلب والنهب، وسوقًا للبضائع المسروقة.. لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.. فضلًا عن الأدب مع خالقهم سبحانه. مصطلحات تصيب منها لوط خجلًا، وغلا منها غضبًا.



لوط في غاية الإحراج

قرية يقال لها سدوم وثنية جاحدة لنعم الله، تحولت إلى وكر للصوص وقطاع الطرق، فلا كرم فيها، ولا كرامة للضيف أو للمسافر المار بديارهم، بل لا رجولة ولا نخوة ولا نجدة للمستجير.

أرسل الجبار لهم رسوله لوطًا، فدعاهم سنوات بلطف ولين.. يتودد إليهم.. يبشرهم بالجنة تارة، وتارة ينذرهم عذاب الله.. يذكرهم بزوال الأمم السابقة قوم نوح وهود وصالح، لكنهم لم يرعوا.. تقرب منهم.. صاهرهم، فتزوج امرأة منهم، ورزق منها بنات، هن زهرات حياته.. رباهن على التوحيد، فنشأن مؤمنات، لكن أمهن ظلت على شركها، وهو ما زال يحبها، ويتمنى هدايتها، لكن يبدو أن الأمر قد فات.



هاهم الملائكة يجوبون الآن يجوبون شوارع المدينة بثقة، وكأنهم يحددون إحداثيات القصف المميت.. يمشون عبر شوارع سدوم، وسط نظرات مقرزة من قوم بالغى الانحطاط.. تدهشهم ثقة الغرباء بأنفسهم، وتخيفهم معرفتهم بالطرقات.. كيف عرفوا بيت لوط، وهم لم يروه من قبل. وقف الضيوف عند الباب ثم استأذنوا، فسمع لوط الاستئذان، فنهض لفتح الباب، وما إن فتحه حتى اتسعت عيناه من هول الصدمة.. لم يعرف من هؤلاء الغرباء، بل لا يريد أن يعرف.. ضاق صدره، وكأنه يقول للغرباء: ما الذي أتى بكم إلى هذه المدينة الغبية؟

تغيرت ملامح وجهه وتكدر.. لم ييش بهم كما بش إبراهيم رغم كرمه..
 شعر بالإحراج منهم، وهو يرى نظرات القوم المخجلة من بعيد، لم يسألهم
 ما يريدون.. أدخلهم مباشرة، وهو يتصبب حرجًا وخجلًا قد ضاقت به
 الأرض، ﴿سَيِّئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، ارتبك.. كيف
 سيتصرف الآن، وبعض قومه خلف الباب كاللصوص؟ أي قرية قذرة ابتلي
 بإصلاحها هذا النبي؟

شل تفكيره.. ذهل عن تقديم أي شيء لضيوفه، ولم يُجر أي حديث ودي
 معهم.. أصبح مشغولًا بالتفكير في حمايتهم. كأنني به يدور في البيت لا يدري
 ما يفعل، وفجأة أفاق على طرق شديد، وكأنه محاولة اقتحام.. مشى لوط نحو
 الباب، وهو في غاية الغضب والحزن، ثم فتحه، وإذ بوجوه قومه وعيونهم
 المتلصصة. ومباشرة بدأ يرجوهم.. يتوسل إليهم ألا يحرجه. ويقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ
 ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ ٦٨ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾، فردوا بكل وقاحة: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ
 الْعَالَمِينَ﴾، أو لم نحذرك من إيواء الناس؟ ناشد ما تبقى لديهم من قيم، لكنه
 لم يجد شيئًا، وكأن البخل واللصوصية والشذوذ عنوان الشرف عندهم.



وخرج لوط من زنانيته

ناشد لوط صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تبقى لدى قومه من حياء، لكنه لم يجد شيئًا
 داخل وكر العصابة المسمى سدوم.. حاول إعادتهم إلى آدميتهم.. إلى
 التناغم مع الطبيعة البشرية: لم لا تتزوجون كبقية البشر.. هؤلاء بناتي وبنات
 قومي، ألا تشعرون بمعاناة النساء في هذه المدينة التعيسة، كيف يعانين من
 تخلف الذكور وإهمالهن. قال لوط: ﴿يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا
 اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ ٧٨ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ
 حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

نزف قلب لوط حزناً، وأنَّ من أعماقه.. من قلة حيلته، متمنياً لو أن لديه قوة تردعهم، أو عشيرة تحميه من اقتحام بيته، كلما حل عليه ضيف، حتى أصبح يكره قدوم الضيوف. زفر بكلمات كالجمر، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

لم يكن يدري عَلَيْهِ السَّلَام أنه (كان يأوي إلى ركن شديد)^(١)، وأن جنود السماء قد اصطفوا داخل بيته، بل خلف ظهره بالضبط. وفجأة، وفي أشد حالات الضعف والإحباط وفقدان الأمل، دَوَّى صوت، رفع معنويات لوط للسماء. نطق أحد الضيوف بأول كلمة.. نطق بصوت كاستلال السيف من الغمد: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾، حلقت معنويات لوط.. لم تعد سدوم من أقصاها إلى أقصاها تحرك شعرة من رأسه، أو تستحق خفقة خوف من قلبه.. لقد كان حقاً يأوي إلى ركن شديد، ومن أشد قوة من الجبار سبحانه، ومن أقوى من المظلوم حين يستشعر قدرة خالقه جَلَّ وَعَلَا. اخترقت الكلمة أذنه، فخرج من الباب، وكأنه يخرج من زنزانة.

خرج نحو اللصوص لا متوسلاً ولا راجياً، بل مهدداً ومانحاً فرصة واحدة.. فرصة واحدة، أو هو العذاب.. تصفح تلك الوجوه، التي ليس فيها قطرة دم، ولا تعرف معنى للحياء أو الوقار أو الذوق.. صاح فيها وجهها وجهاً، وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨) **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ**، حذق بنظرات تقول لهم: أنتم مستحقون لبطش الجبار، فما من أمة سبقتكم في جمع كل تلك الصفات.. أنتم تفسدون نظام الحياة، وتجعلونها بائسة من حولكم.. تتسببون في انقراض البشرية، وانتشار الأمراض، فأبي عالم يمكن أن يستقر، حين تنتشر فيه بلاد مثل بلادكم، التي تشرعن الإرهاب، وقطع الطريق، والسطو، وتحثي بالمتحرشين والشاذين.. أي قرية مقرزة تلك، التي

(١) صحيح البخاري ٣٣٧٢.

تهين ضيوفها، وتستدرج المسافرين؛ لتغتصب أموالهم، وتنتهك أعراضهم..
هي بلدة فريدة في الانحطاط تدعى سدوم.



هل طارت مدينة سدوم؟

كانت مدينة سدوم الوثنية نموذجاً لمدن الشيطان، التي تشرعن للإرهاب، وقطع الطريق، وانتهاك الأعراض.. مدن لا تستحق البقاء، فلو انتشرت ثقافتها لأباد العالم بعضه بعضاً، لذا انتهرهم لوط للمرة الأخيرة، فردوا تحدياً ولفاً ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وإذ بدعوة النبي المكروب تنطلق: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

أغلق لوط بابيه، وعاد لضيوفه الكرام، فإذ بالضيوف يأمرونه وأهله بمغادرة المدينة الليلة، وفي جنح الظلام، بل أمروه بعدم الالتفات في أثناء الرحيل مهما جرى.. قالوا له: ﴿فَأَنْشِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا لَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ثم ودعوه وودعهم، وما إن أغلق الباب حتى أخبر بناته فقط، فبدأن بجمع ما يمكن حمله من أغراض السفر.

خيم الظلام على سدوم، ففتح لوط باب بيته، وتسلسل هو وبناته تاركين زوجته الوثنية.. تسللوا عبر الطرقات المظلمة، وبين جدران البيوت، وقهقهات السكارى.. كانت قلوب البنات تتمزق حسرة على الأم القاسية العنيدة، ومصيرها المجهول، ولما بدأت خطوط الفجر تتمدد في الأفق، كانوا خارج أسوار سدوم، وفجأة سطع في السماء ضوء مخيف، دوت معه صيحة هائلة تفجر الأذان، فارتفع صياح سكان المدينة، وأفاق السكارى على جدران تتصدع وبيوت تنهار، انشقت الأرض فابتلعت سدوم، حتى أصبحت أسطح

مبانيها في أسفلها، فلم يعد من جدران، ولا أبراج، ولا سطوح.. كل شيء كان يعلو أرض سدوم انغمس تحتها. امحت مدينة الإرهاب، وقطاع الطرق، والشذوذ، في غمضة عين، ثم بدأ القصف بقذائف السجيل، التي يصفها الجبار، فيقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

امحت سدوم التي لم تكتشف إلا حديثاً، وهلكت زوجة لوط مع من هلك، وبينما كان الموت يخيم عليها، كانت الحياة تشرق في مكان آخر في القدس.. هناك حيث تنن سارة، ويتصبب عرقها، ويشتد ألم الطلق بها، وبعد ساعات كالموت، زينت صرخة المولود منزلها، فخفت آلامها، وامتلا قلب إبراهيم بالسرور، فضم الطفل وقبله، وعوذه بما كان يعوذه أخاه إسماعيل: «أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِن كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِن كُلِّ عَيْنٍ لَّامَّةٍ»^(١).



هلك قوم لوط، وولد بنو إسرائيل

ترين ذلك المهد بطفل جميل، بين شيخ طاعن في السن، وعجوز لم تعد عقيماً.. كانت ولادته معجزة.. طفل سيصبح له شأن عظيم كوالده.. سيصبح جدًا لعشرات الأنبياء، ولقبائل كثيرة.. كبر الرضيع شيئاً فشيئاً، فعلمه والده التوحيد، ثم أصبح رجلاً، فتزوج في حياة والديه، كما بشر الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، فرزقه الله بابن سماه يعقوب.. وكان ليعقوب اسم آخر هو إسرائيل.

سعد إبراهيم وسارة بحفيدهما، كما سعدا بإسحاق، وبعد عمر طويل توفيا.. عمر طويل أمضيته في نشر التوحيد والعدل.. عانى خلاله إبراهيم التكذيب

(١) صحيح البخاري (٣٣٧١).

والقسوة من قومه، وعانى هو وأهل بيته مرارة التشرد والغربة والشوق للذرية، ولما رزقه الله إسماعيل امتحنه الله بالبعد عنه، وتركه في وادي بكة وحيداً مع أمه.. كانت سنوات قاسية جداً على قلب هذا الشيخ النبي، لكن ذلك يهون في سبيل نشر توحيد الله ونشر العدل.. بنى المسجدين الحرام والأقصى، وها هو اليوم يموت قرب الأقصى، فيكيه أبنائه وأحفاده وأتباعه.

يبكون نبياً لم يذق طعماً للترف ولا للاستقرار، فكافأه الله بمنزلة عظيمة، وأمر العالم بالسير على منهاجه في الإخلاص له، وعدم الشرك به، أو التعلق بغيره من البشر أو القبور أو الشجر أو الحجر أو الكواكب، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، استلم راية التوحيد بعده ابنه إسحاق، ثم ابنه يعقوب، وبعد سنوات غادر يعقوب الأرض المقدسة، وسكن البادية، ورزقه الله بنات، وعشرة بنين، وكانت آخر زوجاته بارعة الجمال جداً، بل هي أجمل نساء الدنيا.

شعرت تلك الزوجة بأعراض الحمل، وبعد تسعة أشهر أشرق في بيت يعقوب طفل ليس كالأطفال.. أشرق جمال على هيئة طفل.. حمله يعقوب بين يديه، فرأى جمالاً لم ير مثله أحد.. شغف قلبه وسماه (يوسف)، وتعلق به كما يتعلق قلب الكبير عادة بأصغر أبنائه رحمةً وحباً، فكيف بطفل كأنه من أطفال الجنة.. طفل قال عنه ﷺ: «أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسَيْنِ»^(١). ما أعذبه، وهو يحبو بين يعقوب وأمّه راحيل! وما أجمله وهو يحاول المشي بينهما! فيسقط في حجرها أو حجره، لكن هذا الجمال كان يثير ناراً للحسد، لا تطاق في قلوب بعض أخوته.. حسد جعلهم يعقدون اجتماعاً، يمحون به ذلك الجمال إلى الأبد.

(١) صحيح مسلم (١٦٢)، أما حديث: (أعطي يوسف وأمّه شطر الحسن) فرواه ابن أبي شيبة (٣١٩٢٠) بسند قوي حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس عن رسول الله ﷺ، وهو سند مسلسل بالأئمة الثقات على شرط مسلم.

قمر بين الكواكب

كان الطفل يوسف يسحر القلوب بجماله وبراءته.. تتخاطفه أيدي النساء والفتيات، حين يزرن أمه، أو حين تزورهن أمه.. ظل يوسف وحيد أمه، حتى رزقها الله بشقيق له، سموه (بنيامين).. كان الصغيران قرة عين إسرائيل، لكنهما جمرتان في قلوب أخوتهما العشرة، الذين يشعرون أنهم أولى بالاهتمام من هذين الصغيرين، فهم أقوياء أشداء، يعينون أباهم، وينفذون أوامره.

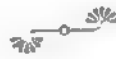
تفاقم الحسد، حتى تمنوا زوالهما، خاصة يوسف الذي يرويه يخطف قلب والدهم، حتى قالوا: ﴿لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أعمتهم الأنانية عن رؤية المساحات الخلافة، التي يحتلونها في قلب أبيهم إسرائيل الطيب، الذي يحبهم، لكنه طيش الشباب، الذي يفسر أي التفاتة من الوالد على أنها صدود عنه، وبينما كان الأخوة منشغلين بيوسف.. كان يوسف منشغلاً بالسمااء.. يحلق عالياً بين الكواكب، وإذ بحركة تدهشه، وتثير استغرابه.

دنا منه أحد عشر كوكباً، حتى سجدوا له، بل سجدت الشمس معهم أيضاً والقمر. انتبه الطفل من نومه، الذي ربما كان يستلقي بالقرب من والده، فنظر إليه يوسف بعينين بريئتين ساحرتين، فأخبره برؤياه، وقال: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

استنار وجه يعقوب، لكن خاف على طفله، فهمس به قائلاً: ﴿يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، قد يسخرون منك، وقد يدركون معناها، فيخططون لإيذائك، ثم طمأن قلبه الصغير، وقال وحياً: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أي سينعم الله عليك بمعرفة تفسير الرؤى، والنعمة الأعظم هي: أنك ستكون رابع نبي من سلالة جدك إبراهيم.



طوى الطفل سره، وخبأه في مكان قصي داخل صدره، لكن مؤامرة كانت تحاك ضده في الخارج.. حيث يعقد أخوته اجتماعًا حاسمًا للخروج بموقف من هذا الطفل، الذي احتل قلب والدهم.. تكلم بعضهم، فقال: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. تناسوا أن يوسف مجرد طفل بريء.. حقد حسدهم بما معه من نعم الله، كما حقد إبليس بما مع آدم، وكما حقد قابيل بما مع هابيل.



انتهى وقت اللعب يا يوسف

تطرف بعض أخوة يوسف، فاقترحوا اغتيال أخيهما الصغير، أو رميه في البرية، حتى يهلك أو تأكله السباع قائلين: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، لكن أحدهم خفف من هذا التطرف، قائلاً: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي عَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فلا فائدة من قتله. يكفيكم إزاحته كي لا يحول بيننا وبين أبينا.



راقت الفكرة لهم، فحددوا يوماً للتنفيذ، وقبل الموعد بيوم، دخلوا على أبيهم فحيوه، وجلسوا حوله، وناشدوه قائلين: ﴿يَتَأَبَّأُ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونُ﴾ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، نظر يعقوب إلى عيونهم.. تأمل وجوههم. أنصت للغتهم الجديدة، وقلبه يرتجف، خشية أن يفقد تلك العينين البريثتين، فقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾، ألم يدر بخلد يعقوب أنه لم يكن ثمة ذئب في الخارج، وأن الذئاب كلها في الداخل، ترمق طفله بعيون مخيفة.. تريد خطف أحب الناس إليه، لترميه في قعر بشر مظلمة، قد يفقد حياته داخلها، وقد يذهب عقله رعباً بين طيها.

نظقت ألسنتهم بإجابة ممثلة بالهياط: ﴿لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّيْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ
إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَا﴾ نحن عصبة.. تلك هي الكلمة الفخ، التي أغرتهم وغرتهم..
وافق الشيخ على مضض، ولما أشرقت الشمس كان العشرة والطفل في
طريقهم للبرية.. ساروا لا يفتشون عن مراتع للطفل، بل عن بئر ملائمة على
طريق السيارة، عل قافلة تعثر عليه فتلتقطه، وتريحهم منه. وبعد مسير وبحث،
عشروا عليها. ربما كانت جافة، أو كانت كبيرة، وفيها مساحة تكفي لجلوسه
أو وقوفه، ككثير من الآبار، وفجأة وبينما كان الطفل يلهو ببراءة.. لا يدري
ما الذي يحاك له.

أطبقت عليه أيد غليظة.. تعال. انتهى وقت اللهو يا يوسف.. قامت تلك
الأيدي بخلع قميصه، ثم رفعت عن الأرض، وعيناه زائغتان، لا يدري ما اسم
هذه اللعبة المخيفة، ويناشدهم التوقف.. لم يتوقفوا، بل أخذوه نحو حافة
البئر، ثم أنزلوه كدلو في غيابة الجب، وهو يناشدهم.. يصرخ. يستغيث، ثم
ألقوا عليه نظرة أخيرة، ليتأكدوا من عدم موته. رفع الطفل رأسه، وتعلقت
عيناه الدامعتان بدائرة البئر، التي تطل منها عشرة رؤوس، وفجأة انقشعت
الرؤوس، وظلت عيناه معلقتين بالسما، فأيقن أن أخوته قد تخلصوا منه، وأنه
لن يرى راحيل ويعقوب الحبيين.



مسيرة اللطم والنواح

في قاع البئر المظلمة، كان يوسف عاري الجسد خائفاً.. يناشد عشرة
رؤوس تطل من فوهة البئر وتحقق به، ولها ثرثرة، وفجأة انقشعت الرؤوس،
وقبل أن يستبد به الخوف، أو يذهب عقله من الرعب.. أنزل الرحمن الرحيم
على قلبه السكينة، وأوحى إليه بالطمأنينة.. كلمات تقول له: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، انقشع المتآمرون عن البئر، بينما كان

أحدهم يمسك بقميص يوسف ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدْمٌ كَذِبٌ﴾ فلطخوه بذلك الدم الذي قد يكون دم طير أو دابة. وبذلك انتهت المهمة، ولم يبق سوى تسليم الدليل للوالد، ليتأكد من فناء يوسف.

غابت الشمس فتحولت فوهة البئر المضيئة إلى دائرة سوداء، تشع خلالها بعض النجوم، وكأنها نهاية نفق مخيف، ولما دخل وقت العشاء كان الشباب الطائشون يقبلون على الديار بثاقل.. يتظاهرون بالحزن والبكاء، كلما قابلهم أحد، ولما اقتربوا من البيت، بدأ مستوى التباكي والنواح يرتفع.. دخلوا على أبيهم، فرفع الشيخ رأسه وهدق بمسرحية الحزن والمناحة التي تعرض حوله، حين جاءوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَاءٌ يَبْكُونَ﴾ (١٦) قَالُوا يَتَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

وقبل أن يسأل يعقوب أو يستفسر. مد أحدهم القميص لوالده، فأخذه الشيخ وبدأ يقلب ويتأمل قميص حبيبه، ويتأمل الطريقة الغبية لصبغه بالدم، فبكى قلبه حزناً وشوقاً، واستودع الله صغيره، ثم تأمل دموع التماسيح في عيون الممثلين أمامه، فزفر بكلمات كالجمر. كلمات كشفت هزال مسرحيتهم، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾، فاضت عيناه وبكى، وأقبلت أمه (راحيل) ملهوفة مفجوعة، تسأل عن سبب هذا البكاء والعويل.. نظرت إلى الشباب، فلم تجد يوسف بينهم. أين ابني يا يعقوب؟

أراها قميصه الذي يدين أخوته، فصرخت وناحت واحترق جوفها: كيف يأكله الذئب، وأنتم حوله. أين هياطكم وتعهدكم بحمايته؟

لم تجد إجابة، ظلت تبكي طفلها طوال الليل، وأشرقت الشمس وهي تبكي.. لم تذق طعاماً للنوم ولا للطعام.. مرت الأيام والعبرة تخنقها، كلما وقعت عينها على فراشه، أو قلبت ملابسه، أو جمعت ألعابه.. يرتفع شهيقها

كلما تذكرت جماله وبراءته، التي تزين البيت والحي، ويزيدها يعقوب حزنًا حين يؤكد أن الذئب لم يأكله، فهل باعوه أم تركوه عاريًا جائعًا خائفًا.. أسئلة لا إجابة لها سوى الدموع.



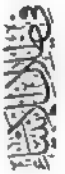
الطفل والقافلة

أمضى يعقوب ﷺ وراحيل ليلتهما يبكيان طفلهما.. لم تجد الأم طعامًا للنوم، ولا لذة للطعام، وطفلها لم يعد بينهما.. ترى أين هو؟ حتمًا يوسف ليس في جوف ذئب.. هذا ما كان يعقوب على ثقة منه. فطفلها في بئر مظلمة.. يهتز جسده الصغير كلما نعس.. يتفرض كلما أعياه البكاء والتعب، حتى أشرقت الشمس.

رفع الطفل رأسه نحو فوهة البئر، فإذا هي قد عادت لتنير شيئًا فشيئًا، مرت الساعات، وفجأة سمع حركة وأصواتًا في الأعلى. لعلهم إخوتي ندموا، فعادوا لأخذي.. لم يكن الصوت صوت إخوته.

كانت سيارة أناخت عند البئر ﴿فَاسْلُواوَأَرِدْهُمْ فَاذَلَىٰ دَلْوَهُ﴾، لجلب بعض الماء.. خفق قلب الطفل فرحًا، فمد يديه نحو الدلو والجبل، فشعر الوارد باهتزاز الجبل، وانجذاب الدلو قبل أن يمتلئ.. حذق بقاع البئر، فإذا هو بطفل يمسك بدلو، وينادي.. صاح الوارد برفاقه؛ ليروا ما لا يمكن تصديقه، وهتف: ﴿يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ﴾، نظر المسافرون بعضهم إلى بعض مستغربين، وأقبلوا نحو البئر وأطلوا، فطلبوا من الطفل التمسك بالجبل، أو نزل أحدهم لرفعه. بدؤوا بسحب الجبل برفق خوفًا عليه.

وفجأة أشرق القمر من ظلمة الجب.. طفل لم يروا مثل جماله.. تبدو عليه آثار الجوع والسهر والتعب.. ترى هل سقط، أم أسقط؟ ومن يجروا على



رمي طفل، فكيف بطفل بهذا الجمال؟ أخرجوه وسقوه وأطعموه وألبسوه ثيابا فغدا كالقمر.. سألوه عن اسمه وقصته، فعرفهم بنفسه، وأنه ابن يعقوب النبي، وأن إخوته ألقوه في الجب، ولم يتركوا له حتى قميصه الذي يستره. لم يأبه المسافرون به، ولا بنبوة أبيه.. ما يهمهم هو أنهم حصلوا على عبد، يدر عليهم دراهم.. حولوا ابن نبي الله إلى سلعة، ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً وَلِلَّهِ عَلَيْهِمْ إِمَّا يَمْشُونَ﴾، فهو لا يصلح للخدمة، نظرا لصغر سنه.

أخبرهم بشوقه لأمه.. لأبيه، لكنهم لم يبالوا، بل أركبوه فوق إحدى مطاياهم، ثم تحركت السيارة متجهة نحو مصر، التي كان يحكمها آنذاك ملوك، يقال لهم (الملوك الهكسوس)، وبعد أيام دخلوا مصر الجميلة. تهادوا عبر شوارعها، وهدفهم سوق النخاسة، وبعض المارة يتأمل هذا القمر الحزين، فتخفق قلوبهم. توقفت السيارة في السوق، فأنزلوه وعرضوه للبيع. كانت عيناه البريئتان تلتفت أمام تحديق المتطفلين، وتفحص التجار والمشتريين، تلتفت وكأنها تبحث عن حضن راحيل، أو طيف يعقوب، وفي أثناء تلفته رأى رجلا أنيقا، يبدو عليه الثراء.. يتهادى نحوه.



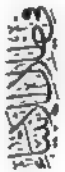
أجمل عبد على الأرض

كانت التساؤلات تعصف بقلب يوسف الصغير.. عيناه البريئتان تائهتان، وهو يعرض للبيع في سوق العبيد بمصر، وإذ برجل أنيق يقترب منه.. ينظر إليه فيرق له، ويسكن قلبه، فيلتفت للبائع ويسوم الطفل، فلم يتردد أصحاب السيارة في بيعه، ﴿يَمْشِي بِخُيُسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

أنزله الرجل العزيز من منصة البيع، وأخذ بيده الصغيرة نحو منزله، وقد ملأ الرحمن قلبه برحمته.. تهادى معه في الطرقات، أو ركب معه إحدى العربات

الهكسوسية، والطفل الحزين لا يدري ما مصيره، فالحياة تتقلب أمامه بشكل سريع وصادم ومفاجئ.. كان بالأمس في حضن راحيل ويعقوب، ثم أصبح وحيداً في قعر بئر مظلمة، لا أنيس فيها سوى الله، ثم تحول إلى بضاعة تجلبها القوافل، وها هو اليوم لا يدري أنه عبد، ولا إلى أين سيؤخذ، ولا ما سيفعلون به.. هو اجس لن يزيحها سوى رؤية راحيل ويعقوب الحبيين.

توقف العزيز عند أحد المنازل الفخمة، ثم دخل ويده أجمل عبد على الأرض.. هتف بزوجه فأقبلت.. فتحت عينيها على طفل كالصباح، فتأوه قلبها من جماله، فبشرها زوجها، وقال ﴿لَأَمْرَأَتُهُ أَكْرَمِي مَثْوًهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾، عانقت جماله، ونادت خدماها، فأمرتهم بتنظيفه، وإلباسه ثياباً جميلة. غسلوا جسده الصغير، وسرحوا شعره الناعم، وألبسوه ثياباً زادت فتنة وجمالاً.. تلاً كالماسة، ثم أطعمته وسقته، واعتنت به حتى ملأ حبه قلبها يوماً بعد يوم.. كبر الطفل، وكبر حزنه على أمه وأبيه، اللذين يبكيانه منذ رحل عنهما.. تجاوز يوسف سن المراهقة، فازداد جماله، وازداد شوقه لأهله، رغم أنه يتقلب في الدلال.. كان مؤدباً عفيفاً.. يزداد وفاءً لسيده الذي أكرمه، ويزداد رجولة وأخلاقاً، يزداد جماله حتى بلغ مستوى فردوسياً، هو (شطر الحسن)^(١).



كان فتنة للنساء أينما حل وأشرق.. حتى زوجة العزيز تغيرت، منذ أن بدأ يوسف يخطو أولى خطوات الرجولة.. غيرها جمال لا يرى إلا في الجنة.. خلت منه الأرض، فاستقر في بيتها، فأنساها أنه ذلك الطفل، الذي اشتراه زوجها قبل سنوات.. في البداية كانت تخاف عليه، ثم أصبحت تغار عليه.. أمسى في نظرها معشوقاً لا تطيق فراقه، ولا تريد لأحد أن يعلم أين تخبئه في قلبها، أما ما زاد افتتانها به، فهو تعففه ورجولته، التي ترفع عن الخيانة لسيده.

(١) صحيح مسلم (١٦٢).

حصار عاشقة

أصبح يوسف في نظر زوجة العزيز معشوقاً لا تطيق فراقه، وزاد من افتتانها به تعففه ورجولته، التي تترفع عن خيانة سيده، والنساء لا يحلمن بشيء كحلمهن بالعفيف الجميل.. حاولت العاشقة أن تظهر له أنها تغيرت.. وأنها لا تمت له بصلة قرابة.. شعر الفتى بذلك، وشعر بفداحة الخيانة، لمن فتح له بيته، وأكرمه وعامله كابنه.. كان يخشى الله في مال سيده وعرضه، لذا كان يتجاهل كل قوائم الإغراء، ولوحات الأنوثة، التي تُعرض عليه، وفي أحد الأيام كان يوسف في البيت لوحده.. خلوة لا يمكن إلا لمن عصمه الله من الأنبياء والأولياء أن ينجو منها.

مشى المرأة نحو الأبواب، تقفلها باباً باباً، لتطمئن أنه لا أحد يراه، أو يدخل عليه.. أقبلت على الفتى الطاهر، فإذا به يصدم بخطواتها ومآربها، ذكرها أن لها زوجاً، وأن لزوجها عليه معروف، لن يتنكر له، لكنها لم تتراجع، فالخلوة حالة سكر.. يغيب فيها العقل والتفكير في العواقب، فكيف إن كانت الخلوة بأجمل البشر.. الخلوة بيوسف كمن ينظر إلى الشمس في رابعة النهار.. تغيب لحظتها كل الكواكب والنجوم والأجرام.. دنت منه ﴿وَرَوَدَتْهُ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ يَتَّبِعَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، لكن المرأة لم تعد تبالي سوى بمعشوقها.. أصبحت الدنيا بأسرها مختزلة في هذه اللحظة.

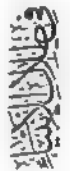
اللحظة التي طالما هدمت بيوتاً، وضيعت أسراً، وورثت أطفالاً.. لا يدرون من رمى بهم إلى هذه الدنيا.. لقطاء، كلما رأوا طيفاً يشبههم بكت قلوبهم، وقالت: ترى هل هذا هو أبي، هل هذه هي أمي؟ وفي لحظة ضعف بشرية همَّ بها يوسف.. تحرك قلبه، وما إن همَّ قلبه، حتى شع في قلبه الضوء، الذي أناره، وهو يقبع في قعر البئر.. شع في قلبه برهان ربه، ودليله على أنه نبي

وابن نبي، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، أفاق يوسف.. التفت إلى أحد الأبواب، ثم ركض نحوه ليهرب منه، فركضت المرأة خلفه، حتى أمسكت بقميصه من الخلف ثم جذبته، فإذ بصوت القميص ينشق، فينكشف ظهره، ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾، ظل يوسف يركض بقميص ممزق نحو الباب الخارجي، وقبل أن تقبض يده على العروة فُتح الباب.. فتحه شخص من الخارج، فصعقه المشهد.



يوسف يتلقى الطعنات

فتح الباب، فتوقف يوسف، وتوقفت المرأة خلفه، وهي تمسك ببقايا القميص.. اتسعت الأعين، وارتجفت القلوب لهول المفاجأة.. إنه زوجها العزيز.. هو من فتح الباب.. تحنط الثلاثة.. حنطتهم المفاجأة.. ارتجفت المرأة، وتساءل صمت العزيز: مم يهرب يوسف، ولم تقف زوجته خلفه، وصدرها يعلو وينخفض؟ ولماذا تمسك بقميصه المشقوق.. هل تريد أن ترقعه مثلاً؟ وقبل أن يحلل المشهد، وقبل أن يتكلم.. نطق الكيد.



ضحت بمعشوقها.. ضحت بحب يوسف، وجمال يوسف، وفتنة يوسف، من أجل إنقاذ نفسها، حين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ أَلَيْسَ﴾، فيوسف هذا متحرش شرير، وهي تركض خلفه، لأنها كانت تريد تأديبه وضربه حفاظاً على شرفك، لذا فهو يركض خوفاً منها وهرباً من العقوبة.

ذهل يوسف.. اتسعت عيناه من وقاحة المرأة وجرأتها.. ذهل من تحولها من متحرشة إلى سيدة للعفاف.. من حمل إلى لبؤة تمزق من يقف أمامها، وذهل العزيز أيضاً فلم ينطق بحرف.

هنا نطق يوسف المسكين فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

تحول المشهد إلى خنجر، يسافر في قلب العزيز.. أسكته الحزن والحيرة بين الزوجة والابن، لذا استشار شخصاً حكيمًا من أهلها، فإذ به يقول له: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، لأنها مزقت القميص، وهي تدافع عن نفسها، وتقاوم اعتدائه. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، لأنه قد أعطاها ظهره وولى عنها.

عاد العزيز لبيته وتأمل القميص، فإذ بقميص يوسف هو الدليل كالعادة، لكن بما أن شيئاً لم يحدث، وأن المسألة مجرد نوايا، قام العزيز بتوبيخها، وقال: ﴿إِنَّكُمْ مِّنْ كَاذِبِينَ﴾، ثم قال لها: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، ثم التفت إلى يوسف طالباً منه أن يتناسى الأمر، وكان شيئاً لم يحدث، وقال له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾.

تناسى يوسف المرارة، لكن المرأة لم تناسى هزيمتها.. قررت الانتقام لأنوثتها من معشوقها، فقد انتشر خبر التحرش في المدينة، ربما من ثرثرتها، فبدأ بعض النسوة اللواتي كن يحسدنها على يوسف بالتشفي منها.. يسخرن من استعلاء الفتى وترفعه عن إغوائها وإغرائها وتمريغه لأنوثتها ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وصلت وشوشة المجالس إلى مسامع العاشقة المنكسرة، فقررت أن يعشن شيئاً من معاناتها.. قررت أن تلقنهن درساً كي يتلعن ألسنتهن.



درس للشامتات

أرسلت زوجة العزيز بعض خدامها ببطاقات دعوة شفوية، لجاراتها وصديقاتها اللواتي شمتن بها. خرج الخدم نحو بيوت النساء بيتاً بيتاً..

يدعونهن لوليمة خاصة. لم تتردد النساء الفضوليات في تلبية الدعوة.. إنها دعوة لا يمكن رفضها، كيف لا، وبعض الحديث سيكون عن يوسف الفتان، وفي بيت عاشقته.. كيف لا، وهناك سبق من المصدر نفسه.

أشرق يوم الاحتفال، فهياً الخدم المكان حسب أوامر سيدة الحفلة، ووزعت المقاعد، ﴿وَأَعْتَدَتْ لِمَنْ مَنَّكَ﴾، في اتجاه يخدم هدفًا، ووضعت المشروبات، وصفت أطباق الفواكه اللذيذة بشكل أنيق، أما المدعوات فارتدين الملابس الأنيقة والحلي، واكتحلن وتعطرن، فالיום يوم التنافس أمام أجمل أهل المدينة.. تداعت الخطوات نحو بيت العاشقة. تبخترت الأنيقات، عليها ترى طيف يوسف.. سرن وضربات القلوب تسابق الخطوات، ولما وصلن كانت امرأة العزيز وخدمها في استقبالهن.. رحبت، ودعتهن للجلوس، فأخذن مقاعدهن، وتبادلن أحاديث المجاملة، والابتسامات الصفرَاء، وبعد ساعة قدم الخدم الفاكهة، ونهضت سيدة القصر، ﴿وَأَنْتَ كُلِّ وَحْدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا﴾، حادة، ودعتهن بلطف، لإكمال حديثهن في أثناء تناولها، ثم تهادت بخبث نحو أحد الأبواب، التي تؤدي إلى مكان يتواجد فيه يوسف، منتظرًا أوامرها الصارمة. أقبلت نحوه بحزم، وأمرته أن يدخل على ضيفاتها، وأن يقف أمامهن دون أن يتكلم.. تقدمت، ثم قالت: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾.

أشرق البدر من الباب، وأفواههن منشغلة بالمضغ أو الثرثرة، وسكاكينهن منشغلة بالفاكهة.. أشرق يوسف، فارتجفت القلوب، وتوقفت الثرثرة، حتى الأفواه ظلت مفتوحة.. تاهت الأحرف منها.. شخصت الأبصار، والأيدي تحرك السكاكين دون وعي حتى جُرِحَتِ الأيدي.. كانت امرأة العزيز بجواره، لكن أحدًا لم يأبه بها، أو يخجل منها.. غابت المجاملة والشعور بالألم في حضور جمال الجنة.. جمال الجنة، الذي أذهلهن عن كل شيء.. عن الطعام والكلام والآلام وتعديل الملابس وخصلات الشعر.. ذهبن أمام هذا الفاتن،

الذي لا يفصلهن عنه سوى خطوات.. يتتزع قلوبهن قلبًا قلبًا، وإذ بزوجة العزيز تصدمهن، حين أصرت على تمرغ هذا الجمال في الوحل.



انتقام عاشقة

لم تقل النساء عن يوسف: إنه أجمل شباب المدينة.. لم يقلن: إنه أجمل أهل الأرض.. لم يجدن لجماله قاموسًا بشريًا، فهذا الحسن لا ينتمي لعالم البشر، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقف الملاك لا يدري ما يقول.. وقف بين سيدة متسلطة متحرشة، ونساء منهارات، لم يأبهن لنزيف أيديهن، فيوسف جمال لا يوصف، ولا لغة تعبر عنه سوى لغة القلوب.. بدأت سيدة القصر تلملم كرامتها من أحرفهن المرتبكة، ونظراتهن الزائغة.. شعرت بالزهو.. بالانتصار.. بالشماتة بالشامات اللواتي لن يجروُن على تناول سيرتها بعد اليوم بسوء.

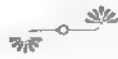
هتفت بهن تعلن نصرها عليهن، ومعرفة بنصر يوسف عليها، فقالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾، لكن العزة أخذتها بالإثم.. قررت إذلالهن، وإذلال يوسف معهن، ويبدو أن لتلك السيدة علاقات ببعض المتنفذين، لذا قامت بتهديده أمام النساء بلا خجل، قائلة: ﴿وَلَكِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ أُمْرَةٍ لِّئَلَّا يُسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الضَّعِيفِينَ﴾، فهي لم تعد تهتم لشماتهن بعد أن رأت انهيارهن أمامه، أما الفتى فشعر بالحزن، وهو يتلقى التهديد.. شعر بالضعف أمام جمال ألقاه في بئر.. جمال حوله من (الكريم ابن الكريم بن الكريم بن الكريم) (١) إلى عبد ذليل، بين نسوة لا يستطيعن السيطرة على غرائزهن.. شعر بقلّة الحيلة، لكنه أدرك أنه في معية الله، الذي لم يخذله في مواقف أشد..

(١) صحيح البخاري ٣٣٩٠.

تناسى الأرض، وتعلق بالسمااء، وتوجه إليه سبحانه، فقال: ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَلَا أَتَصَرَّفُ عَنْ كَيْدِهِنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٢) فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ، فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. ﴿٣٣﴾

أدركت السيدة أن عبدها أكثر حرية منها، وأنه أرقى منها بسماوات.. فعبدها فضل أن يكون حرًّا في السجن، على أن يكون عبدًا للمعصية خارجه. استطاعت المرأة استصدار أمرًا بسجنه، فقرروا ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّى حِينَ﴾، بعد أن قضى من عمره أكثر من خمس عشرة سنة من الرق والغربة ومرارة الذل بتهمة الجمال والحب، وها هم السجنانون يقتادونه، لتبتلعه الزنانة مدة لم يحددها قضاء، بل يتحكم بها مزاج سيدة متحرشة.. ظلت مصرّة على إيقائه داخل السجن، ما دام مصرًّا على العفاف.

نسيته المدينة، وتناسته النسوة، وحتى العزيز نسي أمره.. اثنان لم ينسياه يومًا، ولم يتوقفا عن البكاء عليه. يعقوب وراحيل.



أصبح نبيًا في السجن

في اليوم الذي ابتلعت فيه الزنانة يوسف دخل ﴿مَعَهُ السَّجْنِ فَتَيَانٍ﴾، وثنيان.. اقتسم الثلاثة الزنانة، وأمضيا مدة، تعلم الفتیان خلالها من سمت يوسف وعبادته الكثير.. كان متواضعًا رغم ما حباه الله به من جمال، فكم من فتى جميل ضيعه جماله، وكم من جميل أنساه جماله فضل الله عليه، وفي السجن بدأت نبوة يوسف.. بدأت حين قال لزميليه في الزنانة: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِأَوَّلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.

أدرك الفتیان أن يوسف فتى ملهم، وأنه ابن نبي وحفيد نبي، فبدأ يستشيرانه، ويستنيران برأيه، وذات يوم أفاق أحدهما من رؤيا غريبة، فطلب

من يوسف تفسيرها، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، فتذكر الآخر رؤيا رآها، وقال له: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتُنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نُرْزَلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وقبل أن يفسر الرؤيا لرفيقه.. أحب أن يقدم لهما أهم رسالة يحملها الأنبياء وأتباعهم، وهي (التوحيد)، رسالته ورسالة والده وجده، ورسالة كل الأنبياء قبلهم وبعدهم، فقال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ثم خاطب عقلي صاحبيه، فقال: ﴿يَصْنَعِ السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، ثم بين لهم أن الوثنيين ضحايا العادات والتقاليد، وأن الآلهة التي يعبدونها مجرد أخشاب وصخور، يشكلونها بأيديهم.. أنتم أرقى منها، وأنتم من يتحكم بها، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَتْلُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم التفت لصاحب الرؤيا الأولى فبشره، وقال: إنك ستكون ساقى رجل مهم، وأخبر الآخر أنه سيحكم عليه بالصلب، وسيبقى مصلوبا حتى تنقر الطيور الرامة رأسه، وهو مصلوب. قال يوسف: ﴿يَصْنَعِ السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، وبعد أيام أو أشهر سمع المسجونون أصوات خطوات السجانيين، وهم يقفون أمام الزنزانة.. فتحوا بابها. ثم حدثوا بأحد الفتيين.. بادلهم النظرات، وهو يرتجف.. إنها اللحظة المحتومة، التي تحدث عنها يوسف.. الصلب.

يوسف في ممرات النسيان

أخذ السجانون رفيق يوسف.. ساقوه نحو ساحة الإعدام، ثم صلبوه،
وبعد مدة فاحت رائحة جثته، فإذ بالطيور الرامة تحلق فوقها، وتحوم، ثم
تهبط على الخشبة، وعلى رأسه فتقره، وتأكل منه، وقبل ذلك أو بعده أقبل
الحرس؛ ليأخذوا الفتى الآخر، ولكن بطريقة ودية، وقبل خروجه استوقفه
يوسف، وناشده أن يحرك قضيته عند سيده، لأنه يبدو أن الناس قد نسوه،
ونسوا قضيته، وقال له: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

خرج الفتى من السجن، ثم تدرج في الوظائف، حتى أمسى ساقى الملك
الهكسوسي، فانشغل بما هو فيه من نعمة، وأنساه الشيطان والانشغال بالخمير
يوسف، الذي اقترب من الثلاثين من العمر.. لا أحد يأبه به، فهو عبد مقطوع
الصلة بالمجتمع، حتى أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وتمنين وصاله
ولو لساعات، لم تتحرك ضمائرهن لمناشدة السيدة المتسلطة، أن تعفو عنه.

لم يكن في الزنانة ما يسلي سوى القرب من الله سبحانه، والأنس بذكره
في روحانية شفافة، لا يعكر صفوها شيء.. تتماهى روحه بأنوار الحب لله،
فيتلاشى الشعور بالحبس.. ظل يوسف في عبادة، وكأنه ملاك في زنانة
تتضوع بذكر حبيبته ومناجاته سبحانه، أما خارجها، وبالتحديد في قصر الملك،
فقد كان هناك مشهد مخيف.. سبع بقرات عجاف، قد بدت أضلاعهن من
الهزال والضعف، يهجمن على سبع بقرات سمان، تتفجر ضروعهن لبناً..
دنت الهزال من السمان، وفتحن أفواههن، ثم بدأن يלתهمن السمان، وكأنهن
من السباع الضواري.. كان هذا المشهد يحدث وسط اهتزاز أربع عشرة
سنبلة.. سبع خضر، وسبع يابسة.

أفاق الملك الهكسوسي من رؤياه فزعاً.. جلس على سريره متضيقاً، ولما
غادره، واغتسل ولبس حلته الملكية وحليه، وخرج محاطاً بحرسه.. ظل يمشي

في ممرات القصر مهموماً، حتى وصل عرشه الذي اصطفت حاشيته حوله، وانحنى له، ثم جلس على العرش، وقدم له الساقى شرابه.. نظر الملك لمن حوله، والحيرة تلون وجهه، وأخبرهم عن رؤياه، قائلاً: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَابِسَتٌ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، كانت الرؤيا رموزاً مخيفة، ورغم أن الملك هو من رآها، إلا أن الحاشية عجزت، حتى عن صبغ رموزها بألوان التفاؤل.. عجزت حتى عن رفع معنويات الملك، وإذ بالساقى يتذكر رفيق الزنانة يوسف صلى الله عليه وسلم.



يوسف يرفض مغادرة السجن

تمنت الحاشية أن يتجاهل ملكهم هذه الرؤيا، التي أقلقته قائلين: ﴿أَضَعَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالَمِينَ﴾، هنا تذكر الساقى رفيق الزنانة.. تذكر الفتى صادق التعبير، الذي تحققت نبؤته فيه، وفي زميله المصلوب، فنظر للملك بحماس، وقال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾، للسجن، ففي إحدى زناناته شخص لا يكذب تفسيره للرؤيا. طلب الملك فوراً تمكين الساقى من دخول السجن، فانطلق بصحبة الحرس.

يوسف

فتحت البوابات للساقى، فتهادى في الممرات، التي تومض فيها المشاعل.. ممرات مخيفة، وكأنها بنيت من الآلام والذكريات المريرة.. ظل يمشي حتى أصبح أمام الزنانة، ففتح الباب ودخل الساقى، فتأمل يوسف صلى الله عليه وسلم وعرفه رغم السنوات.. نظر إليه وفي عينيه عتاب.. تبادلوا التحايا، ثم قال الساقى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخْرَى يَابِسَتٌ لَعَلَّيْ أَزْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ثم سكت. نظر إليه يوسف، ثم نطق وحيًا، فأنصت الساقى لتأويل الرؤيا باهتمام، ثم ودع يوسف

وعاد للملك، والخوف يملأ قلبه. وما إن أصبح أمامه حتى أخبره: أن الصديق فسر له الرؤيا، وضمنها نصائح ستفيد الدولة، رغم أنه في السجن، فيوسف يقول: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (١٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِتُونَ (١٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾، ذهل الملك من دقة التفسير، وزاد الساقى ذهوله، عندما أخبره أن يوسف سبق أن فسر له رؤياه ورؤيا صاحبه، فتحقق التفسيران.

هنا أصدر الملك أمراً بإحضاره للبلاط فوراً. انطلق الرسول، ولما دخل على يوسف بشره بالعفو الملكي، وطلب منه بشكل لطيف أن يصبح مكرماً إلى الملك. ظن الرسول أن يوسف سيسابقه إلى القصر، لكنه لم يتزحزح من مكانه، ولم يأبه بالإفراج عنه.. نظر إلى رسول الملك، وحمله شرطاً للخروج، قائلاً: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عاد الرسول فأخبر الملك الذي كان خائفاً على اقتصاد دولته وأمنها، لا سيما وهو من الهكسوس، وهم يخشون من عودة الفراعنة.. كان متلهفاً لرؤية الصديق، لكن قصته المجهولة مع النساء شدته، فأمر بالبحث عنهن، وإحضارهن إلى البلاط.



وأصبح العبد أميراً

انطلق الحرس نحو امرأة العزيز، التي استغلت سلطة زوجها، وعلاقاتها في تليفيق التهم، لأصدق وأطهر وأجمل من يمشي على الأرض، فدلتهم على أبواب النساء.. تم استدعاؤهن واحدة واحدة، وهن يرتجفن.. لا يدرين ما جريمتهن، حتى أصبحن جميعاً أمام الملك.

شعرت امرأة العزيز بتلاشي علاقاتها بالمسؤولين، أمام حزم الملك، الذي استأمنهم، فاستغلوا ثقته. وقفت أمام حاكم لا وقت لديه؛ ليضيعه على

ثرثرتهن وكيدهن.. حديق بوجه امرأة رمت غرائرها فتى فى السجن لأكثر من سبع سنوات، لمجرد أنه جميل عفيف. صاح الملك بالنساء: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾، فارتجفن، و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

هنا انهارت امرأة العزيز، التى كانت بالأمس تهدد وتتوعد.. انهارت أمام ملك حازم، تسقط أمام حزمه سلطات من دونه، فاعترفت مباشرة، وقالت: ﴿الْفَنِّ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، خرجت النساء من القصر خجلات بعد أن تم إثبات براءة الفتى المظلوم، الذى أمضى أزهى أيام عمره فى السجن ظلمًا، أما الملك الحكيم فلم يملك نفسه من شدة الإعجاب برجولة يوسف وأمانته ووفائه وصدقه وعفافه.. مباشرة أصدر أمره بتعيينه مستشارًا خاصًا له، قبل أن يخرج من زنزانته، وقال: ﴿أَتُوبُ بِهِ أَسْتَخْلِصُ لَهُ نَفْسِي﴾.

انطلق الرسول، ولما دخل على يوسف أخبره بشهادات النساء، واعترف امرأة العزيز بذنبها وظلمها، فتهلل وجه الصديق، ولمعت عيناه فرحًا، وامتدحه نينا صلى الله عليه وسلم على موقفه، فقال: «لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١).

ملأت السعادة قلب يوسف صلى الله عليه وسلم وخرج للحياة مجددًا، كما خرج من الحب، وتوجه نحو القصر معززًا مكرمًا، ولما وصل كان الملك بأحر الشوق للقاءه. وصل يوسف، فأشرقت النبوة الوسامة والأدب والصدق على مجلس الملك.. تكلم فذكر لمن حوله سبب رفضه الخروج من السجن. وهو أنه يريد أن يعلم سيده السابق ثبوت براءته تمامًا. قال يوسف: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِذْ رَفِيَ غَوْرَ رَجِيمٍ﴾، ثم تكلم الملك مطمئنًا يوسف، ومصدرًا أمره بتعيينه فى

(١) صحيح البخارى (٣٣٧٢).

أرقى المناصب، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، أدرك يوسف ثقل الأمانة، فاجتهد في الإخلاص لدولته، رغم أنها دولة وثنية.



نبي وزير في دولة وثنية

أصبح النبي الأمين يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخيراً.. يتقني من المناصب ما يريد، فنظر إلى مصلحة دولته، حتى وإن كانت وثنية.. لم يضيع وقتاً بالرفاهية، ولم ينشغل بالإثراء على حساب وزارته.. لم يطلب من الملك شيئاً لنفسه.. لا مرتباً ولا قصرًا ولا خدمًا، بل لم يقدم التماساً يرجوه فيه البحث عن والديه وأخيه، الذين يشترق لهم منذ قرابة ربع قرن.. أصبحت الدولة والشعب والملك همه الأول والأخير.. شعر بحاجة الدولة لمشروعات وخطط مستقبلية للأمن الغذائي المهدد بالخطر، لذا أخبر الملك بأهم قدراته التي قد تعود على الوطن بالنفع، فقال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾.

صدر أمر ملكي بتعيينه مسؤولاً عن الاقتصاد.. أصبح العبد أميراً.. أصبح مسؤولاً عن إطعام الأيتام والفقراء والعبيد، وحتى الأغنياء. مباشرة أمر الوزير الجديد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بإنشاء ما يشبه صوامع للغلال للادخار، وشجع زراعة القمح تحسباً لأيام كساد وجفاف مخيفة متوقعة، فغير بنزاهته وعدله ومشروعاته الناجحة حال بلاده، والبلاد المجاورة لبلادها إلى الأفضل.. غيرها برسالة الأنبياء الثانية، وهي العدل، بعد أن مكّن له الله سُبحَّانَهُ وتعالى فقال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفِثُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ يَشَاءُ وَلَا نُفِثُ بِأَجْرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

مرت سبع سنوات عامرة بالتخطيط والعمل الجاد والأمانة، والنصح للدولة والشعب والملك، الذي وضع ثقته فيه.. سنوات عامرة بالرخاء والخصب

والإنتاج الغزير.. أصبحت تلك البلاد الوثنية من أغنى البلدان زراعيًا، لأن القائم على التخطيط فيها وزير مسلم نزيه مخلص لدولته ولو كانت وثنية.. وزير يجمع إلى خوف الله ومراقبته والنزاهة، فرض النظام وعدم إعاقته من أي كائن كان.. تزوج يوسف خلال تلك السنوات، فانكسرت قلوب أولئك النسوة وغيرهن حسرة عليه، ورزقه الله بذرية طيبة. مرت سبع سنوات، فبدأت ملامح تفسير رؤيا الملك المخيفة تتشكل على الأرض.. بدأ عهد الجفاف والسنابل اليابسات ينتشر، لكن الملك كان مطمئنًا لخطط وزيره المستقبلية.. واثقًا من إعداداته العدة لأقصى الظروف، التي لم تعصف بمصر فقط، بل اجتاحت المناطق المجاورة.. لم يكن يوسف أجمل أهل الأرض وجهًا.. كان أنجح وزراء الأرض.. كانت نجاحاته عطرًا يتضوع في كل البلاد.



هؤلاء الذين أتعسوا حياتي

أصبح اسم الوزير يوسف صلى الله عليه وسلم رمزًا للنزاهة والعطاء والنجاح.. تفوق على زملائه الوزراء الوثنيين: إبداعًا وإنتاجًا وتواضعًا بمراحل.. ما أعذب الوزير حين يجمع خوف الله مع تنفيذ النظام بحزم.. كان يوسف يذوب رحمة بين أيدي الفقراء والمحتاجين الوثنيين حتى من غير شعبه.. ينصت لشكاواهم ومطالبهم.. يحاول تخفيف آلامهم وما بهم فعلًا وإنجازًا.. لا تخديرًا ووعودًا كالسراب.

وذاث يوم، وبينما كان يستقبل المراجعين والموجوعين والوفود، الذين يغص بهم ديوان وزارته.. دخل عليه وفد ناحلة أجسادهم شاحبة وجوههم.. شخص بصره لهول ما يرى، فقد تغيرت تقاسيم وجهه رحمة بحالهم، لكن رحمته تلك كانت ممتزجة بذكريات بالغة المرارة، فهذا الوفد.. هو الذي أخذه ذات يوم وهو طفل صغير لتلك النزهة التعيسة.. هذا الوفد هو الذي أنقاه وغيبه في تلك البئر المخيفة.

تأمل العشرة واحدًا واحدًا.. هذا هو من طلب من والده أن يخرج معهم، وهذا من كان يتعامل معه بطريقة فظة في الطريق، وهذا من خلع قميصه، وهذا من صبغ قميصه، هؤلاء هم من ألقوه عاريًا في تلك البئر المظلمة، وهو يصرخ ويبكي.. هؤلاء الذين حرموه أحضان أمه راحيل الحبيبة، ودلال يعقوب الطيب، وأخيه بنيامين.

مهلاً: أين بنيامين؟ إنه ليس معهم.. ترى هل ألقوه في بئر أخرى، واتهموا به ذنبًا آخر؟ هؤلاء الذين نحروا طفولتي بخناجر الرق والعبودية والغربة، وحرمني ديارى ومراتع صباي.. هؤلاء من أذلني حتى تحكمت بي وسجنتني امرأة لم أقصر يوماً في خدمتها.. هؤلاء هم من كنت أظنهم عضدي وساعدي وسندي، لكن ورغم تلك المرات رقى يوسف لحالهم، فهم يظلون إخوته، وأبناء أبيه إسرائيل الطيب.

أصابه الحزن وهو يرى ثيابهم الرثة، ووجوههم الشاحبة، وتوسلاتهم التي تقطع نياط القلب، فكيف هي حال والديه الحبيين؟ أنصت لمطالبهم، ثم أمدهم بما يحتاجون من طعام وأكثر، دون أن يفتح ملفاتهم السوداء، أو يذلهم بها، أو يمن عليهم، فقد ابضت أصداعهم، وكبروا، وأصبح البعض منهم جدًا، ولا بد أن والديه الحبيين يعانيان أكثر منهم، لكن يوسف لن يتركهم يرحلون هكذا، دون الحصول على إحداثيات أحبته، وعناوين خفقات قلبه.. قرر أن يحصل على شيء من آثار يعقوب وراحيل، عليه يخفف شيئًا من لوعته، وأشواقه التي تحرق قلبه منذ ربع قرن.. طلب منهم طلبًا غريبًا، لكن الأغرب هو أن هذا الطلب لم يثر أي تساؤل في قلوبهم، التي زادها الجفاف جفافًا.



هل هناك بئر آخر ينتظر بنيامين

طلب يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إخوته قبل أن يغادروا، أن يحضروا أخا لهم من جهة الأب، وكأنه يريد التأكد من وجود أخيه بنيامين حيًا، وإلا فلن يحصلوا منه على أي بضاعة في المرة القادمة، فلما ﴿جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، وإذا بإجابتهم تحرق أضلاع يوسف، وتزيد لوعته، حين ﴿قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَعَلُونَ﴾.

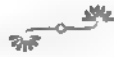
أدمت الإجابة شغاف قلبه.. أدرك أن والده لا يزال يبكي عليه، رغم مرور ربع قرن على الفراق، وإلا لما تشبث بشقيقه بنيامين، وأبقاه بجواره، وقد تجاوز العشرين.. أدرك أن الشيخ لا يريد أن يفرط فيه، كما فرط في حبيب قلبه، الذي يحلم بعودته يومًا. آلمت يوسف تلك الإجابة، لكنه قام بحركة قد تلين قلب يعقوب، فيسمح بسفر بنيامين.

ففي أثناء انشغال إخوته بالحديث معه، استدعى بعض موظفيه، وهمس فيهم بشيء يثير الدهشة. قال ﴿إِنِّي نَبِيٌّ أَجْعَلُوا بِضَاعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فانطلق الموظفون في لحظات الانشغال، وأحضروا النقود التي دفعها إخوته، ثم تسللوا نحو رواحلهم، ودسوها في حقيبة من حقائب سفرهم.

تلقى يوسف إشارة بإتمام المهمة، فودع إخوته دون أن يعرفهم بنفسه، ثم توجهوا نحو مطاياهم وركبوها، وأردفوا قلبه معهم، ومضوا وهو يتمنى لو كان أولهم دخولا على يعقوب.. أقفت العير حتى غابت عن عينيه الدامعتين.. سارت قافلتهن وسارت، حتى وصلت باديتهن.. نظر بعضهم إلى بعض، وكأنهم يتساءلون: هل سيثق أبونا بنا، ويعطينا بنيامين في المرة القادمة؟

ولما دخلوا باديتهم، عزموا على مصارحته، فأناخوا مطاياهم ونزلوا، ثم دخلوا على أبيهم يعقوب، الشيخ الطاعن في السن، فحيوه، وتحلقوا حوله، وأخبروه بكرم الوزير، وحده عليهم، ثم نغصوا عليه بذكر شرطه الغريب: ﴿أَتُؤْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾، بل أخبروه بتهديده، حين قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْدَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا نَقْرَبُوكُمْ﴾، ناشدوا والدهم إسرائيل أن يرسل أخاهم بنيامين معهم، فقالوا: ﴿يَتَأَبَّأْنَا مُنِيعَ مَنَا الْكَيْدُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

هنا تذكر الشيخ تحلقهم حوله قبل ربع قرن.. عصفت الذكريات بقلبه، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. أخرجهم الخجل، وعجزوا عن الرد، فالجرح لا يزال مفتوحاً.. لا يزال ينزف، ويؤلم هذا الشيخ الطاعن في السن. نهض الأبناء العاقون مثقلين بتاريخهم الأسود، وخرجوا، لكن شيئاً حدث جعلهم يعودون لأبيهم مبتهجين. ظناً منهم أنه سيخفف شيئاً من أحزانه.



لا تدخلوا من باب واحد حتى لا أخسركم

تذكر الشيخ يعقوب صلى الله عليه وسلم تحلق أبنائه العشرة حوله قبل ربع قرن، فرفع حاجبيه الثقيلين، ونظر إليهم بعينين أضعفهما البكاء على يوسف، وقال: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنُتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، سكت الأبناء خجلاً.. شعروا بالعار، وهم سبب عذابات هذا الشيخ الطيب، منذ أن اتهمهم على قرة عينه يوسف، لذا نهضوا من عنده، يسحبون خطاهم نحو إبلهم، التي أناخوها في الخارج.. بدؤوا يحلون الأربطة، ويتزلون البضائع.

مد أحدهم يده نحو خرجه أو حقييته، ليخرج ما بها، وإذ به يصرخ، وكان حية تتلوى داخلها.. لقد وجد مبلغ البضاعة كاملاً، قد أعاده موظفو الوزير.. توجه نحو إخوته يبشرهم، فانطلقوا نحو أبيهم يحملون دليل صدقهم، علّ هذا التصرف النبيل من الوزير الرائع، يلين من تشدده تجاه سفر بنيامين.. دخلوا عليه وأروه النقود، وقالوا: ﴿يَتَأَبَانَا مَا بُنِعِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾، لكن خنجر يوسف لا يزال منغرزا في قلبه، وهو أضعف من أن يطعن مرتين، لذا أراد شيئاً يحمي به بنيامين، فقال: ﴿لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَنَا تُنْقِي بِهِ، إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

مضت الأيام، لكن القحط لم يمض.. أصبحوا بحاجة إلى التموين مجدداً، فأعدوا المطايا، وزادوا مطية لبنيامين. ركب الأخوة مطاياهم، وقبل أن يغادروا قدم الشيخ لهم وصية أخيرة من قلب أتعبه الشوق والبكاء، فقال: ﴿يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، غادرت القافلة حتى أصبحت أمام أسوار مصر، وحينها انقسموا، وتوزعوا حسب وصية والدهم إسرائيل على بواباتها، تواعدوا على الاجتماع في مكان يعرفونه جميعاً.. تفرقوا، ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد مدة من دخولهم اجتمعوا في النقطة المحددة، ثم توجهوا نحو ديوان الوزير، فاستأذنوا للدخول عليه، فلما علم بقدمهم بكى قلبه شوقاً لراحيه ويعقوب وبنيامين، فأدخلهم على الفور.. تهادى أخوته نحو ديوانه فتأملهم، فوجدهم قد أصبحوا أحد عشر وافداً، فازداد خفقان قلبه، وجالت عيناه بينهم، تبحث عن حبيب القلب بنيامين.

أهذا أخي الذي حرمت منه؟

دخل إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم، وما إن رأهم حتى تعلقت عيناه بأصغرهم.. بشقيقه وحبيبه بنيامين.. تكلمت خفقات قلبه: أهذا هو الطفل الذي كان يجبر بيني وبين راحيل ويعقوب.. أهذا هو بنيامين، الذي حرمت من اللعب، ورعي الغنم معه.. اجتاح قلبه طوفان من العواطف، لكنها لم تهزه.. ظل متماسكًا، ثم قام بإشغال إخوته وإلهائهم بما جاءوا من أجله، وطلب من خدمه أن يدخلوا بنيامين عليه دون أن يشعروا.

عاد بنيامين والاستغراب يملؤه، وإذ يوسف يعانقه، وكأنه يعانق طيف راحيل ويعقوب، ثم يهمس به: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، طار قلب بنيامين من شدة الفرح، وهو يعانق أخاه المفقود، الذي طالما حدثه أبوه وأمه عنه، وهما يمسحان دموعهما. ترى كيف هي سعادتهما، حين يعلمان أن الله قد نصره، وجعله وزيرًا تعطر سمعته الأماكن، التي يذكر فيها نزاهة وعدلًا وإبداعًا. طوى بنيامين سر أخيه، ثم ودعه، وكأنه يتمنى لو طار نحو يعقوب؛ ليبشره بنهاية أحزانه ومواجهه. خرج بنيامين وانضم لإخوته، لينهى معهم ما جاءوا من أجله.

وبينما كانوا يقومون بملء رواحلهم، وإجراءات البيع والشراء، كانت الأحلام تحلق ببنيامين، في الوقت الذي كان أخوته في حالة حبور ووداع لهذا الوزير السخي، إذ بأحد الموظفين يتسلل بخفية، ومعه المكيال المميز، الذي يكال به للمتبضعين، ثم يدسه في خرج بنيامين داخل الحبوب، دون أن يعلم. ركب أبناء يعقوب، ونهضت غيرهم، ثم بدؤوا بالمغادرة.. ساروا مسافة قصيرة، وقبل أن يخرجوا من البوابة، دوت صيحة مخيفة.. صيحة استوقفت غير بني إسرائيل.



توقفي أيتها القافلة.. انزلوا أيها الغرباء، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، نزل الإخوة مذعورين، وكأنهم يقولون للحرس الغاضبين: ما الذي يجري؟ وعن أي سرقة تتحدثون؟! هتفوا بالمنادي: ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾، فقال الحرس الغاضب: ﴿تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، ثم أعلن عن جائزة سخية لمن يجده: كمية من الطعام تعادل حمولة بعير، فقال: ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ، حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، بل ضمن الجائزة بنفسه لمن يجده، قائلاً: ﴿وَأَنَا بِهِ، زَعِيمٌ﴾.

هنا نظر بعض إخوة يوسف إلى بعض براءة لأول مرة.. هونوا من الأمر، ولم تعد الجائزة تغريهم، فالعودة للديار وعدم تعطلها هو مهمهم.. هنا نزل الوزير يوسف، لاستطلاع الأمر بنفسه.. عندها تغيرت وجوههم، فالأمر يبدو خطيراً.



بنيامين لص وشقيق للص

كثر اللغط والضجيج حول قافلة بني إسرائيل، فأقبل الوزير يوسف صلى الله عليه وسلم متظاهراً باستطلاع الأمر، فحلف إخوته أنهم لم يرتكبوا أي سرقة، وأنهم لم يأتوا مصر إلا للشراء، و﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، فأقبل أحد المسؤولين نحوهم، متحدياً وطالبا منهم إثبات براءتهم، فقال: وماذا إن وجدنا الصواع الملكي في خرج أحدكم، ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ، إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾.

مباشرة عادت الكلمات التي كانوا يعدونها ليوسف (الرق). أجل خذوا السارق عبداً ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ يُجِدْ فِي رَحْلِهِ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، هذا هو قانوننا، وجزاء الظالم المعتدي. هزت الكلمات قلبي يوسف وبنيامين، وكأنهما يقولان: فما الظلم الذي ارتكبه يوسف حتى حولتموه إلى عبد،

وحرمتموه من أحب الناس إليه. تحرك المفتش بخطة من يوسف، نحو إبل الإخوة جاعلاً خرج بنيامين آخر خرج يتم تفتيشه.

مد المفتش يده إلى خرج الأشقاء (يهودا ورايين وَشَمْعُونُ وَلَاوِي)، فلم يجد شيئاً.. فتش حقائب الأخوين (أَيْسَاخَرُ وَزَابِلُونُ) فكانت نظيفة.. فتش حقائب الشقيقين (دَانُ وَنَفْتَالِي) فلم يجد شيئاً.. قلب بضاعة الأشقاء (جَادُ وَأَشِيرُ) فكانت كذلك.. بقي خرج (بنيامين)، فتتنفس الإخوة الصعداء، لأنهم يعرفون نزاهته، وأن من المستحيل أن يرتكب حماقة كهذه.. مد المفتش يده، فغمسها في حبوب القمح، التي في رحل بنيامين، والإخوة يتأهبون للرحيل بثقة، وفجأة صاح المفتش صيحة، حولت القافلة إلى مناخة.

رفع يده وهو يحمل المكيال الملكي، مبشراً بالعشور عليه داخل خرج بنيامين، ومعلنا القبض عليه، وتحويله إلى عبد آخر على أرض مصر. كان الوزير يوسف صامتاً، أمام المشهد التمثيلي، الذي تم إخراجه بنجاح.. ذهل الإخوة.. عجزوا عن تصديق ما يجري.. لم يأبهوا الشأن بنيامين، فكل الذي يهمهم هو والدهم الشيخ إسرائيل.. يعقوب الذي قد تقتله الفاجعة.. لن يصدقهم أبداً، ولن يسامحهم، وهم يتسبون في استرقاق أصغر أبنائه.

جن جنونهم، وفقدوا صوابهم، وعاودهم طيش المراهقة بفعل الصدمة، فبدؤوا يتناولون بنيامين بانفعال وتهور.. تهور أوصلهم إلى شتم شقيقه يوسف.. الذي لم يكتفون برمييه في البئر، ولا بالكذب على أبيهم وعقوقه وإيلامه، وعدم الاعتذار منه، صاح بعضهم: إن بنيامين هذا لص، بل هو شقيق للص، ويوسف شاخص أمامهم، وهو لا يصدق ما يسمع. مذهولاً من شدة فجورهم في الخصومة.



يعقوب يبكي بنيامين

انفعل إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم وهم يرون المفتشين يخرجون المكيال الملكي من خرج بنيامين.. وجدوها فرصة للتشفي من دلال أبيهم له، بل أخرجوا أحقادهم القديمة على يوسف، فقالوا للمفتشين: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾، تلقى يوسف تلك الفرية كالحربة في قلبه.. تألم من إخوة لم يتعرض لهم بأذى، ولم يمسهم بسوء.. ما الذي فعله حتى يكون له كل هذا الغل. ما هذا الحقد الذي لم ينته حتى اليوم، ما حجمه؟ سكت الصديق، وكأنما يقبض على الجمر، ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، واكتفى بكلمات حري، زفرها من وجعه، فقال: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

هدأ الإخوة قليلاً من طيشهم وانفعالهم، حين رأوا الحرس ينيخون ناقة بنيامين، وينزلونه ويقتادونه.. عادوا لرشدتهم، وبدؤوا التفكير بوالدهم.. غاب بنيامين عن المشهد عبداً، وحضر يعقوب في أذهانهم.. خافوا ألا يتحمل ما جرى لأصغر أبنائه، فهو ما زال يبكي يوسف حتى اليوم. تشاور الإخوة وتلاوموا، وقرروا أن يدفعوا فاتورة أوجاع أبيهم هذه المرة مهما بلغت. اتفقوا أن يعيدوا بنيامين لوالده، ولو كان الثمن حریتهم.

أوقفوا مطاياهم، وعادوا يلتمسون مقابلة الوزير، ولما أدخلهم قدموا التماساً بأن ينتقي واحداً منهم، عبداً بدلاً عن بنيامين.. ناشدوه ورجوه أن يفعل، رحمة بشيخ ضعيف، أتعبه فراق ابن سارق قبل عشرين عاماً، فكيف سيطيق فراق شقيقه، وقالوا: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، نظر يوسف إليهم رافضاً التماسهم، لأنه ظلم لأحدهم.. كيف يعاقب بريئاً؟ لذا قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَنْطَلِقُوهَا﴾، حاولوا وحاولوا، لكنهم فشلوا، ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا

مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ وَانْعَزَلُوا فِي مَكَانٍ يَتَنَاجُونَ فِيهِ حَوْلَ مُصِيبَتِهِمْ، وَالْهَمُّ يَقْتُلُهُمْ.. لَمْ يَعُودُوا يَهْتَمُّونَ لَعِيرِهِمْ، وَلَا لِبِضَاعَتِهِمْ.. يَعْقُوبُ الْمَسْكِينُ كُلَّ هَمِّهِمْ.. أَدْرَكُوا فِدَاحَةَ مَا هُمْ فِيهِ، لَكِنَّهُ الْوَاقِعُ الْمَرِيرُ.

انهار أكبرهم، الذي بدأ الشيب يلون رأسه.. شعر بالانكسار.. تحول إلى حطام، لأنه لم ير من والده إلا كل خير.. لم يعد يطيق أن يُري والده وجهه بعد كل ما فعله به من عقوق.. التقط من حطامه كلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، ثم خرج حزينًا من ديوان الوزير. أخبر أخوته بعنوانه في مصر، منتظرًا تنفيذ حكم أبيه فيه، أو عفوه عنه.



عندما يصيبك الشوق بالعمى

انهار أكبر إخوة يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتهدج صوته بكلمات تثير الشفقة، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، ثم تنهد بكلمات كالجمر، فقال: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١) وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، حاول الإخوة التسعة ثنيه فعجزوا، فلما عجزوا نهضوا من عنده مثقلين، وودعوه، وركبوا مطاياهم، وخرجوا من بوابة المدينة، لا يدرون ما يقولونه لوالدهم.

تحركت العير تحمل تسعة إخوة، وبقي اثنان في مصر: الأصغر تم أخذه عبدًا، أما الأكبر فأنقله الحزن.. ظل في مكانه محطماً منكفئاً على أوجاعه..

يقتله تاريخه مع والده الطيب.. بقي في مصر وحيداً غريباً.. هائماً على وجهه في شوارعها.. يسير بين جدرانها كالمشرد.. لا يهنأ بطعام، ولا يأنس ببشر.. ينتظر عفو أبيه بعد أن عقه، وتسبب في أحزانه، فهل أحس بغربة يوسف لأكثر من عشرين عاماً؟ هل وضع نفسه مكان طفل ألقاه في بئر مظلمة؟ هل قال لنفسه: تخلصنا من يوسف، فخلا لنا وجه أبينا، ثم ماذا؟ لقد صرنا أتعس. لم يدر أنه لا تفصله عن يوسف وشقيقه سوى خطوات.. يتبادلان الحديث والذكريات حول راحيل ويعقوب.. نعمة أنعمها الله على يوسف، وتحدث عنها سبحانه، فقال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

أما في ديار يعقوب فالأحداث تتصاعد، والفاجرة الأخرى في الطريق إليه: بنيامين الحبيب لم يعد مع العير، وها هم إخوته يسحبون خطواتهم وخطاياهم، وهم يدخلون على والدهم.. ينظر إليهم، فإذا عددهم قد قلّ. ما الذي جرى؟ هل خالفوا وصيته، فدخلوا من باب واحد، ولم يدخلوا من أبواب متفرقة؟ أين بنيامين؟ أين أخوكم الأكبر؟

تهدج صوت أحدهم حزناً، وقال: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾، أما الكبير فقد بقي حزينا على عدم وفائه بميثاقك.. تضاعف حزن الشيخ، خاصة حين أخبروه أن ابنه البكر قد رفض العودة، قائلاً: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب. فاضت عيناه، واحترق جوفه، فشكا حاله لأرحم الراحمين.



لماذا تذكرنا بيوسف يا أبي؟

دخل إخوة يوسف على أبيهم يعقوب صلى الله عليه وسلم مثقلين بالحزن.. ثم قالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١)

وَسَلَّ الْقَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٠١﴾، بلغ الحزن منتهاه في قلب يعقوب، فنظر إليهم والدموع تحرق أجفانه.. نظر إليهم بعينين أضعفها البكاء على يوسف، ثم زفر بكلمات حري، شاكيًا أمره وأمرهم لعلام الغيوب وكاشف الكروب، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ثم انطوى على أحزانه، وظل يبكي حتى فقد بصره، كما فقد يوسف: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْتِئَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

غابت الشمس عن عيني يعقوب قبل أوانها، وأعماه الشوق والوجد على طفله، وتحولت دنياه إلى مجرد أصوات، وما إن سمع الإخوة باسم أخيه، حتى تضايقوا، ولاموا والدهم على كثرة ذكره، فإن حزنه عليه يكاد يهلكه، وكأنهم يطالبونه بنسيانه، فهو لن يعود، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، أما راحيل فعاودها الحزن، الذي كاد يقتلها قبل عشرين عامًا، حتى ذبلت، وذبل جمالها الفردوسي.. ناحت على ابنيها، لا تدري ما تقوله لإخوة لا يشعرون إلا بالهم الحسد.. حسد أفقدها أطفالها وهم أحياء، فما الذي فعلته وفعله أطفالها لهم؟

ضاقت الدنيا بها وبزوجها، الذي بث شكواه لأرحم الراحمين، فقال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لكن أيام الابتلاء اشتدت وطالت، فقد اجتمع عليهما الفقر والجفاف والوجد والأحزان، لكن يعقوب لم ييأس، بل جمع أبناءه حوله، وهو في أشد أيام الابتلاء، وقال لهم: ﴿بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، نهض الأبناء من مجلس الشيخ المكلوم، إرضاء له، وتأدية لواجب.. توجهوا هذه المرة نحو رواحلهم، بمال أقل، وانكسار أكثر، ثم انطلقوا نحو مصر، والحزن يحدو غيرهم.. انطلقوا مهمومين، لا يابھون

من أي باب دخلوا.. همهم هو إرضاء شيخهم.. دخلوا مصر فتوجهوا للمقابلة العزيز، الذي كان يخفي شوقه لعودتهم، وما إن دخلوا ديوانه، حتى أذهلتهم هيئة أحد العبيد بجانبه. ما هذا؟ ما هذا الأنيق الذي أمامهم، أعبد هو أم أمير؟ إنه بنيامين يجلس مبجلاً بجوار الوزير.



الإخوة في المحكمة

ذهل أخوة يوسف حين دخلوا ديوانه.. فوجئوا بأخيهم بنيامين بجانبه.. مبجلاً، لا تبدو عليه آثار الرق، ولا الشقاء، ولا العبودية.. حيرهم المشهد، لكنهم كتموا حيرتهم، وكأن الحسد عاودهم.. تجاهلوه، وناشدوا الوزير المساعدة والشفقة، فهم في فقر وعوز شديدين، مما جعلهم يقولون: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الْقُرَىٰ وَحِثْنَا بِضَعَعٍ مُّزَجَّحٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، أخبروه بما آلت الأمور إليه في الديار.. أخبروه بحال شيخهم، الذي ما زال يبكي طفله حتى عمي. هنا بكى قلب يوسف، وهو ينصت لمعاناة حبيبه، ففاضت عيناه، ولم يعد يحتمل عذابات والده، وأحزان حبيبته راحيل، أو الكتمان.

وجه لإخوته سؤالاً كالصاعقة، فقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، نظر بعضهم إلى بعض، وكأنما عثروا على قطع الأحجية المفقودة في تصرفات هذا العزيز، وطلباته الغريبة، فقالوا: ﴿أَوَ تَلَكْ لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ذهلت الحاشية من هول ما يسمعون، وأسقط في أيدي الإخوة، وتخلوا عن الكذب والمكابرة.. أدركوا قدرة الله، الذي يمهل الظالم لكنه لا يهمله، فحلفوا به سبحانه أن الأمر له، وفوق طاقة البشر، فقالوا:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾، ثم سكتوا في تلك المحكمة بانتظار لحظة الانتقام المخيفة.

حدق الضباط والجند بقساة القلوب، الذين رموا سيدهم يوسف صلى الله عليه وسلم في بئر وهو طفل، ثم تسيبوا في رقه وسجنه لأكثر من عشرين عامًا، دونما ذنب سوى أن والده يحبه.. تأهب الجند للقبض عليهم، والبطش بهم، وفي أشد اللحظات وأخرجها، وبينما كان الإخوة يتوقعون سجنًا أو رقًا، يتناسب مع جرائمهم.. نطق الكريم ابن الكريم ابن الكريم، فقتل إخوته بلا سلاح، حين قال لهم: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قتلهم بسلاح العفو والكرم، فصمتوا، وفقدوا القدرة حتى على الاعتذار.. طأطأ تاريخهم خجلًا، فتأمل يوسف تضعع إخوته، وقرأ في عيونهم ندمًا لا يطاق، فعاملهم بأخلاق النبوة، وقرر أن يزيع مصابهم.. أمرهم بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجذب؛ لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله، ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته.



آخر قصص قميص يوسف

أمر يوسف صلى الله عليه وسلم إخوته بإحضار والديه وعائلاتهم من ديار القحط والجذب، لينتقلوا للعيش معه في أرض مصر.. مصر الطيبة التي أصبحت من أغنى البلدان بفضل الله ثم بفضل نزاهته وعدله ووعيه بمسؤولياته، ورحمته برعيته، فربه ودينه يأمره بالتفاني في وظيفته، رغم أنه وزير مسلم في دولة

وثنية. ثم أمر إخوته بأمر، أوحى إليه، فقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

تعانق الإخوة لأول مرة.. تعانقوا، وكأنما خلقوا من جديد، ثم ودعوه، وبعد أن وجدوا أخاهم الأكبر، وطمأنوه، ركبوا مطاياهم، وعادوا لديارهم بقلوب بيضاء، غير تلك التي غادروا بها، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾، وغادرت مصر، شعر يعقوب بطيف يوسف، يتجول بين أضلاعه.. شعر وكأنه في الطريق إليه، فالتفت إلى من حوله من زوجات وبنات وأحفاد، وكان الوحي ينث في روعه، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، ففندت الأسرة قوله، ولم يبالوا كالعادة، وأكدوا أنه يتوهم، كما يتوهم المحبون لقاء أحبهم، من لوعة الفقد وحرقة الاشتياق، و﴿قَالُوا تَأَلَّيْنَاكَ لِیْ ضَلٰلٰتِكَ الْكَبِیْرَةِ﴾.

تجاهل يعقوب ردهم، وظل متشبهاً بالثقة بربه، بينما كانت العير تحث السير نحوه، كخفقات القلب الولهان، وما إن اقتربت العير من الديار، حتى أخذ أحد أخوة يوسف القميص وانعزل عن القافلة، وزاد في سرعته حتى سبق الجميع نحو الديار، ولما أصبح أمام بيت الشيخ الحزين يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام توقف.

أناخ راحلته وانحدر عنها، وأطلق ساقيه نحو والده.. الذي كان ساعتهما محاطا ببعض عائلته، وقبل أن يتكلم البشير، ألقي القميص على وجه أبيه، وكأنه يلقي بآخر قصص قميص يوسف، وإذ بالشيخ يشعر بريح يوسف، تعطر القميص.. شعر بروح أخرى بين جنبیه، ضم القميص وشمه وقبله، وبلله بدموع الشوق.. احتضنه وكأنه يحتضن طفله الحبيب، وإذ بالنور يتسلل إلى عينیه، وكأن الدموع تغسل حزن الزمان وعماءه، فعاد البصر إليه.. تصفحت عيناه وجوه من حوله، ووجهه يشع بشراً وسروراً، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

سالت دموع راحيل المفجوعة بطفليها ظلمًا، وفاضت دموع العائلة من حولها، وبعد دقائق أو أكثر توقفت القافلة المحملة بالمشاعر، ثم انحدر منها الأخوة، ثم توالى دخولهم واحدًا واحدًا. يسحبون خطاهم وخطاياهم نحو أبيهم، وينزفون ندمًا وخجلًا.. سلموا على الشيخ الذي أعاد الله له بصره، وهو يتأمل ماضيهم الأسود. تهادوا يقتلهم المشهد، وتسافر به وبهم المشاعر من القميص إلى القميص، ومن المرعى إلى مصر، ومن قاع البئر إلى عرش الوزارة.. أدركوا أنه مهما بلغت كثرتهم وقوتهم.. مهما بلغ دهاؤهم، وبرعت حيلهم، فإن الذي منحهم كل ذلك قادر سبحانه على سلبها منهم بظلم يظلمونه.. بزفرة مظلوم ليس له سوى الجبار نصير.



بنو إسرائيل في مصر

انكسر إخوة يوسف صلى الله عليه وسلم، وهم يرون الطفل الضعيف يطعمهم، بعد أن حرموه، ويؤويهم بعد أن شردوه، ويحذب عليهم، بعد أن تسبوا في رقه وسجنه.. أدركوا أن القوة ليست في يوسف، ولا في والده.. القوة في السماء، لكن الحسد يعمي الحاسدين عن السماء.. بكى الإخوة، وهم يرون قميص يوسف يعود ليضحك أباهم كما أبكاه، فأجشها ندمًا وتوبةً، وقالوا: ﴿يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾، لم يكن يعقوب سوى والد، يحب كل أولاده، لكن للصغير رحمة، وللمريض شفقة، وللغائب خفقة، لا تدركها سوى قلوب الآباء والأمهات.. لم يتردد يعقوب في العفو، فهم ويوسف وبنيامين ملء السمع والبصر، لذا ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

تحلق الإخوة حول أبيهم، وقصوا عليه قصة العزيز، وتعجبهم من سر طلبه لبنيامين، وقدرته على ضبط مشاعره تجاههم، ثم عفوه عنهم، وأخبروه أن مسؤولياته تجاه دولته تجعله عاجزًا عن اللحاق بهم، فهو مسؤول عن قوت

شعب وثني، سيسأله الله عنهم، وأن من الأنسب أن يتنقلوا للسكن عنده في مصر معززين مكرمين، فلم يتردد الشيخ، وكيف يتردد وهو سيري الحبيب الذي فقد بصره شوقاً إليه وحزناً عليه.. كيف يتردد والرحلة ستكون لديار يوسف الحبيب.

أخذ الشيخ عصاه ونهض، وطلب التأهب للرحيل، فأعدت الهودج، وحملت الفرش والأمتعة، وودعوا الجيران، الذين بكوا فراق الشيخ النبي وزوجاته الطيبات.. تمايلت غير يعقوب صلى الله عليه وسلم وعائلته عبر الصحاري، حتى أصبحت على مشارف مصر، وإذ بموكب الأمير النبي يوسف يخرج لاستقبالهم، وما إن رأى القافلة حتى طار قلبه، وأسرع نحوها.. نحو الشيخ، الذي كان يحضنه، ويلاعبه، ويبكي عليه.. نحو راحيل الحنان.

توقفت العير، وأنيخت المطايا، فنزل الأمير، وتوجه نحوهما، ومد يديه، وأخذ بأيديهما للنزول، وعانقهما بحرارة، وكأنه لا يريد تركهما، وكأنه يخشى أن يفقدهما مرة أخرى. نظر إلى تجاعيد يعقوب الحبيب. لقد تغير كثيراً، فأخر نظرة كانت حين ودعه قبيل أن يأكله الذئب. نظر إلى أجمل أم في الدنيا، فإذا الحزن والشيب قد غيَّرها. لم تعد كما كانت. غدت أكثر حُباً وحناناً وجمالاً. تأمل أحب الناس إليه فبكى، وبكى الشيخان، وبكت القافلة من حولهما، **﴿وَأَوَىٰ إِلَيْهِ أَبُوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾**.

تهادى بهما ثم سلم على عماته وأخواته، وعلى عشر عائلات هي عائلات أخوته، ثم استأنفت القافلة سيرها خلف كبار الضيوف يحفها الحب والترحاب والحرس، ولما وصلوا إلى ديوان الأمير أنزل والديه برفق، وأخذ بأيديهما بلطف، نحو عرشه، ثم أجلسهما عليه والسعادة تجتاح كل ذرة في كيانه تغمره **﴿وَرَفَعَ أَبُوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾**، ثم جلس معهما، واصطف إخوته وأولادهم أمامه.. هنا انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز **﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾**.

يوسف يفشي السر

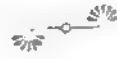
انحنى الوالدان والإخوة تحية للعزيز يوسف ﴿وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾. تأمل يوسف هذا المشهد فإذا به يتذكر خطواته الصغيرة نحو أبيه قبل ثلاثين عامًا، حين جاء ليسأله عن رؤياه قائلًا: ﴿يَتَأْتِيَ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، تذكر كلمات أبيه له، حين أوصاه بأن يكتُم أمر الرؤيا عن أخوته.

رفع الساجدون رؤوسهم من التحية.. نظر يوسف لأبيه، وخاطبه مفسيًا سره للجميع، وقائلًا: ﴿يَتَأْتِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، ثم توجه بدعائه إلى ربه الذي ابتلاه، ثم منَّ عليه وحباه.. توجه لمالك الملك وملك الملوك، الذي اصطفاه، معترفًا بفضلِهِ.. يناشده أن يثبتهُ على التوحيد، حتى يلقاه، وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

كان السجن تصفية لروح يوسف، وتهيئة له؛ ليشعر بثقل المسؤولية، ومرارة الظلم على نفس المظلوم، لذا أصبح بعد خروجه من السجن أعدل من تعامل مع هذا الشعب، منفذًا رسالة الأنبياء، التي يقول الله عنها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

ظل يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منصبه في مصر، يزين حياة الوثنيين بعدل الإسلام وأخلاقه، ويغتني الفرص لدعوتهم للتوحيد، وطاب لوالده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإخوته المقام فيها، حتى كثر أحفادهم وأحفاد أحفادهم، فتحوّلت عائلاتهم الاثنتا عشرة إلى اثنتي عشرة قبيلة.. كل قبيلة تحمل اسم ابن من أبناء يعقوب، وهم: (يوسف وبنيامين ويهودا ورايين وشمعون، ولاوي وأيساخرو زابلون ودان ونفتالي وجاد وأشير).

في تلك الأوقات، وفي مكان يقع بين مدائن صالح والشام، يقال له (مدين)، عاش قوم من العرب.. كانوا قلة فكثّرهم الله، وفقراء فأغناهم الله، وبدلاً من أن يشكروه سبحانه.. أطغاهم الجشع.. أصبح جمع المال بأي وسيلة كل همهم، فتحولت مدين إلى مطحنة للفقراء. أصبح دينهم دينارهم، حتى نسوا المنعم سبحانه، فانحطوا من التوحيد إلى قاع الوثنية والتخلف، لدرجة عبدوا معها الأيك وهو الشجر، وكان في مدين شاب موحد من عائلة كبيرة.. اسمه (شعيب)، يكره الفساد ويحاربه، لأنه أول خطوات انهيار الأمم.



شعيب نزيه يستحق الرجم

كبر شعيب فاصطفاه الله نبياً، ليدعو قومه إلى رسالتي الأنبياء: التوحيد والعدل. نبههم إلى معيشتهم الرغيدة، التي لا يرى معها أي مبرر للفساد، فقال: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْيطُونَ﴾، فالله قد خلق البشر لإعمار الأرض بالتوحيد والعدل، لا ليباد الموحد على يد الوثني، ولا ليُسحق الفقير والضعيف على يد الغني والقوي.



يخرج شعيب من بيته كل يوم نحو أسواقهم.. يجول بين دكاكينهم وأماكن تجارتهم، فيرى الأيدي تتلاعب بالموازين، ويرى الغش التجاري في البضائع. يراهم يقامرون بمستقبل وطنه الاقتصادي.. كان يخشى على وطنه الحبيب من الفاسدين.. يذكرهم بحالهم قبل سنوات، ويخشى عليهم زوال النعم، ويقول: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، لكن النعمة أسكرت قومه، حتى صاروا خلف الثراء السريع بأية وسيلة، ومن كان هذا حاله ينفر من أي دعوة للعقل، لذا فزعوا من دعوته

للتوحيد، ومحاربه للفساد، والتلاعب باقتصاد مدين، والمقاومة بحياة الجيل القادم، خاصة حين تعاطف معه المطحونون والضحايا والعقلاء.

هنا اجتمع عرابو الفساد الوثني؛ لاتخاذ قرار بشأنه، فرأت أغلبية المتنفذين الفاسدين الوثنيين: أن الحل هو إعدام شعيب صلى الله عليه وسلم رجماً بالحجارة، فوافقت الأقلية، لكنهم نبهوا العشيرته القوية، التي قد تحرق الأخضر واليابس، لذا تراجعوا، وقالوا صريحة لشعيب: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾، لكن شعيباً كان يخاطب العقول، فيقول: ﴿يَنْقُورُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

مرت الأشهر والسنوات وأصبح الوثنيون أكثر فساداً وإجراماً.. لم يكتفوا بالشرك.. تحولوا إلى إرهابيين، يجوبون الطرقات.. يهددون أي شخص يريد اعتناق التوحيد، أو ينصت لشعيب، ودعوته لمحاربة الفساد، متوعدينه بالموت، ولما علم شعيب حذرهم، وقال: ﴿يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ الْإِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ. وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، هنا قدموا له خيارين، لا ثالث لهما.



شعيب والخيار الأخير

طالب النبي شعيب صلى الله عليه وسلم قومه بتحكيم العقل، وترك الناس وما يختارونه من دين وتجارة نزيهة، قائلاً: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾، رفض الوثنيون أن

يكون لغيرهم رأي، وأصروا على سحق الموحدين والنزيهين وأهله قائلين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

رفض شعيب الرضوخ لتهديدهم فزحزحة الجبال أهون من التخلي عن التوحيد، لذا ذكرهم بقدرة الجبار سبحانه، ومصير الأمم البائدة، فقال: ﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، هنا عرض قومه عليه خيارين لا ثالث لهما، إما أن يعود وأصحابه للوثنية، أو يغادروا إلى غير رجعة. فقال: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهَ مِنهَا﴾، ثم بين شعيب أن صلفهم لا وزن له أمام ثقته بالله سبحانه، فقال: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، فشعيب ليس طالب سلطة يحشد الأتباع، ولا صاحب تجارة يطمع بالحصول على أكبر قدر من الأرباح والربائن.. هو صاحب رسالة سامية، تعيد تفعيل العقل، وتقدم حلولاً ناجعة للاقتصاد.

هنا تهور الوثنيون فطلبوا من شعيب أمراً ثالثاً.. تهوروا فنطقوا بالكلمة، التي تجلب الخراب. تحدوا الله أن يعذبهم قائلين: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨٦) فأسقط علينا كسفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، تألم شعيب من سوء أدبهم مع خالقهم ورازقهم سبحانه وتعالى، وأخبرهم أن إسقاط قطع من السماء ليس شأنه. هو لا يملك سوى إرشادهم، والأمر بيد الجبار أولاً وأخيراً.

خرس الوثنيون، وحزن شعيب لعناد قومه، فإذ بالجبار المنتقم سبحانه يأمر شعبياً والمؤمنين أن يغادروا مدين.

انطلق شعيب صلى الله عليه وسلم نحو بيوت المؤمنين وبلغهم أمر ربه، فبدأوا الاستعداد للرحيل المر. حان وقت الرحيل، ليس رضوخاً للطواغيت، ولكن لأمر مخيف سيحل، فهؤلاء الوثنيون مثال للمادية البشعة الجشعة، التي تأكل أبناءها، وتدمر نفسها، وترفض الرأي الآخر ولو كان حقاً.. حان الرحيل

عن الوطن وما أقساه. بدأ المؤمنون بتحميل مطاياهم، ثم تحركت الركائب
مغادرة، فبدأ الوثنيون يسخرون من الراحلين.. يطالبونهم بالبقاء، وترك شعيب
والتوحيد ﴿وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَيْرُونَ﴾، فهل
يتخلى الراحلون عن شعيب؟



رحل قوم شعيب وعاد الفراعنة

لم يلتفت أصحاب شعيب عَلَيْهِ السَّلَام لثروة طواغيت الوثنيين، سلموا عقولهم
لشجرة.. ساروا خلف نبيهم، وكلهم ثقة بربهم سبحانه، حتى نزلوا بأرض
يعمرونها بالتوحيد والنظام، ورجع الوثنيون إلى شجرتهم (شجرة الأيك)،
يقدمون لها القرابين، ويشربون نخب انتصارها.

وفجأة توقف الاحتفال.. قلصت شفاههم عن الضحك والثروة، حين
رفعوا رؤوسهم، فإذا بالسماء تتغير.. بدأت زرققتها تتحول إلى ظلة قاتمة، وإذا
بزلزال مروع، يرج أرضهم من أقصاها إلى أقصاها يوم الظلة، حتى تساقطوا
من شدة الرجة.. دب الذعر في مدين، وملا الصياح أرضها وسماءها.. مدين
مدينة للهلع.. الكل يركض.. الكل يهرب.. لا أحد يلوي على أحد، ولا يسأل
عن والد أولد.

وبلمح البصر.. شقت السماء صيحة فجرت الأذان، وصدعت ما تبقى من
جدران.. صاخة انتزعت الأرواح من الأجساد، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينِينَ﴾
قد تخشعوا.

هناك من تخشب وهو يغش في دكانه، وهناك من تخشب وهو في الطريق،
وهناك من تجمد وهو يهيم بالدخول لبيته، وآخر تخشب وهو يهرب من بيته.
مدين متحف للجثث المحنطة، ومدين سكنت.

سكتت مدين.. سكت الفساد والغش والربا والظلم والإرهاب، سكت كل شيء فيها، وبقيت شجرة الأيك تسخر من غبانهم، وتبرأ من عبادتهم لها، ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شَعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ﴾.

انتهى قوم شعيب، وانتهت كذلك مملكة الهكسوس في مصر.. عاد الفراعنة لحكمها، وتعاقب حكامهم، وتغيرت أحوال أحفاد إسرائيل في مصر، فبعد أن طاب للنبي يعقوب صلى الله عليه وسلم السكن فيها حتى توفاه ربه سبحانه، وبقي أبنائه بعده سنوات وسنوات، ثم توفاهم الله واحداً بعد الآخر، وتوفي أخوهم يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أن ترك بصمته على أرض مصر.. أنقذها من المجاعة والإفلاس بعدالة الإسلام وأخلاق النبوة والنظام الاقتصادي الإسلامي، الذي يكافح الفساد، ولا يستغل المحتاج، أو يثقل كاهله بالربا، بل يخطط لمستقبل زاهر للوطن والمواطن.. رحل يوسف الصديق، وكثر أبنائه وأبناء إخوته وأحفادهم، حتى أصبحوا اثنتي عشرة قبيلة.. تلك القبائل أصبحت تسمى بالإسرائيليين، نسبة إلى إسرائيل أي يعقوب، ومع مرور الزمن تغير معظمهم.

أصيب الأحفاد بالغرور، لأنهم سلالة أنبياء، لكن مصر أيضاً تغيرت، فقد عاد الفراعنة الوثنيون لحكمها.. تعاقب حكامهم منهم المبدع، ومنهم المستبد المفرع، أما الإسرائيليون، فانقلب عزهم ذلاً وشقاء واضطهاداً، ربما لغرورهم، وربما لأنهم كانوا وزراء للملوك السابقين، وقد بلغ تطرف أحد الفراعنة أن أصدر أمراً بقتل مواليد الإسرائيليين الذكور.



الأهرامات بين إبداع التصميم وتخلف الهدف

بالقدر الذي تفخر فيه أرض مصر الطيبة بأهراماتها المذهلة.. بقدر ما تبكي أجيالاً تم سحقها من أجل بناء تلك الأهرامات، فالفرعون كان يأمر ببناء

الهرم، لا ليكون قصرًا يسكنه، أو صوامع للغلال والأمن الغذائي للشعب، بل ولا مسرحًا أو متنزهًا. لم تبن الأهرامات ليسكنها الفقراء، ولا حتى الأغنياء.. الهرم الذي صممه مهندسون عباقره، كان لسبب غاية في التفاهة والتخلف.

لقد تم تشييده ليكون قبرًا لفرعون، وليته بني تكريمًا لفرعون مبدع، بل هو قبر لفرعون حي مستبد، يأمر ببناء هرم يحتل مساحة حي لكي يكون قبره.. هرم بحجم حي من أجل جثة.. تهدر فيه ثروات البلاد، وتبدد طاقات الشباب من أجل جثة. ينخرط الشاب في سلك البنائين، وهو يناهز العشرينيات، فلا يكتمل الهرم إلا بعد أن يلون الشيب أصداعهم ورؤوسهم، ويتجاوز الأربعينيات.

طغيان وثني للحجر على البشر.. طغيان لم يمارسه يوسف، الذي احتفى بالإنسان المصري، وزين أرضه بتزاهة الإسلام وعدالته، أما الأسوأ فهو حين دشن أحد الفراعنة الوثنيين عهده بالظلم واضطهاد الإسرائيليين، فهل ارتكب ذلك لأنهم أحفاد يوسف وزير أعدائه الهكسوس؟ أم لأن بني إسرائيل كانوا يتحدثون عن ظهور قائد إسرائيلي سيتنصر على فرعون من الفراعنة؟

لا يمكن الجزم بالسبب، لكن الذي جرى هو أنه لم يعد لبني إسرائيل المساكين قيمة.. انقلب عزهم ذلًا وشقاء واضطهادًا، بل بلغ التطرف بأحد الفراعنة إلى محاولة إبادتهم بطريقة مبتكرة: أمر بقتل أي مولود ذكر، وبذلك سيأتي اليوم الذي ستخلو فيه مصر منهم، وقبل صدور هذا المرسوم الطاغوتي عاش شاب إسرائيلي صالح اسمه عمران.. وقد تزوج عمران من شابة إسرائيلية صالحة فعاشا في وئام، ورزقا بفتاة، ثم رزقا بابن سموه هارون.. كبرت ابنة عمران، وأصبحت في سن المراهقة، وفي هذا الوقت صدر الحكم الفرعوني بارتكاب المجازر بحق المواليد.

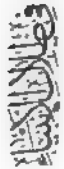
حينها كانت امرأة عمران حاملًا، وكلما كبر بطنها قل خروجها، فجلاوزة الوثنيين وجزاروهم يمشطون أحياء الإسرائيليين المساكين.. يجوبون

شوارعها وأزقتها كالوحوش.. يطرقونها بابًا بابًا.. في جولات تفتيشية مخيفة، لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية، وكلما عثروا على وليد انتزعوه من أحضان أمه المسكينة، وهي تصرخ وتناشدهم الرحمة، ثم قطعوا رأسه بوحشية، ورموه بين يديها. في تلك الأيام المخيفة، فاجأ المخاض زوجة عمران.



مداهمة بيت عمران

عصفت بالحي الإسرائيلي أجواء إرهاب لا تطاق، لذا كان الرعب يجتاح أم هارون على جنينها، فقد جاءها المخاض، ثم ولدت طفلًا جميلًا، سموه (موسى)، وهما هي يرتجف قلبها، كلما سمعت طرقًا على الباب، أو وقع أقدام على الطريق.. تحول أبوه عمران إلى راصد للطرقات، وجامع لأخبار المداهمات.. لم يعلم بمولد موسى سوى خاصة الخاصة.. ازداد خوف أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، لكن وحيًا تلقته، طمأنها وأحزنها في الوقت نفسه.. كلمات الذي لا يؤوده حفظ السماوات والأرض تقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.



قام والد موسى بصنع تابوت خشبي صغير أو شرائه، تحسبًا لحالة مداهمة، وظل الرضيع مع أمه، تحنو عليه وترضعه وتناغيه، بينما كانت جولات جلاوزة الفراغة المفاجئة تجتاح الحي بيتًا بيتًا.. تستجوبهم فردًا فردًا.. لا يمر شهر إلا وصرخات الأمهات تدوي في بيت من بيوت ذلك الحي، وبعد أسابيع من ولادته، داهمت دورية للشرطة الفرعونية الوثنية الحي، بحثًا عن رقاب المواليد الصغيرة. دنا مسح الجزارون من منزل أم هارون، فصعب الاحتفاظ به، فقد يبكي ساعة وجودهم فينحرونه أمامها.. تحرك البيت كله.. قامت أمه بإرضاعه، ثم لفته بمهد ودموعها تبلله، وكأنها تكفن قلبها.. قبلته وضمته، ثم وضعت داخل التابوت، ووضعت قلبها معه، وهي تتأوه.

فُتِحَ الباب وخرج عمران وابنته وابنه هارون يرصدون الطرقات، ولما أصبح الخروج آمنا خرجت به أمه، وهي تتلفت، وتوجهت به نحو نهر النيل، ولما أصبحت أمامه توقفت، وانحنى نحو الماء، ووضعت التابوت برفق على سطح الماء، وتركته في حفظ الحفيظ العليم.. تركت حبیبها، وهي تشهق من الوجع.. عيناها على التابوت، الذي يتموج مع الماء، ويبحر ويبحر حتى اختفى عن عينيها الغارتين بالدموع.. كأنني بها تكز أسنانها، وتغطي فمها خشية أن تصرخ، بل ﴿كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ﴾، كادت من شدة الوجد أن تصرخ، فتناديه فتفزع أمرها وأمره، لولا أن ربط الله على قلبها.

أما التابوت الصغير، فمالت به الريح شيئاً فشيئاً، حتى بدأت حركته بالبطء، ليرسو بعد مدة على ساحل الموت، وحافة قصر الطاغية فرعون، قاتل المواليده.. ظل التابوت ملاصقاً للساحل، يعلو وينخفض، حتى لمحت وصيفات الملكة الطيبة (آسية) زوجة فرعون.



آسية الملكة المصرية الطيبة

لمحت وصيفات الملكة (آسية) تابوتاً يعلو وينخفض مع تموج ماء النهر على حافة القصر، فأسرعن نحوه.. أمسكنه، ورفعنه عن الماء، وفتحنه، وإذا بالمفاجأة.. طفل كالقمر تهتز أطرافه.. تحلقت الوصيفات حول الكنز.. تعالت التآوهات والبسمات، ثم تهادين بسعادة نحو سيدتهن.. أخرجن الرضيع منه برفق، وسلمنه بنعومة للملكة الرقيقة الراقية، فلمعت عيناها سعادة، وجرفت قلبها براءته وجماله.. وبعد مناغاة وقبلات حانية خلد الصغير للنوم.

استغرق في نوم عميق، كعادة من هم في سنه، فُلِفَ في مهد ناعم، وغفا على سرير فاخر. ولما التقت سيدة القصر بفرعونها، تهادت نحوه بدلال،

تحمل الرضيع بين يديها.. تبشره بما وجدت، فاستشاط غضبًا، وقرر نحره، لكنها استغلت حبه لها، فاسترحمته، وناشدته ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، إنه من بني إسرائيل.

وافق الفرعون تحت تأثير الحب، ورضي بتبنيها للرضيع، الذي بدأ يفيق من نومه، ويشعر بالجوع.. بدأ يتلمظ، يبحث عن صدر أمه الحزينة.. بدأ يبكي، فإذ بالأوامر تصدر للمرضعات اللواتي أقبلن نحو الأمير الصغير، طمعًا في الهبات، لكن شفاته لم تطق صدر أي منهن، اضطرب القصر، وارتبكت السيدة الأولى، لا تدري ما العمل حيال طفل عاف المراضع كلها.. لم تدر أن الذي أهدها هذا القمر هو خالقه سبحانه، الذي يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾، أمرت الملكة الطيبة خدمها بالبحث له عن مرضعات أخريات.

هذا ما كان يحدث داخل القصر، أما في الحي الإسرائيلي المحاصر، وبالتحديد في بيت عمران، فالحزن يقتل الجميع.. لا يدرون أين رسا التابوت بموسى، وأمه لا تكف عن البكاء، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا﴾، من أي شيء من ملذات الحياة.. عافت الطعام كطفلها، وقتلها الشوق لصغيرها، فالتفت إلى أخته بعينين كالجمر، وطلبت منها الخروج ﴿وَقَالَتِ لَأُخْتِيهِ قُصِيهِ﴾، وتحسسي أي خبر عنه. خرجت الفتاة على الفور، وما هي إلا سويعات، وإذ بها تتوقف أمام زحام مثير في أحد الأسواق.. حاشية ملكية تحيط بأمر رضيع يبكي، ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

حدقت به، فإذا هو شقيقها موسى.. دنت، فاختلطت بها السعادة بالحزن بالخوف.. سألتهم: ما شأنه؟ فأخبروها أن القصر يبحث له عن مرضعة، فقد عاف المراضع، وهو يبكي من الجوع. ذهلت الفتاة من رحمة الله بأخيها الرضيع! وحمدته سبحانه.

أم موسى مبعلة في قصر عدوها

ذهلت أخت موسى من رحمة الله وكرامته لأمها! وهي تشاهد أخاها الرضيع موسى محاطًا بالحاشية، يبحثون له عن مرضعة، فاقتربت منهم، وقالت: ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾، ومباشرة وافق الخدم، فطلبت منهم أن يتبعوها.

مشى خدام الطاغية وجنده، خلف الفتاة الإسرائيلية عبر طرقات الحي.. لم يسيروا دورية للقتل، بل مشوا حاشية للإنقاذ.. يحملون الرضيع بحثًا عن يسعده برضعة مريئة، بعد أن كانوا بالأمس يسلكون الطرقات نفسها بحثًا عنه ليذبحوه.. ساروا عبر التواءات ومنعطفات، أمام اتساع أعين بني إسرائيل، والتفاتاتهم ودهشتهم، ثم توقفوا أمام الباب، فإذ بالأم الحزينة، وبجوارها هارون الصغير تتحرق لخبر.. أي خبر، يطمئن قلبها: أن رضيعها ما زال حيًا.

فُتح الباب، فإذ بالفتاة تنسم بوجه أمها، وهي تغالب مشاعرها، كي لا تنفصح.. تكتم صرخات الفرح وقفزاته وعناقه، وإذ بخدم الطاغية، الذين روعوا أمه بالأمس، حتى ألقت في النهر، يتقدمون نحوها بلطف، فتمد إحدى الوصيفات يديها، لتقدم موسى هدية ملفوفة بالحرير.. تحرسه القوة، التي كانت تريد حز رأسه بالأمس.

فاضت عينا أم موسى، حمدًا لله، وبكى قلبها، وضمت طفلها، فألقت صدرها، فإذ بالصغير يقبل على نبع الحياة بشغف.. رضع الطفل حتى ارتوى، ثم بدأ يناغي أمه، التي تغالب الدموع حتى لا ينفصح سرها.. تضمه وتشمه.. كان الخدم والجنود ينظرون إلى بعضهم، وهم في غاية السعادة.. ينتظرون العودة، ليسشروا الملكة الطيبة.. طلبوا من أم موسى مرافقتهم لمقابلتها، فوافقت، وكيف لا توافق وهي ستكون برفقة حبيب القلب. نهضت مباشرة وهي تحمل قرة عينها.. مشيت بين الوصيفات والخدم نحو القصر.



دهش الإسرائيليون من هذا الموكب المهيّب، وهم الذين تعودوا على مداهمات دوريات الشرطة الوثنية الفرعونية، ودمعت عينا عمران، وهو يرى ابنه محمولاً محفوقاً بالحاشية، والحرس يفرقون الناس، كي يفسحوا الطرقات، ليمر موكب سموه، ورؤوس الفضوليين تتطاول.. تحاول التعرف على هوية هذا الأمير المبجل.. ظل موسى محمولاً وسط مهمات الإعجاب، حتى أقبلوا على القصر، الذي تجري من تحته الأنهار، فتهدت أمه عبر بوابته.. كانت سيدة القصر في استقبالها.. مدت يديها وأخذته منها بشوق، واحتضنته، وهي تكاد تطير من الفرح، حين رآته قد ارتوى، وكف عن البكاء. تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث الودية.



موسى بين شعبين وديانتين

في قصر فرعون المجرم، تبادلت أطيب امرأتين على تلك الأرض الابتسامات والأحاديث العذبة.. أحاديث تمحورت حول هذا الدلال النائم في حجر آسية.. يتقلب بين أرحم أمين.. انثالت الهدايا والعطايا والحلي على أم موسى، وردّه الله ﴿إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ كَي تَقْرَعَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿١٠﴾، وجرى الحديث مع سيدة القصر العظيمة حول طريقة إرضاعه: هل ستتقل أم موسى للسكن في القصر، أم سيتقل موسى إلى حي بني إسرائيل، أم سيتردّبه الحرس عليها لترضعه.

هكذا حُذف الذبيح موسى بن عمران من قوائم المطلوبين، الذين ستكون السكاكين والخناجر في موعد مع رقابهم الصغيرة حال ولادتهم، ومذ دخل الذبيح القصر حلت البركة على حي الإسرائيليين المحاصرين بالجنود الوثنيين.. بدأ الاضطهاد يخف تكريماً لأم موسى الطيبة.. أصبح بيت عمران مرحباً به

في القصر، أما موسى فبدأ يكبر في الدلال، وكلما كبر.. كبر حبه في قلب
آسية الكريمة.

كان فرعون لا يكرهه، بل يحبه، فقد ألقى الله عليه المحبة، لكن ليس
لدى فرعون وقت له.. هو مشغول بعرشه.. يتوجس خوفاً من كل حركة، وإذا
به يرتكب حماقة، جعلت عرشه مهدداً.. كان يخاطب شعبه القبطي الوثني
بفوقية.. يقول لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وهم بالمقابل يرضون بهذه الخرافة،
وكيف لا يعبدونه، وهم الذين عبدوا آلهة من نسج خيالهم.. إله للشمس وإله
للليل، وإله برأس تمساح، وخرافات وأساطير، لم تجد أذانا لدى الكثير من
الإسرائيليين أحفاد الأنبياء، مما زاد من حقد فرعون عليهم، لولا زوجته آسية
التي خفت من هذا الاحتقان والمعاناة.

مرت السنوات، وكبر موسى تحيطه رعاية الله ومعيته.. يصنعه على عينه،
ويصطنعه لنفسه سبحانه.. كان يتردد بين أميه الحبيبتين، ولما كبر أخبرته أمه
بالسر الذي لا يعلمه إلا هي ووالده وأخته.. أخبرته أنه من أحفاد إسرائيل
(يعقوب) بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام، وأنه من سلالة أنبياء، رسالتهم
التوحيد والعدل، فنشأ على التوحيد النقي، رغم الوثنية الجارفة، التي تعصف
بالقصر ومصر، ولما تجاوز الثامنة عشر، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآمَنَ تَوَّيَّ﴾، آتاه الله حكماً
وعلمًا، ووهبه قوة جسدية فريدة.. كان جسده في القصر، لكن مشاعره
ووجدانه مع معاناة شعبه الإسرائيلي.. معاناة شعورية، عاشها رغم الترف..
حتى جاء ذلك اليوم، الذي غادر فيها القصر والحي معاً.



موسى من أمير إلى مطلوب

كان الشاب موسى يرى تهميش الإسرائيليين الموحدين واضطهادهم.. يتألم
من العنصرية الفرعونية الوثنية تجاههم، ومع ذلك ظل وفياً للقصر، حتى جاء

ذلك اليوم الذي قلب حياته رأساً على عقب، فقد دخل المدينة ساعة الظهيرة، وبينما هو في أحد الطرقات، إذ به يسمع نداء استغاثة من بعيد.. ركض نحو المستغيث، فإذا هو إسرائيلي يستغيث من قبضي وثني، فهب لنجده.

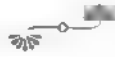
وفي لحظة من لحظات الشعور بالاضطهاد.. وجه موسى لكزة قوية لصدر الوثني، فإذا به يرتطم بالأرض دون حراك.. صعق موسى فانحنى على القبضي يتحسس نفسه، فإذا هو قد انقطع وفارق الحياة.. امتلكه شعور بالخوف من الله لا يوصف.. شعر بخطئه حين انفعل تعاطفاً مع شعبه، فالوثنيون كانوا يذبحون إخوته الرضع.. يفصلون رؤوسهم الصغيرة عن أجسادهم دون مبرر، ومع ذلك لم يبرر لنفسه، ولم يجد لها عذراً في إزهاق نفس بريئة، حتى وإن كان خصماً لقومه.

قتله الندم، واعترف لربه بذنبه، وهو يتأمل الرجل الممدد أمامه، فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾، اسودت الدنيا في وجه موسى، وتلفت ليتأكد أن أحداً لم يره، ثم انطلق هارباً وسط نظرات ودهشة الإسرائيليين.. ندم موسى، وتوجه بقلبه ولسانه ومشاعره إلى من أنقذه من سكاكين الجزارين الفراعنة، وهو في مهده، وجعله أميراً، وأسكنه القصور طالباً منه سبحانه الغفران، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾.

ظل موسى يدعو ويستغفر، حتى ألقي في روعه: أنه قد عُفِرَ له، فاجتاحته السعادة، وعاهد ربه الذي منحه هذه القوة، ألا يستخدمها في خدمة مجرم، أو نصرة متسلط، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾، ومع ذلك ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾، يخرج متكرراً، ويدخل متخفياً، لكن يبدو أن الأمر بدأ ينكشف.. ربما من ثروة ذلك الإسرائيلي، حتى علم أهل القتل، وذات يوم كان موسى يسير في أحد الطرقات متخفياً، يتلفت يتحاشى العيون، وإذا بشخص يتمكن من معرفته.. ناداه باسمه، واستنجد بقوته الخارقة.. توجه

موسى نحو مصدر الصوت، ثم دنا منه فإذا هو الإسرائيلي المشؤوم نفسه، يستقوي به على قبطي آخر، ويهدده بمصير صاحبه الميت، فغضب موسى من هذا الإسرائيلي الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته.

وفجأة حدث شيء جعل موسى يهرب من المدينة كلها.



موسى يهرب من مصر

اشتد غضب موسى ﷺ على ذلك الإسرائيلي المزعج، الذي لا يكف عن الشجار مع الناس، وتوريط الآخرين في مشكلاته. فزجره وقال له: (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) تريد توريطي وإغوائي، كي أرتكب جريمة أخرى، ثم توجه نحو القبطي الوثني فقط ليردعه عن اضطهاد الإسرائيليين، وإذا بالقبطي يرتعد، ويوقن بالهلاك بعد أن عرف موسى، فصرخ في وجهه، قائلاً: ﴿يَمْوَسَىٰ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِأَلَمْسِ إِن تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

موسى يهرب من مصر

أفاق موسى.. اكتشف أن سره قد انكشف، وأن الإسرائيلي قد فضحه.. أيقظته كلمات القبطي الخائفة، وكان ﷺ أواباً رجاعاً للحق، فراجع فوراً عما هم به.. تذكر توبته ووعدده لله، وفي أثناء هذا اللجاج، التفت الثلاثة على وقع أقدام مقبلة من بعيد.. رجل يركض نحوهم بأقصى سرعته.. يقبل نحو موسى، وما إن توقف حتى بدأ بالتقاط كلماته من بين أنفاسه المتقطعة.. قال: وصدره يعلو وينخفض: ﴿يَمْوَسَىٰ إِنَّكَ أَلَمَلَا يَا تَمْرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، فقد انكشف الأمر، وأهل القتل يمشطون المدينة بحثاً عنك.

انطلق موسى على الفور وولى هارباً.. قرر أن يغادر مصر، دون أن يودع
 آسية الحبيبة أو يستأذنها، أو يمر على أمه وأبيه.. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
 نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ظل هائماً على وجهه باتجاه الشمال أياماً وليالي..
 لا يملك ما لا كافيًا، ولا دابة تحمله، حتى أصبح على مشارف بلاد يقال لها
 مدين ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، دعا بتلك
 الدعوات، وواصل سيره، حتى دخل مدين، وإذ به بعد مسافة يرى حشدًا من
 الناس.

اقترب فإذا هم جمع من الرعاة، يستقون الماء لهم ولغنهم ودوابهم..
 جال طرفه في المشهد، فوق على شيء أحزنه، واستثار نخوته ورجولته،
 وكان من أشد الناس على الظلم، وأكثرهم نجدة ورحمة بالضعفاء ﴿وَلَمَّا وَرَدَ
 مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾،
 ألمه مشهد الفتاتين، وهما واقفتان في حالة انكسار وانتظار بين رعاة أجلاف..
 لا يراعون حقًا لضعيف، ولا ذوقًا في التعامل مع النساء. لم يطق موسى صبراً..
 مشى خطوات نحو الفتاتين، واقترب منهما، وسألهما عن سبب انتظارهما،
 و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

انغرزت كلمة شيخ في قلبه.. حذب على شيخوخة الأب، وضعف البنات
 اللواتي لا يستطعن الاقتراب من البئر، حتى يغادر الرعاة، ولن تتاح لهما البئر
 إلا بعد انصراف الجميع حتى لو قدمتا مبكرتين، فقرر اقتحام البئر.



الغربة والحزن تحت الظل

شعر موسى بالشفقة على شيخوخة الأب، وضعف البنات اللواتي
 لا يستطعن الاقتراب من البئر حتى يغادر الرعاة، فطلب منهما أن تعطياه

دلويهما. مدت الفتاتان الدلاء، فأخذهما ﷺ ثم توجه نحو البئر، وإذا بأكتاف الرعاة مصطكة حول ركية، الأولوية فيها للأقوى لا للنظام، وإذا بكتفين كالحديد تفلان تلك الحلقة من الأكتاف الغليظة، وسط ذهول الرعاة وخوفهم.

رمى موسى الدلاء، ثم انتشلها من أعماق البئر، وهي تلمع وتفيض، ثم ترك البئر والرعاة خلف ظهره، وتوجه نحو الفتاتين، وقدم لهما الدلاء، وسط فرحتهما بالعودة للمنزل مبكرتين، وإعجابهما وسرورهما بهذا الفتى العطوف، الذي لم يطلب أجراً أو شكراً.. كل الذي أراده هو أن ينصف ضعيفتين، قد تأتيا ضمن أول من يرد على البئر، فلا تحصلان على حقهما إلا مع آخر من يبقى، ثم عاد موسى ليستريح تحت ظل شجرة، أو جدار. من عناء السفر، فهو قد وصل للتو، ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ثم غط في نومة مسافر، أعبه الخوف والطريق والندم والغربة.

غادرت الفتاتان، وهما تشعران بالشفقة على هذا الشهم الغريب.. تتحدثان عن طبيته، التي خلصتهما من هم الانتظار، وكأنهما تقارنانه برعاة مدين القساة.. تهادتا بقربهما اللامعة على أبيهما في وقت أبكر من المعتاد، فنظر إليهما متعجباً، فأخبرته أن شاباً شهماً أشفق عليهما، حين رآهما بلا حول ولا قوة، فقام بالسقاية لهما، ثم ﴿تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أشفق الشيخ على هذا الغريب، بعد أن سمع دعاءه.. دعاء يوحى بأن بين أضلاعه معاناة مريرة، وقد آن الأوان لإزاحتها. طلب الشيخ من إحدى ابنتيه أن ترجع إليه، وأن تقول له: إن أبي يدعوك ليكافئك على عملك النبيل.

انطلقت الفتاة على الفور نحو البئر، وما إن رآته تحت الظل، حتى غشيها حياء العذارى، فتهادت نحوه بأدب، ولما وقفت أمامه، قالت له بصوت خجول: ﴿إِنِّي أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

ملأت تلك الكلمات قلب موسى بالسرور، فرفع رأسه ونهض على الفور معها، ومشيا حتى أقبلًا على الشيخ المهيب، فحياه موسى، ورحب به الشيخ، وتأمل شحوبه، وشعث رأسه، وضمّر خصره من طول السفر.. دعاة للجلوس، فجلس، وقدمت الفتاتان الطعام للضيف، الذي أنهكه الجوع والتعب، وإذ بالشيخ يقدم له عقد عمل طويل الأجل.



موسى وأشق مهر يدفع لفتاة

جلس موسى صلى الله عليه وسلم مع الشيخ المؤمن الموحد.. عرفه بنفسه، وأنه أحد أحفاد إسرائيل عليه السلام، وقص عليه قصة معاناته وهروبه وسفره، وأنه ملاحق من قبل الأقباط الوثنيين.

كان الشيخ ينصت باهتمام، لذا طمأنه وكله ثقة بالواحد الآخر، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ويبدو أن قلب إحدى الفتاتين خفق رحمة بأبيها وإعجابًا بموسى، فدنت من والدها، واقترحت عليه أن يوظفه عنده، فهم بلا أخ يعينهم، ويعتمدون عليه بعد الله، كما أنها وأختها تعانيان من مشقة التعامل مع الرعاة الأجلاف. قالت الفتاة: ﴿يَتَأَبَّى اسْتَفْجِرُكَ إِنِّي خَيْرٌ مِّنْ اسْتَفْجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾.

فكر الشيخ برأي ابنته الحكيم، ورؤيتها الثاقبة لأهم صفات الموظف، بل هما أهم صفات القيادي والمسؤول. فالأمانة بلا قوة تجعل المسؤول سهل المنال والاستغفال، والقوة بلا أمانة تجعل المسؤول متهورًا عنيفًا، سهل استفرازه.

اقتنع الشيخ بوجهة نظر ابنته، لكن طموحه أرفع من طموحها.. لم يكن يريد أي أجير.. كان يريد أجيرًا بمواصفات ابن، وقبل أن يغادر موسى.. نظر

الشيخ له نظرة محب، وعرض عليه أمراً بالغ الصعوبة، على أي شاب طموح في مثل سنه، يتقد حيوية ونشاطاً.. عرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، مقابل أن يعمل عنده لمدة ثمان سنوات على الأقل، وقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبَبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم تكن تلك الفتاة باقتراحها ذاك بصدد الحديث عن الزواج، ولم يكن لدى موسى من المال والجاه ما يجعله هدفاً لقلوب الفتيات البسيطات.. سوى الرجولة والوسامة.. كان شاباً طويلاً، شديد الجسم، لونه لا يميل للبياض، وشعره دهين، لكنه ليس ناعماً ولا مجعداً.. من يراه يظنه من قبيلة من قبائل اليمن، يقال لها (أزد شنوءة)^(١).

وافق موسى على العقد، وقال للشيخ: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، مرت الأيام فذهب الشحوب والشعث عن موسى، وتم اختيار الزوجة، بناء على موافقتها، فزفت إليه في احتفال متواضع، لم يحضره أحد من أهله.. تمنى لو زفته أمه الحبيبة، أو آسية الطيبة، تمنى لو احتفل بزفافه في حيه الإسرائيلي.. تمنى، وتمنى، لكن ما حدث له بعد الزواج كان فوق أمنيته.



اخلع نعليك

تزوج موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحول إلى أجير، يعمل مقابل طعامه وشرابه.. تحولات مريرة مر بها موسى كتحولات يوسف.. كان مقدوفاً في النهر، ثم

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٩)، حيث قال النبي محمد ﷺ: «رايت موسى ليلة أسري بي موسى رجلاً آدم طويلاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة».

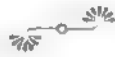
أميرًا، ثم شريداً، وأخيراً أصبح أجيراً في امتحان جديد، وتمحيص وتهيئة له، ليكون أهلاً لمسؤوليات عظمى تنتظره. ظل يكد على أرض مدين... يرى الغنم، ويجلب الماء من الآبار، ثم رزق بذرية، ولما مرت عشر سنوات على إقامته في مدين كان قد تجاوز الثلاثين.

هنا انتهت مدة العقد الذي أبرمه مع صهره، فتحرك قلبه نحو والديه وأهله، ولما حل الشتاء، حان موعد الوداع، بكّت القلوب وفاضت العيون، ثم انطلق موسى وزوجته وأولاده جنوباً عبر سيناء.. سار وسار، وفي ليلة من الليالي الباردة، لمح ﷺ وهو في الطريق وميضاً من بعيد.. قرب جبل، يقال له الطور.. حذق فرأى ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ توقفت والتفت لزوجته وأولاده، وطلب منهم البقاء ريثما يعود، وقال لهم: ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، ﴿رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾.

بقيت الأسرة الصغيرة في الظلام، يحدقون بحبيهم، الذي بدأ يختفي عن أنظارهم شيئاً فشيئاً، ليتوغل في عالم الأنوار، الذي أذهله عن أسرته وعن كل شيء.. سلك موسى شاطئ الوادي الأيمن.. يتوكأ على عصاه رغم شبابه، حتى دنا من النار.. تأملها فإذا هي ليست كتلك التي طالما أوقدها.. نار لم يوقدها بشر، ولم تورث رماداً.. وفجأة غمرته مشاعر روحانية لم يعهدها، حين ﴿تَوَدَّى مِنْ شِطْطِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾، نداء أخذ بنياط قلبه.. يقول له: ﴿يَمْوَسَّى﴾.

أنصت موسى وهو يسبح في النور، وإذ بيدنه يقشعر هيبة، حين قال له النداء: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى﴾، ذاب قلبه.. خشعت جوارحه، وشعر أنه في عالم غير العالم.

انحنى عَلَيْهِ السَّلَامُ فخلع نعليه، ثم اعتدل، وبقي مأخوذاً أمام الجلال، الذي سلب مشاعره، وغيبه عن نفسه وأهله.. عن كل شيء حوله.. تماهى بأجمل لحظات حياته.. لحظات أغلا عنده من الدنيا وما فيها ومن فيها. لا يريد لها أن تنقطع أو تتوقف. لحظات تحترق قلوب المؤمنين شوقاً لمثلها، حين يناديهم الرحمن في الجنة، ويكلمهم في النعيم: فمن أسعد من موسى حينها، ومن أقرب منه ساعتها، والرب جل جلاله يناديه مرة أخرى، ويقول له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾، خشعت جوارحه، وأطرق ينصت بقلبه للأوامر الصادرة من العلي الأعلى.



عد يا موسى

أنصت قلب موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذنه وقلبه وكله للعلي الأعلى سبحانه، وهو يصطفيه ويختاره، يقول له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى.

ابتداء من هذه اللحظة تحول موسى إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذ بالجبار سبحانه وتعالى يسأله سؤالاً هو أعلم بجوابه، فيقول: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾؟ سؤال نقل موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عالم الدهشة والذهول، إلى الواقع الذي يجب إصلاحه بالنبوة. قال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْبُطْ بِهَا عَلَىٰ غُنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾، فقال سبحانه: ﴿الْقَهَا يَا مُوسَىٰ﴾.

رمى موسى عصاه مباشرة، فلم تتدحرج، ولم تحدث صوتاً.. انقلب حية ضخمة، تتلوى بسرعة، وكأنها في سرعة اهتزازها نوع من الحيات، يسمى (جان). لم ينتظر موسى.. أطلق ساقيه هارباً نحو زوجته وأطفاله، لما ﴿رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، وفجأة سمع نداء ربه: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسَلُونَ﴾.

طار الخوف من قلبه وتوقف، فقال له الجبار: ﴿يَمْوَسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾، فامثل وعاد إلى عالم النور بسكينة، حتى صار أمام الحية، التي لا تزال تهتز، وكأنها تنتظره.. توقف وصدق بها، فقال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾، انحنى موسى على الحية ثقة بربه، ومد يده، وما إن لامست أصابعه طرفها، حتى عادت عصا في كفه، فأخذها والمعجزات تعرج بروحه، وتزيد إيمانه، فقال المولى له: ﴿أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾، ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ أُخْرَىٰ ۖ لِرَبِّكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾، أدخل موسى يده في جيبه، وضمها إلى جنبه، ثم أخرج كفه، فإذا بها بيضاء كالنور. معجزات وأنوار، أذهلت كلهم الله.. تبعتها معجزة ستطمئن فؤاده، كلما اجتاحه رعب في المستقبل.. لا سيما وهو في مهمة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون).. حين قال له الله: ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بَرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ؕ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، إذا فهو في مهمة بالغة الخطورة إلى أكبر طاغوت في عصره (فرعون)، حيث قال سبحانه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

هنا تغير خط الرحلة، فلن يكون الهدف هو الحي الإسرائيلي، ولن تكون سفرته زيارة سرية لبيت أمه الحبيبة، كي ترى أحفادها، وقبل أن ينطلق موسى ارتبك.. تذكر شيئاً نغص عليه حياته، وتسبب في غربته.



افتحوا الباب لحبيب القلب

تأهب موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتنفيذ أمر ربه، لكنه تذكر شيئاً نغص عليه حياته، وتسبب في غربته، فقال لربه عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾، ثم تذكر شيئاً آخر.. تذكر الصعوبة التي يجدها أحياناً في النطق، فناشد ربه

قائلًا: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

واصل موسى أَدْعِيَتَهُ وتوسلاته: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونُ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرًى (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَمِّعَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، وَقَالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾.

ارتفعت معنويات موسى، ثم عاد من جبل الطور نحو أسرته الصغيرة، الغارقة في ظلام الليل.. سمعوا خشف نعليه وسط الظلام.. لم يروا معه شعلة، أو جذوة من النار، لكنه عاد بأنوار النبوة في قلبه وروحه وعقله، أما يده فمعجزة تحمل معجزة.. أقبل موسى بغير القلب الذي ذهب به.. ذهب رجلاً موحدًا من أولياء الله، وعاد لزوجته نبيًا من أولي العزم من الرسل.. جلس بين يديها والسكينة تغشاه.. تأملته، وكأنها تتأمل شخصًا آخر.. ترى ما الذي جرى له؟ ما الأمر الذي غيره حول النار؟

لاحظ تساؤلاتها القلقة، فأخبرها بما جرى بين النار والنور، فاقشعر بدنهما، وارتجف قلبها، ورفت روحها لعظمة ما سمعته.. تحولت من زوجة الأجير الإسرائيلي القوي الأمين، إلى زوجة كلیم الله ونبیه ﷺ.. نهضت الأسرة الصغيرة، واستأنفت رحلتها عبر الأودية والشعاب وبين الجبال، حتى أقبلت على مصر.. سلك كلیم الله طرقًا وممرات ملونة بالذكريات، تؤدي إلى بيت عمران في الحي الإسرائيلي.. وقف أمام بيت أمه القديم فاستأذن، فصرى صوته الحبيب، فاطرب قلب أمه، فتلاشت عنها غيمة الحزن، التي كدرته عشرة أعوام من الوجد والفراق.

افتحوا الباب لقرة العين.. فاضت العيون للقاء حبيب القلب، الذي لا يكف عن إيكاء قلبها، منذ أن غفا في التابوت.. لمعت عينا الزوجة، وهي ترى الحفاوة والحب والعناق حولها.. قدمت لعائلتها الجديدة أحفادهم، الذين لم يتجاوزوا العاشرة.. جلس موسى وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، ثم أخذ شقيقه هارون، وتوجها نحو القصر.



موسى والذكريات

جلس موسى ﷺ وأسرته بين والديه، وكأنه يعوضهما عن سنوات الغربة، أخبرهما بنبوته ومسؤولياته، والتقى بأخيه وصديق طفولته هارون الفصيح الحبيب.. فتعانق النبيان الأخوان، وتفاهما حول التوجه للفراغة والأقباط الوثنيين، لانتشالهم من وحل الوثنية، وعبادة البشر، والظلم. إلى عبادة رب البشر وخالقهم، ومالك الملك، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقبل أن ينطلقا ليقولا لفرعون: أنت مجرد بشر، تأكل وتشرب، وتنام وتذهب لدورات المياه مثلهم، وتمرض مثلهم، وستموت يوماً مثلهم.. نزل الوحي يطالبهما باللطف واللين مع طاغية، ينحر المواليد، ويقول لشعبه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَلْعَلَّ﴾.

قال سبحانه لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٢) فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ. تساءل النبيان عن جدوى اللين مع طاغية، بلغت قسوته حدًا لا يطاق، فقالا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِغُرُبَاتٍ مِّنَ الْأَرْضِ وَنَحْنُ بِذُنُوبٍ غَافِقِينَ﴾، فقد تحجر قلب هذا الطاغية الوثني، حتى صار يتلذذ بحز رؤوس المواليد وقطعها، ومع ذلك نزل الوحي ينيرهما: أن للملوك خطاباً ليس لغيرهم.. خطاب يفترض أن يحفظ لهم مكانتهم ومركزهم وألقابهم وهيتهم.. خطاب يقوي دولتهم بالعدل والتوحيد، مع جرعة وعي، تذكرهم بكرم الله ونعمته، الذي فضلهم على غيرهم، ومكنهم

من رقاب عباده.. خطاب يذكرهم بقدرة الله عليهم، وأن أنفاسهم وعقولهم وحواسهم وأرواحهم بيده سبحانه.

انتشر خبر وصول موسى ونبوته في الحي الإسرائيلي، فبدأ الإسرائيليون الاحتفالات، وتبادل التهاني فرحًا بظهور النبي المنتظر، الذي سينقذهم الله به من بطش فرعون، فقد أصبح ظلمه لا يطاق، وما من فرج سوى فرج الله.. تداعوا نحو بيت عمران، عليهم يحظون بلقاء موسى، ورؤيته بعد غيبته الطويلة، بينما كان موسى بصحبة أخيه يغادران الحي.. مشيا بين جدران، طالما رددت نواح الأمهات، وصرخات الرضع، وتلونت بدمائهم، لا لشيء سوى أن أهلهم يقولون: لا إله إلا الله. وحده لا شريك له، فالتوحيد يثير جنون فرعون، وحاشيته القبطية الوثنية.

تجاوز النبيان الحي الحزين، وبعد مسافة أقبل على القصر الفرعوني الباذخ؛ لتشرق على موسى ذكريات حميمة.. هنا كان يلهو ويلعب تحت ناظري آسية الحبيبة ودلالها.. ترى أين هي الآن.. هل اشتاقت إليه، كما اشتاق لها؟ هل سيتغير قلبها إن سمعت خطابه اليوم؟



من ربكما يا موسى؟

تساءل شوق موسى ﷺ: ترى أين آسية الحبيبة.. هل اشتاقت إليه كما اشتاق لها؟ هل سيتغير قلبها إن سمعت خطابه اليوم، أم أن حبه سيزداد في قلبها الحنون؟ واصل الأخوان سيرهما، حتى أوقفهما الجنود، الذين تحيروا ما يقولون، بعد أن عرفهم موسى بنفسه: هل سيدخلونه بصفته فتى القصر المدلل، أم سيقبضون عليه، لأنه المطلوب الأول للأقباط الوثنيين.. تحيروا.. ماذا يقولون لفرعون. توجه الحرس لرئيسه، وأخبره بالغائب الذي عاد. فأسرع نحو فرعون الذي أمر بإدخاله.

دخل موسى وهارون، وأقبلا على فرعون، الذي رُمقهما بنظرات حادة، تحمل مشاعر متناقضة.. عتاب أم شوق أم غضب. وقفا محاطين بحرس شرس، ليبدأ موسى وهارون بكلمات لينة، عل فرعون يفتح عقله لحوار متعقل، ثم قالاً: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

نظر فرعون إلى موسى بفوقية ومنة، قائلاً: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِمَّنْ غَمْرًا كَسِينَ﴾ (١٨) ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الْتَىٰ فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

لم يجحد موسى سكنه في القصر، وعناية زوجته به في طفولته، لكن فرعون نسي أنه هو السبب، وأن موسى ألقى في النهر خوفاً من مجازره المرعبة، أما تربيته في قصره، فمعجزة تدل على قدرة الله على جعله يعتني بالطفل، الذي أمر جنده بالبحث عنه وذبحه.

لم ينكر موسى أيضاً ما ارتكبه بحق القبطي.. اعترف بخطئه مباشرة، فالمكابرة ليست من صفات الأنبياء ولا الأولياء.. هي من صفات فرعون وأمثاله.. اعترف موسى، وقال: أجل ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠) ﴿فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

انتفض فرعون غضباً، وانتفخ غروراً: ما هذه الكلمة التي ترددها: ربي؟ هل لك رب غيري؟ صاح في وجه موسى قائلاً: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟! فقال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، فقال الطاغية: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾، فقال بكل ثقة: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم تلى لطف موسى به وتحنن إليه تحنن الولد لوالده، وقال: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزُكِّي﴾ (١٨) ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، تلفت فرعون والغرور يملأ جمجمته الفارغة.. نظر لحاشيته فقال: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ ودون أن تنطق الحاشية بأي كلمة، فتحوا أفواههم، واتسعت أعينهم من شدة الخوف.

لغة العقل والدليل

خاطب موسى ﷺ حاشية فرعون، وهو يدعوهم إلى عبادة الله، خالق السماوات والأرض، وخالفهم، وقال: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، سكنت الحاشية، فصاح بهم فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، تحولت الحاشية إلى تلاميذ، بين نبي يحاور ويحرر العقل، وطاغية يملئ، فواصل موسى ﷺ تفعيل عقولهم، وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

خاف فرعون من حجج موسى الدامغة، فقابلها بالصياح والتهديد، قائلاً: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، طلب موسى من فرعون التخلي عن لغة الصراخ والهياط، قائلاً: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أخرج فرعون أمام أتباعه.. حاصره العقل، فاضطر أن يقول: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، هنا سكت موسى.. لم ينطق بحرف.. كانت العيون شاخصة نحوه.. منهم من ظن أنه سيخرج ليأتي بالدليل، ومنهم من ظن أنه سيواصل مرافقته المفحمة.. أما موسى فكل الذي فعله هو أنه: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾.

دب الرعب في القصر، وأصيب فرعون بالهلع من ضخامتها، أما الحاشية، فتغيرت طريقة جلوسهم، وكأنهم يتأهبون للفرار، وترك فرعون لمصيره. في أثناء ذلك اللفظ أدخل موسى يده في جيبه، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾، رفعها فإذا هي كالبدر.. شخصت أبصار الوثنيين، وتحيرت عقولهم، وقلوبهم وأبصارهم تتقلب بين النور والحية.

لم تهاجم الحية أحداً، فظن فرعون أن موسى يستخدم نوعاً من السحر، فالتفت نحو مستشاريه، و﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٢١) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحري، فماداً مروت، كانت مصر آنذاك تعج بالسحرة.. كانوا جزءاً من الثقافة الفرعونية والقبطية الوثنية، وبعد تشاور بين الحاشية، اقتربوا من فرعون، واقترحوا أن يؤجل الرد على موسى، حتى يتمكن من إحضار

«برع السحرة، قائلين: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ﴾ (٣٦) يَا تُولَكِ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ»، وافق فرعون، وعاد المستشارون إلى مقاعدهم، وعاد فرعون للتهديد، قائلاً لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ، نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ.

وافق موسى، بل طلب أن يكون يوم التحدي يوم العيد؛ ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج النبيان نحو الحي الإسرائيلي الذي كان يتحرق شوقاً لمعرفة ما جرى بينه وبين فرعون.



التوحيد يعود للحي الإسرائيلي

طلب موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون موعد التحدي مع السحرة الوثنيين صباح يوم العيد، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾، ليتمكن أكبر عدد من الشعب من الحضور. ثم خرج هو وهارون نحو بني إسرائيل، الذين كانوا يتحرقون شوقاً لمعرفة ما جرى بينهم وبين فرعون، ونزل أمر الله بجعل بعض البيوت الإسرائيلية مساجد، حيث نزل الوحي ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

بدأ النبيان بتنفيذ الأمر، لكنهما صدما بهول التغير، الذي طرأ على توحيد الإسرائيليين بفعل القمع الوثني، ﴿فَمَا أَصْنَىٰ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ، عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾، فقد أصبح التوحيد في عهد فرعون تهمة، مما جعل الكثير من بني إسرائيل يتلوث بالبدع، لذا كانت مهمة موسى شاقة في اقتلاع تلك الخرافات من النفوس، التي غرستها الثقافة الفرعونية الوثنية بالقوة.

أما خارج الحي، فصدر الأمر الفرعوني بدعوة أعظم وأشهر السحرة في البلاد، فركب الجند والرسل خيلهم وجمالهم، وانطلقوا مسرعين نحو القرى والمدن وحتى البوادي.. يمشطون مصر بحثًا عن أي ساحر أو ساحرة، حتى تمكنوا من جمع أكبر قدر من الدجالين، الذين طارت قلوبهم فرحًا بتلبية دعوة فرعون.. تواصلوا مع شياطينهم، وأحضروا رقاهم ورقعهم، وركبوا دوابهم، وتداعوا نحو مصر، ولما وصلوا تمت استضافتهم في أماكن، أعدّها الفراعنة لهم، وتم إخبارهم أن سحر موسى يتلخص في أمرين: أنه يحمل عصا تنقلب إلى حية، ويجعل يده بيضاء كالقمر.

هون السحرة من الأمر، فهي خدع قديمة بالنسبة لهم، لذا كانوا متحمسين للمشاركة طمعًا في جوائز الفرعون، وخوفًا من بطشه. تم الإعلان في الأسواق والطرق والميادين: أن يوم العيد هذا العام سيكون مختلفًا، فستجري فيه مباراة للتحدي بين السحرة وموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مرت الأيام واقترب يوم العيد، فازدادت الإشاعات والإثارة في البلاد، بينما كان موسى وهارون منخرطين في إزالة ما علق بتوحيد قبائلهم الإسرائيلية، ثم جاء يوم العيد، فبدأ المنظّمون إعداد الساحة مبكرًا، وفي ساعة الضحى حضر الفرعون وحاشيته والسحرة، واكتظ المكان بالمتفرجين.. هنا نظر السحرة لفرعون، فاشتروا شرطًا قبل بدء التحدي.



السحرة يشترطون

انتهى المنظّمون من تهيئة المكان: هنا سيجلس فرعون، وهنا كبار الشخصيات، وعلى رأسهم وزير اسمه (هامان)، الذي يبدو أنه المسؤول الأول عن البناء. هنا سيصطف السحرة، وهنا مكان موسى، والباقي للمتفرجين.. تم

نشر الحرس في الصباح، وتوزيعهم لضبط الأمن، وبدأ الفضوليون الحضور مبكرًا، ليضمنوا مواقع مميزة للمشاهدة.

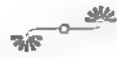
اقتربت ساعة الضحى، فحضر كبار الشخصيات، وتداعت آلاف الخطوات، وحضر أناس من بني إسرائيل لمؤازرة موسى ولو معنويًا. بدأ الهمس يرتفع.. والحماس يرتفع، وتعالى ضجيج الوثنيين كالعادة. أقبل السحرة بملابسهم الغريبة، وحبالهم وعصيتهم، وهمهماتهم الأغرب، فتعالى التشجيع لرفع معنوياتهم، وتهادى موسى وهارون، فانطلقت صيحات الاستهجان الوثنية، وانطلقت دعوات الإسرائيليين الموحدين بينهم وبين أنفسهم: أن ينصر الله رسله. وأخيرًا أقبل موكب الطاغية، نحو مكان الاحتفال.

أقبل فرعون بملابسه الفاخرة وحليته الذهبية، فارتفعت هتافات التمجيد والتطيل والتأليه، ثم توجه نحو عرشه؛ ليجلس منتفخًا كطاووس، فسجد السحرة له بذل، ثم رفعوا رؤوسهم، وطلبوا منه الإذن بالكلام، قبل بدء العرض، فسمح لهم، فقدموا شرطًا على شكل التماس، وهو أن يمنحهم الهبات إن انتصروا، قائلين: ﴿إِنَّا لَنَآجِرُونَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، فأحب الطاغية أن يشحذ هممهم، ويرفع معنوياتهم بالمال، وأكثر من المال، فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، ستكونون من الحاشية ورجالات البلاط.. المهم أن تهزموا موسى، وتثبتوا أنه مجرد ساحر مشعوذ.

تحمس السحرة، ولاحت المناصب والشراء في مخيلتهم، فاصطفوا يحملون حبالًا وعصيًا وأخشابًا، وكأنهم سيخوضون شجارًا. اصطفوا في مقابل موسى، وموسى صامت أمام هذا الحشد الفارغ.

هتف صلى الله عليه وسلم بهم لا ليخوفهم بما معه، بل ليخوفهم بالجبار سبحانه، وقال: ﴿وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾، فهم يعرفون أنفسهم، وأنهم مجرد دجالين.

تضعض بعضهم، هنا شعر البعض بالقلق، وطالبوا بالتحلق للتشاور في الماضي والإقدام، أو الانسحاب قبل الفضيحة. دنت رؤوس الخرافة من بعضها، وشكلوا حلقة تنهامس وتتنازع، ﴿فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾، وبعد أن ثرثروا فقرروا التحدي.. رفعوا رؤوسهم، وهتفوا بموسى متحدين.



موسى يمنح السحرة تقاعداً مبكراً

دنت رؤوس الخرافة من بعضها، بعد أن اهتزت معنويات البعض، وشكلوا حلقة تنهامس، فطالبوا بعضهم بالثبات. فموسى مثلهم ساحر، يريد خطف الأضواء عنهم، والشهرة، والاستئثار بالمال، و﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (١٣) ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾.

استعاد السحرة معنوياتهم، وصاحوا بموسى المتكىء على عصاه المتواضعة، قائلين: ﴿يَعْمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.



لم يكن عليه السلام في عجلة من أمره، لذا هتف بهم قائلاً: ﴿الْقَوْمَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾، فتحفزوا، وزمزموا بتعاويذهم، وكانت آخر تعويذاتهم هي ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، ﴿فَلَمَّا الْقَوَا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، انطلقت على تلك المشاهد تأوهات الجمهور، وأصيبوا بالدهشة، وتناولت الرؤوس؛ لتمكن من الرؤية.. أخافتهم أشياء غريبة تزحف وتتحرك، بل أخافت موسى الذي ﴿يُخِيلُ إِلَهُهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ (١٦) ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾، فلما بالوحي يتشغل موسى مما هو فيه.. يتشله من أجواء الدجل والضجيج، ويقول له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (١٨) ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾.

رفع موسى عصاه، فانحبست الأنفاس، ثم خاطب السحرة: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ
السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ألقى الكليم عصاه وسط تلك
النفايات، وما إن لامست الأرض، حتى انقلبت حية ضخمة فاغرة فاها.

تراجع السحرة.. أصيبوا بالفرع، وهم يرون أنياباً كالخناجر، وتضعض
فرعون، وقبض على عرشه، وهو يراها تتلوى، وتلتف بين نفايات السحرة،
وإذ بها تبتلعها واحدة تلو الأخرى، حتى أتت عليها كلها، ونظفت الساحة،
ثم ظلت تهتز، ولها فحيح مرعب.. ترفع رأسها.. تلتفت كأنها تتصفح وجوه
السحرة، الذين قتلهم الخوف.. كأنها تقول لهم: هل من مزيد؟

هنا أيقنوا، وهم المحترفون للسحر: أن ما فعلته عصا موسى لا يمت للسحر
بصلة، فليس هنا أسحر، ولا أعلم بالسحر منهم، حتى شياطين الجن، الذين
يلوذون بهم، ويتمتمون بأسمائهم هربوا، وولوا في حضور الوحي. أيقنوا أنهم
أمام نبي.. أمام معجزات فوق مستوى الإنس والجن، لذا لم يطالبوا بجولة
ثانية، ولم يماطلوا، أو يكابروا.. خروا لله الواحد الأحد سجداً أمام فرعون،
الذي فقد صوابه، وقرر البطش بهم.



ساحة احتفالات أم ساحة للإعدامات

خر السحرة لرَب السماوات والأرض، و﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾،
تعالى صراخ الحشود، واستنارت وجوه الإسرائيليين، وهم يغالبون حماسهم،
ففز فرعون من على عرشه غاضباً، يزيد ويرعد، ويهدد ويصرخ بالسحرة:
﴿أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ﴾، فالإيمان عند فرعون لا علاقة له بالاقتناع.. هو يعد
إيمان شعبه ضمن ممتلكاته.. يشكله حسب مزاجه، لذا لجأ للتهمة المعلبة
هناك (مؤامرة) من تخطيط الكاهن الأكبر موسى قائلاً: ﴿إِنَّهُ لَكَيْدُكُمْ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴿٦٦﴾، والهدف من المؤامرة غسل أدمغة الشعب، ليكونوا أتباعاً لكم: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦٧﴾، ودون محاكمة أو حتى تحقيق أو أدلة، فهو القاضي، وهو الأدلة، صاح فرعون: ﴿فَلَا تُقَاطَعُ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجَلَ لَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٦٨﴾، لم يدرك هذا المغرور أنه قد فات الأوان.. لم يعد تهديده ووعيده، وحتى عطايه تساوي عند المؤمنين شيئاً.. كل ما يتعلق به تلاشى، ابتلعتة الحية.. حتى ألوهيته ابتلعتها.. حتى الحية اختفت.. عادت عصا في كف موسى.

قارن السحرة ما عند ربهم بما لدى فرعون، فردوا ثقة بربهم: ﴿لَنْ نُؤْذِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٦٩﴾ إِنَّا ءَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٠﴾، رفت قلوبهم شوقاً لربهم سُبْحَانَ رَبِّكَ، وكأن فرعون يبشرهم بموعد رحلتهم، التي لا يريدون التأخر عنها، ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَمَنَّا بِثَابِتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا ﴿٧١﴾، ولذا لم يلتمسوا عفوه.. تجاهلوه، وتوجهوا نحو خالقهم وحييهم سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٧٢﴾

طار تهديد الطاغية وصوابه، وحول ساحة الاحتفال إلى ساحة إعدامات دامية.. طوقهم الجزارون بوحشية، وسحبوهم بعنف أمام أعين الإسرائيليين الباكية، التي طالما رأت أولئك الجلاوزة يحزون رقاب صغارهم.. سُلت السيوف، وجُر المؤمنون الجدد واحداً تلو الآخر.. يمدون اليد اليمنى للمؤمن، فيرفع الجلاذ سيفه، ثم يهوي به، فإذا اليد تطير، ويطش دمها شلالاً، ثم يمدون رجله اليسرى، ثم يهوي السيف فيقطعها، وينفجر الدم مجدداً. تطايرت أيديهم وأرجلهم، وكأنها تسبقهم إلى الجنة، وتحولت الساحة إلى بركة دم. ومع ذلك لم ينته المشهد.

كل من في القصر مضطرب إلا واحداً

لم يكتف جند فرعون الوثنيون بقطع أيدي وأرجل الموحدين الجدد... بدؤوا بجرونهم ودمأؤهم تشخب على الأرض، ثم يرفعونهم، ويصلبونهم على جذوع النخل، وهم يناجون ربهم، ويحتفلون بالشهادة.. نزفوا ونزفوا حتى اصفرت ألوانهم، وفاضت أرواحهم، ففاضت عيون المؤمنين، وذاب قلب موسى صلى الله عليه وسلم كمداً، فرفع دعوة مظلوم حرى من أعماق قلبه، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

فإذ بالقاهر الجبار يبشره، ويبشر أخاه هارون، ويقول: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مالت الشمس للغروب، بعد أن ارتوت نخيل مصر من دماء الشهداء.. خلت الساحة بعد يوم دامي، وانصرف المسلمون باكين، وأقفى فرعون ووزرائه إلى القصر، لكنه أصبح منذ اليوم في حالة رعب.. يخشى الاقتراب من موسى ومن عصاه، كان هو ومستشاروه في حالة غليان مما جرى، ورغم شلالات الدماء، التي صبغت جذوع النخل، لم تنطفىء نار الحقد في نفوسهم.. القصر كله كان مضطرباً إلا شخصاً واحداً، كان في أقصى حالات السكون والطمأنينة.. (آسية) الطيبة.. كانت هناك حين ألقي السحرة حبالهم وعصيتهم.. كانت هناك حين ألقي قرة عينها عصاه، فإذا هي تبتلع كل شيء، وتخطف قلبها وعقلها.. آمنت أنه لا إله إلا رب موسى وهارون.

هو خالقها ورازقها والمنعم عليها سبحانه، أما فرعون فليس إلهاً.. هو مجرد زوج، وهي أعلم الناس بخصوصياته وأسراره، وكذبه وظلمه، وجوعه وضعفه وعطشه، ورائحته وعفنه، وقد ضاقت به، وضاقت بها الدنيا، فلم تعد

تطبيق قصره.. لم تعد تطبيق كنوزه، ولا حليه، ولا حتى رؤيته.. تشعر بأنها ترقد مع وثن، يزعجها شخير، وتزكمها أنفاسه.

لذا لجأت لربها، وناجته من أعماق قلبها، وقالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فقد شاهدت زوجها الطاغوت حين عاد محبطًا منكسرًا.. تتأمل جنبه وخوفه، من أن يمس شعرة من رأس موسى، لأنه يشعر أن نهايته أقرب من ذلك، لذا طلب من مستشاريه الرأي بعد إيمان السحرة بالله سبحانه، فخوفوه على ملكه، وصوروا له الحق باطلاً، والإصلاح إفسادًا، قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾.



تفعيل قانون التطهير العرقي

أنصت الطاغية باهتمام لبطانة السوء، حين أشاروا قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾، لكنه تجاهل المساس بموسى، لأنه لا طاقة له به، واكتفى بالبطش بالإسرائيليين المسلمين. أصدر أمرًا بإعادة تفعيل قانون التطهير العرقي والديني، وبشكل أكثر وحشية، فقال: ﴿سَنُقِيلُ أُنْثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

انطلق الجند مجددًا يمشطون الحي الإسرائيلي.. ينشرون الرعب في طرقاته وممراته، فحطمت الأبواب، وسالت دماء الصغار، فتوجه الإسرائيليون إلى بيت موسى، يحملون الأطفال والرضع.. يحاصرونه بالبكاء والعيول.. يطالبونه بالتحرك، لإيقاف المجاز، التي أمست أظفَع من الماضي.. خرج موسى إليهم، وخاطبهم بالصبر، وقال لهم: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

لكن هذا الكلام لم يعجب الكثيرين منهم، فقالوا متذمرين: ﴿أَوَذِينَآ مِنْ قَبْلِ أَن تَأْتِيَنآ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتِنَا﴾ فطمأنهم، وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يكتفِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء، بل توجه مباشرة للقصر، أقبل عليه فدخله بكل ثقة وسط فرع الجند والحاشية والوزراء.. لم يعد أحد يجروا على منعه، أو حتى إبقائه ينتظر على الباب.

دخل دون يأس، وخاطب الطاغية باللين مجدداً، ففرعون يظل واحداً من البشر، والبشر يتغيرون.. قناعتهم تتغير، مواقفهم تتبدل، إلا المعاندين، الذين تحركهم الأهواء والأحقاد والغرائز. نصحه موسى بالرجوع عن الوثنية والظلم، فازداد الطاغية صلفاً، بل أصدر أمراً على سبيل السخرية، قائلاً لوزيره (هامان): ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَيْهِ وَإِنَّهُ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾.

كان فرعون في عبثته تلك، يدرك أن هامان لا يستطيع أن يبني مثل هذا البناء، إلا بعد أن تزول أجيال.. كان يروغ عن الإجابة بشكل مضحك، فيقول: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّمَّا تَصْرَوْنَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، هذا دليل على أنني إله، ثم يسخر من لكنة موسى، قائلاً: ﴿أَمَرْنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بِئِينَ﴾، ثم يطالب موسى بملائكة تمشي معه، وتلقى عليه أساور من ذهب، قائلاً: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ مَقَرَّيْنِ﴾، نحجج ومناكفة وعناد، فالمعاندين لا يهدف للوصول للحقيقة.. هدفه إسكات محاوره فقط.

لذا فقد انتهى وقت اللين. فليستعد للأسوأ.



الآيات لا تجدي مع المعاند

استنفذ موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كل أساليب الإقناع واللين مع فرعون، فالأسلوب الذي يفهمه هذا الوثني وأمثاله هو القوة، لذا طلب موسى أن يكف عن التعذيب، ويوقف المجازر، وأن يطلق سراح قومه، وإلا فسوف يرى ما لا طاقة له به.

صمت فرعون خوفاً، لكن جلاوزته استمروا بمجازرهم.. تمادوا في القتل والبطش، وإذ ببوادر العقوبات تلوح في الأفق، ويلوح معها السحاب فلا يمطر.. حتى حلت بمصر سنوات قحط، كالتي حلت أيام يوسف.. جفت المراعي، وماتت المواشي، وقلت الثمار في الأسواق، وضعف الاقتصاد، وبدأ الوثنيون بالتشاؤم من موسى والموحدين، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ازداد القحط، فخف الظلم والاضطهاد على الإسرائيليين، فبدأت الحياة تعود مجدداً، والاقتصاد ينتعش شيئاً فشيئاً، لكن الإسرائيليين ظلوا ممنوعين من السفر للديار المقدسة في الشام، بل عاود فرعون بطشه بهم، فخوفه موسى بعقوبة أخرى من جبار السماوات والأرض، لكنه تمادى في سكرة التعافي الاقتصادي، وفجأة اجتاح الديار طوفان، أغرق المزارع، فأتلفها، وهدم الكثير من الدور، وأغرق الكثيرين، وأصبحت البلاد في حال يرثى لها، فانشغل فرعون وجنده بأوضاعهم المأساوية عن اضطهاد بني إسرائيل، وبعد زوال الطوفان عاد القمع، فعاد موسى للتحذير، لكن فرعون لم يتراجع.

ذات يوم أصبحت السماء غير السماء.. غيمة سوداء هائلة، تسد الأفق، تقبل من بعيد، فيتحول النهار إلى ليل... لم تمطر تلك الغيمة السوداء كالعادة.. فعلت شيئاً مخيفاً.. إنها تهبط على المزارع، تظل على الأرض مدة ثم تفلع،

فإذا المزارع جرداء.. إنها أسراب مهولة من الجراد، أفنت المحاصيل أمام
صيحات الفلاحين وعويلهم، وعجز فرعون عن فعل شيء، أقلعت الأسراب
المحاربة، تاركة بؤسا وعويلا.

لم يقتصر الأمر على السماء.. هناك كارثة أخرى تمتد على أرض الفراعنة..
سجادة من الموت تمتد على مد النظر.. جيش من صغار الجراد المسمى
الدبى أو (القُمَّل) يزحف.. يحصد ما تبقى من زرع، ويسيل في الطرقات
والأسواق والبيوت.

لم تنته الجوائح.. سرعان ما ابتلاه الجبار بالصفادع، التي أحالت حياتهم
إلى جحيم ونقيق مزعج.. لا يعرفون معه طعاما للراحة، وأخيرا (الدم):
اجتاحهم وباء يسبب الرعاف أو النزيف، لا يعرفون له سببا ولا علاجا.

هنا شعر فرعون بتعاطف شعبه الوثني مع موسى، فقرر التخلي عن عناده،
واخلاء سبيل بني إسرائيل، وتركهم يغادرون، وبعد أن غادروا قام بعمل
كالانتحار.



استسلام أم خديعة

استسلم فرعون بعد تلك الآيات، التي يقول الله عنها: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾،
لم يؤمن فرعون ولا قومه.. ظلوا على وثنتهم، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا
يَمُوسَى أَدْعُ رَبَّكَ إِنَّا عَاهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنْآ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ
مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، دعا موسى ربه فانزاحت العقوبات، أما في الحي
الإسرائيلي فعمت الأفراح والاحتفالات، وبدؤوا بجمع حاجياتهم وأمتعتهم،
استعدادا للرحيل إلى الديار المقدسة.. وضعت الأمتعة على الرواحل، وودعت

القلوب مصر الحبيبة الجميلة.. مصر النيل، مهد الصبا، ومرتع الشباب، التي أفسدها الفرعون بظلمه، وشوهها ببطشه.. تحركت القافلة الإسرائيلية مبتهجة.. متجهة نحو المسجد الأقصى.. كان مشهدًا مؤلمًا لفرعون، ليس لأنه آمن كما وعد، ولا لأنه شعر بالندم على جرائمه.. تألم فرعون لشعوره بالهزيمة، فهو لا يزال يرى موسى مجرد طفل إسرائيلي، تربي في قصره.. كيف يفعل طفل به كل ذلك؟! كيف استطاع تحرير شعبه رغمًا عن أنفه؟

شعور قاتل، يشل تفكيره، جعله يعود لطغيانه، وينكث وعده لموسى، حيث يقول الجبار سبحانه: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجَازَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾، بدأ ذلك النكث حين أصدر الطاغوت فرعون أمره لجنده بالتسلح، وتجهيز عربات القتال، والاستعداد لملاحقة بني إسرائيل، والقبض عليهم، وإبادتهم بشكل كامل. وفورًا بدأ التأهب، وما هو إلا يوم أو يومان، وإذا بفرعون مزهواً على عربته الحربية، يقود جيشاً ضخماً مدججاً لمطاردة قافلة موسى المتجهة نحو سيناء..

لم تكن القافلة المؤمنة تعلم بغدر فرعون.. كانت تسير وتتوقف بأريحية، ففيها الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز، وبعد أن قطعوا مسافة كبيرة، واقتربوا من البحر المسمى بخليج السويس، رأوا عجاجة ترتفع خلفهم.. تكبر عجاجة الغبار، وتقترب.. استطاع بعضهم، ثم جاء يرتجف خوفاً، فأخبر موسى الذي صدمه الخبر، وفجأة توقفت قافلة موسى رغمًا عنها.. أوقفها الساحل الغربي للخليج. انتهى الطريق، وما من مفر.. البحر أمامهم، وصياح جيش الطاغية المخيف يدوي، ويدنو خلفهم، فهل هي النهاية؟

طوقهم الجيش الفرعوني، وسل الوثنيون سيوفهم، وبدأ بكاء النساء والأطفال يرتفع، ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾.. وأيقنوا أنهم هالكون بالتأكيد.

طريق الموت الفاخر

قام فرعون على عربته الحربية الفاخرة مزهوًا.. يحدق بموسى وقومه على شاطئ خليج السويس بهم، وقد قرر هذه المرة أبادتهم عن بكرة أبيهم، بينما كانت أرجل الشيوخ والعجائز والأطفال حائرة، قد غاصت في رمال الشاطئ، وقلوبهم ترتجف بين موتين.. البحر أو النحر، أما القائد موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان لا يدري ما يفعل، وسط هذا الضجيج، واستغاثات شعبه وعويلهم.. الذين يصيحون: ﴿إِنَّا لَمَذْرُكُونَ﴾، لكنه كان هادئًا هدوء إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ألقى في النار.. طمأن شعبه.. حثهم على التماسك، والثقة بربهم.. كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قمة الثقة بربه، وكأنه يتذكر قوله له ولأخيه في بدايات رسالته: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، لذا صاح بشعبه: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وإذ بالوحي ينزل عليه.. يأمره بحركة.. حركة واحدة فقط، وبعضاه المتواضعة نفسها، لا لتقلب حية، بل لشيء أكثر هولًا: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾.

مشى موسى على رمال الشاطئ، وما إن انغمست قدماه في الماء، حتى رفع عصاه، ثم ضرب بها الماء، وإذ بصوت مخيف يخلع القلوب.. انشق البحر.. انفلق أمام الكليم إلى نصفين.. من مضرب العصا إلى الساحل الشرقي للخليج.

وقف موسى مذهولًا من قدرة العظيم الجبار.. اهتز كيانه إجلالًا لربه، وهو يرى أمامه ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، ناشفًا، لا طين فيه، ولا زلق، ولا طمي.. طريق واسع، منحدر نحو الأعماق، مفتوحًا على السماء، أما الماء، فالماء تحول إلى جدارين عن اليمين وعن الشمال هائلين.. يتلألآن، وكلما توغل الطريق في أعماق البحر، كلما ارتفعت جدران الماء لعشرات الأمتار.. انفلق البحر فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾. أيقظ الوحي موسى المنبهر..

يأمره بتدشين الطريق الأزرق الفاخر، ويقول له: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُم مَّطَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾.

خطا موسى أولى الخطوات، فتحركت قافلة الموحدين ثقة بالله.. الدموع
تسيل، والقافلة تسير، والماء يصطف كالجبال على الجانبين، حرسا يحمي
الموحدين.

عبر المستضعفون.. عبر الأطفال والنساء والشيخوخ والعجائز، وهم يتلفتون
منذهلين مما هم فيه، وعيونهم تفيض.. تتسع، وهي تتأمل تلك اللوحتين
الجداريتين الهائلتين، تتأمل هذا السرادق الأزرق، الذي يتلأأ احتفاء بهم في
اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية^(١).



تاريخ تدشين الطريق الفاخر

في اليوم العاشر من شهر محرم من تلك السنة القمرية.. دشن موسى
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطريق الأزرق الفاخر.. خطا أولى الخطوات عليه، فتحركت خلفه
قافلة الموحدين المستضعفين.. عبر الأطفال والنساء والشيخوخ والعجائز،
ورؤوسهم تدور بين الجدران الزرقاء المهيبة، وقلوبهم تلهج بالشكر لربهم،
وعيونهم تفيض، وهي تتأمل هذا السرادق، الذي يتلأأ احتفاء بهم.. تابعوا
حتى عبروا إلى الشاطئ المقابل.

رست القافلة على ميناء سيناء، دون أن تبتل بالماء، بينما كان فرعون أمام
بوابة الممر كالتمثال من الدهول، وفجأة أيقظه حقه الذي يسافر في قلبه

(١) صحيح البخاري (٢٠٠٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم
يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم،
فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم»، فصامه، وأمر بصيامه.

كالخنجر المعقوف، وهو يحدق في قافلة سجنائه، وهي تتحرر منه.. يحبسه
الخوف من مطاردتهم، فهو يدرك تفسير ما يجري أمامه، لكنه يكابر، وأخيراً
طاش حقه على عقله.. عجز عن تحمل رؤيتهم ينعمون بأمان، فأصدر أمره
للجيش، باقتحام الطريق المذهل.

علا صياح الجند، وصهيل الخيل، وتحركت العربات، وسلت السيوف،
فالطريق مرصوفة وفسيحة، والمسافة ليست بعيدة، وموسى وقومه لا زالوا
في متناول اليد.

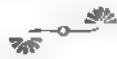
كان القلق يقتل بعض أفراد قافلة المستضعفين، وهم يحدقون بالجيش
الوثنى مقبلاً كالموت نحوهم، أما كلیم الله ﷺ، فكان قائماً على البوابة
الأخرى، وأقدامه منغمسة في رمال وماء شاطئ سيناء، ممسكاً بالعصى،
وكأنه يتهيأ لاستقبال فرعون وجنده.. يراقب جيش قتلة الأطفال، حتى أصبح
كله وسط الطريق، وإذ به يضرب بوابة السرادق المائي بعصاه، فإذا بدوي
انفجار مروع، يفجر الأذان.

اصطك الجداران ببعضهما، فإذا بموج هائل يصطفق، يعلو في السماء.. يطوح
بالعربات والجند والخيل والأسلحة والطغيان في الهواء، ثم تهوي بتلك الأشياء
نحو القاع.. اضطربت أمواج البحر، وامتلات بطون الجند بالماء.. ذاب طغيانهم
وسط تأوهات وتسبيحات المتفرجين المؤمنين، ثم ساد الأجواء سكون مهيب.

سكن طوفان البحر الغاضب شيئاً فشيئاً، وكأنه يلتقط أنفاسه، ثم انقطع
المشهد، واختفت البوابات، وأمحا الجيش، أما قاتل الأطفال الذي كان يقول
قبل ساعات: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، فهو الآن مجرد شيء، يرفعه الموج ويهوي،
وهو بلا حول ولا قوة.

خارت قوى الإله المزيف، وأيقن بدنو أجله وهو يتنفس ماء وموتاً وندماً..
أيقن بدنو أجله، وهو يغرغر ندماً.. يحاول تدارك الأمر.. يقول بعد أن أدركه

الغرق، وأشرف على الموت، وهو يغرغر: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ،
بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، آمن برب بني إسرائيل، المسلمين الذين نحرهم،
من أجل أنهم آمنوا بربهم، من أجل أنهم يقولون: لا إله إلا الله.



موسى يترك قافلته

اصطك الجداران المائيان، فدكا جيش الفراعنة، وندم فرعون حيث لا ينفع
الندم.. في توقيت يقول الجبار سبحانه عنه: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ابتلع الطوفان قاتل الأطفال، وأذهلت المشاهد الإسرائيليين،
وهم يرون قدرة ربهم، الذي أذل من أذلهم وأغرقه.. ينظر بعضهم إلى بعض،
وكانهم يقولون: من يصدق أن فرعون وجنده الوثنيين يختفون بلمح البصر؟

تحول البحر إلى ضريح، لكنه لم يطق جثتهم.. لفظها بعد مدة، فطفت على
سطحه، ثم قذفتها الرياح على الساحلين.. قذفت بمن كانوا يملؤون الأجواء
رعبًا.. تناثرت جثث من قطعوا أيدي التائبين وأرجلهم، وصلبواهم في جذوع
النخل. تناثرت، فانطلق بعض الإسرائيليين نحوها، يسلبونها.. يخلعون حليها
وأساورها الثمينة، وبعد مدة غادر موسى وقومه، وانطلقوا بمحاذاة الساحل
شمالاً نحو الأرض المقدسة، لكن ماذا عن بقايا دولة الوثنيين؟

وصلهم الخبر، فأرسلوا قوة نحو ساحل الفناء، فإذا بالجثث على الساحل.
قلبوها.. تصفحوها، وقد غيرتها الشمس، وأخيرًا عثروا عليه: ها هو فرعون
جثة متورمة.. بلا سلطة.. بلا حرس.

رفعوا جثته المتعفنة، ثم وضعوها على إحدى العربات وعادوا، ثم أخذوها
إلى معمل للتحنيط، حيث يبرع الفراعنة، ليبقى جسده حتى اليوم شاهدًا
وآية، يقول عنها الجبار سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ نَجْعِكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً



وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٠٠﴾، معجزة متاحة للفرجة حتى اليوم.. تشهد بصدق القرآن، وزوال الطغيان، ونبوة موسى، الذي انطلق لبيت المقدس، لكنه اكتشف في أثناء الطريق أن فرعون ما زال حيًا بين الإسرائيليين.

حدث ذلك حين كان رجل إسرائيلي غامض متأثرًا بوثنية الأقباط، يدعى (السامري)، يتعاطى السحر.. كان السامري يتابع موسى، وإذ به يشاهد جبريل، ينزل على موسى في أثناء غرق فرعون على هيئة مقاتل، كما ينزل على بعض الأنبياء في أثناء حروبهم، ويبدو أنه بعد أن افترق جبريل وموسى، دنا السامري الغامض من المكان، وانحنى على الأرض، ومد يده، وأخذ قبضة تراب من أثر الرسول، وأخفاها في ثيابه، واحتفظ بها، بينما سارت القافلة الإسرائيلية بطمأنينة، فلا خوف بعد اليوم، ولا ملاحقة، ولا عنصرية، ولا اضطهاد.. قافلة تحلم بمستقبل واعد، وآمال تمحو الآلام. بينما كان السامري يخطط لأمر، ينسف كل جهود موسى ﷺ.



إلى أين ستذهب يا موسى؟

اكتشف موسى ﷺ بعد غرق فرعون: أن بعض الإسرائيليين قد تأثروا بوثنية الأقباط، كما تأثر السامري، الذي برع في السحر الوثني في أثناء إقامته مع الفراعنة.. اكتشف ذلك على أرض سيناء، حين مروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ﴾.

صدم ﷺ بمقولتهم، وغضب منها غضبًا شديدًا، ثم اكتشف أنه لم يؤمن ﴿لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، صاح بوجوههم، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، وأخبرهم أن هؤلاء الوثنيين غاية في التخلف والغباء، حين يعبدون ما لا ينفع ولا يضر.

يعبدون أشياء هم صنعوها أو نجروها، فقال لهم: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعَاتُهُمْ فِيهِ وَيَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ثم كشف لهم أي جحود يرتكبونه بحق خالقهم ورازقهم، الذي نصرهم، وفضلهم بنعم ليست عند غيرهم، وأولها التوحيد والنبوة، فقال: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فضلكم بالتوحيد، فبلا توحيد تكونون أنتم والعاكفون على الأصنام سواء.. بعد ذلك التنبيه واصل موسى بمحاذاة الساحل، وبعد مسافة شعر بشوق عاصف للوادي المقدس، فلم يطق صبراً.. أمر القافلة بالتوقف والنزول على الساحل.

توقفت المطايا، ونزل المسافرون، وأنزلوا أمتعتهم، وانتشروا في الأرض.. توجه موسى لأخيه هارون، وأخبره بوجهته، وأمره أن يخلفه في قيادة بني إسرائيل، وأن يكون حازماً تجاه من يعبث بالتوحيد، أو يبتدع في الدين، أو ينشر فساداً، قائلاً: ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

انطلق موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الوادي، وهو يسبح في نعم ثقله وتظله، فقد خرج من مصر بالأمس خائفاً، ثم شقي في غربته أجيراً العشر سنوات، مقابل لقمة عيشه، وها هو اليوم يخرج منها نبياً وقائداً منتصراً على الطاغوت وجنده.. سار وسار، ولما اقترب من الوادي، خفق قلبه شوقاً، ولما أصبح على مشارف الوادي، تهادى نحوه، وقد غشيه إجلال لربه، ولما وصل خلع نعليه ثم مشى خطوات ثم توقف حيث توقف تلك الليلة، فإذ بنداء الجبار سبحانه يجتاح مشاعره وحواسه. الجبار العظيم جَلَّالَهُ يَكْلَمُهُ؛ لتتلاشى الدنيا بأسرها، ويشعر بشغف لا يطيقه.. عجز عن كتمانها، أو السكوت عنه.. شغف موسى بأكثر من الكلام مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.. ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، طمع موسى برؤية جبار السماوات والأرض، وقال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾، فإذ بموسى يصاب بشيء يعجزه، حتى عن رؤية ما حوله.

الوثنية بين الإسرائيليين مجددًا

خلع موسى صلى الله عليه وسلم نعليه، وخلع معها الدنيا بأسرها، فمن أسعد منه، والجبار سبحانه سيكلمه.. دنا من البقعة المباركة، في الوادي المقدس، فأخذته رهبة المكان، وإجلال الخالق الذي ناداه، فقال: ﴿وَمَا أَعْجَلْتُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَاجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى، وإذ بالجبار جل جلاله يخبره بأمر جلل، حدث بعد مغادرته للمعسكر الإسرائيلي، قائلاً: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

صعق موسى للخبر، ثم هدأ حين أنزل الله عليه مقدمة التوراة.. كلامًا مكتوبًا على لوحين من الصخر، ابتداء بتوحيد الله سبحانه، ونفي أي شريك معه.. ظل موسى في الوادي المقدس أربعين يومًا، في حال لا مثيل لها: ذكر لله وخلوة وصفاء للروح.. تحلق روحه في أنوار، يعجز عن وصفها، ويشعر بحب يزداد مع كل كلمة يلهج بها، فيشعر بعطش للمزيد من هذا الشوق والحب، ويحاول أن يرتوي فيزداد عطشًا، فيرف قلبه للمزيد.. يرف قلبه لأبعد من الصوت والحرف.. يتحرق شوقًا لرؤية الحبيب سبحانه، فيعجز عن كبت مشاعره، ويقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فإذ بالإجابة نور لا يطيقه موسى ولا غيره.. حتى الجبال الصم الرواسي لا تطيقه، فلا عقل موسى ولا جسده ولا قلبه ولا كل حواسه قادرة على تحمل رؤية الجبار المتعال، الذي قال له: ﴿لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾.

التفت موسى نحو جبل هائل، كان طودًا شامخًا قبل قليل، فلم يجده.. تلاشى.. تبخر حين رفعت الحجب، فكيف لإنسان من لحم ودم أن يصمد. ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾، من هول ما رأى.. أغمي عليه رهبة وحبًا وإجلالًا وهيبة..

مشاعر أكبر من أن يتحملها، أو أن يصفها، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب، فلن يراه أحد في الدنيا، حتى محمد ﷺ،
حين سئل: هل رأى ربه؟ قال: «نور أنى أراه»^(١)، فالرؤية هناك في الجنة، حين
يعاد خلق الإنس خلقاً آخر أرقى وأعظم.. خلق قابل لرؤية الجبار.. خلق
عظيم قابل للخلود، بلا أمراض، أو آفات، أو أحزان، أو تغير إلا إلى الأحسن،
وحين يرى أهل الجنة حبيبهم سبحانه تذهلهم رؤيته وجلاله وجماله، عما هم
فيه من نعيم.

أفاق موسى ﷺ وهو أكثر إيماناً وإجلالاً لربه، ثم نهض وأخذ
الأواح التوراة، وغادر الوادي المقدس، ليعالج الوثنية التي أغوت المعسكر
الإسرائيلي.



المعسكر الإسرائيلي فوضى ووثنية

عاد موسى ﷺ من الوادي المقدس بعد أربعين يوماً، قال الله سبحانه
عنها: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾، وهي أيام لا علاقة لها بشهر
ذي القعدة، ولا بعشر ذي الحجة، لأنها جاءت بعد محرم، فالله قد أنقذ موسى
ﷺ وأغرق فرعون في العاشر من محرم من ذلك العام، فلا يمكن
للتاريخ أن يرجع.

عاد موسى ممثلاً بالإيمان، لكن ما جرى داخل المعسكر الإسرائيلي أجج
غضبه، فنضاله ونضال الأنبياء قبله والأنبياء بعده كان من أجل توحيد الله سبحانه

(١) صحيح مسلم (١٧٨).

أولاً وقبل كل شيء، ولما وصل صدم صدمة كبيرة، حيث وجد الوضع كارثياً: المعسكر يعج بالفوضى والشرك والانفلات، فقد استغل الساحر السامري غيابه، فمارس ألاعيبه، التي تعلمها في مصر مستغفلاً الكثير من الإسرائيليين، فصدقوه، وأعطوه حليهم، والحلي التي سلبوها من جثث الفراعنة والأقباط الوثنيين، المتناثرة على الساحل، ثم قام بصهرها وصياغتها على شكل عجل أجوف، يصدر صوتاً كآلات النفخ الموسيقية، ثم قام باستخدام أثر الرسول، كما يفعل السحرة بالآثار الموجودة على الرمال والملابس والشعر.

أحاط الإسرائيليون بالسامري، وهو يمارس سحره، فانخدع به السذج، وتابعه ضعيفو الإيمان. لم يكتف السامري بالسحر.. لقد تجرأ وتمادى إلى محاولة نسف التوحيد، وإعادة إنتاج الوثنية، فبث أتباعه المتأثرين بوثنية الفراعنة، ليقولوا للناس: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَنَى﴾، أي أن موسى نسي إلهه، فذهب للبحث عنه، وأن السامري قد عثر عليه، وها هو أمامكم، فاعبدوه.

سمع الموحدون هذا الدجل، فغضبوا، وانطلقوا نحو النبي هارون صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فأقبل غاضباً نحو الجموع، التي تطوف بالعجل الذهبي، وهي تتمتع وتهمهم، فقال لهم: ﴿يَقُومُ إِنَّمَا فِتْنَتُهُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، فأجابوه إجابة تدل على أنهم يعانون خلافاً كبيراً في العقيدة.. أصرروا على أن يحسم موسى أمر العجل بنفسه، و﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾، واصل هارون المشي بينهم، محاولاً ثنيهم عن الشرك بالله سبحانه، لكن السامري شكل عصابة منظمة.. حاولوا إسكات هارون، بل والاعتداء عليه، لدرجة أنهم حاولوا قتله.

قلت حيلة هارون صلى الله عليه وسلم فشكا أمره لربه، وانتظر قدوم أخيه وقلبه يتمزق، وبعد أكثر من شهر ونصف.. تعالت الأصوات والضجيج في المعسكر، حين انتشر خبر نزل كالصاعقة على السامري وعصابته.

موسى يلقي ألواح التوراة

أقبل موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المعسكر الإسرائيلي، والغضب يلون وجهه.. لم يتجه لأخيه هارون.. توجه كالسيف البتار نحو الجموع الغبية، التي تطوف بالعجل الصنم.. حذق بجهلهم، وصاح بهم: ﴿غَضِبْنَا سِيفًا قَالِ يَنْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ﴿يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾.

زلزلتهم الكلمات، وأسقط في أيديهم.. أدركوا أنهم وقعوا في الشرك، فاعتذروا، و﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتُمَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾، فتركهم موسى، ثم انطلق نحو نائبه هارون؛ ليسأله عن موقفه مما جرى، ولماذا لم يتركهم، ويلحق به حين وقعوا في الشرك؟

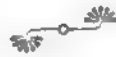
وما إن رآه حتى تأجج غضبه، وفقد شعوره؛ لدرجة أن موسى ألقي الألواح على الأرض، دون أن يشعر، ومد يده بغضب، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾، ويهزه، وأمسك بلحيته، وهو يعاتبه، قائلاً: ﴿يَهْنَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟

كان هارون ليناً عطوفاً على شعبه.. يخشى انقسامهم، بعد ما مروا به من سنوات قمع مريرة، ومجازر مؤلمة، لذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا نَأْخُذُ بِحَيَاتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، ﴿أَبْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

رق موسى لكلمات هارون ورجاءاته، فترك رأسه، وانطلق نحو رأس الفتنة والبدعة.. نحو السامري الساحر الإسرائيلي الوثني، المزهو بين الغوغاء، ولما وقف أمامه شززه بنظرة كالموت، وصاح به: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يُسَيرِي﴾.



تضعضع الدجال من نظرات موسى، فبدأ يبحث عن مخرج هنا أو هناك، ويقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، هنا أخبره موسى أن عقابه لن يكون اليوم، فلا مساس به في الدنيا.. حسابه يوم القيامة، قائلاً: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ﴾، ثم أشار موسى إلى عجله الأجوف، وقال: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (١٧) إِنَّكَمُ الْإِلَهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا، ثم خاطب موسى أصحابه المؤمنين.. طالباً منه تحطيم هذا الإله المزيف وحرقه، ثم رميه في الخليج، كما رُمي الطاغوت، الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.



البحر يبتلع الإله المزيف الآخر

هتف موسى ﷺ بصحابته، وأمرهم بجمع حطب، وإشعال النار فيه. انطلق الإسرائيلون المسلمون يحتطبون هنا وهناك، ثم أقبلوا وقد انحنى ظهورهم تحت حزم الحطب، ولما وصلوا رموا بها على الأرض، وكدسوها فوق بعضها كومة هائلة، ثم أشعلوا فيها النار، ولما تأجج اللهب.. توجه مجموعة منهم نحو العجل الذهبي إله السامري، فحملوه وأقبلوا به نحو النار، ثم طوحوا به وسط السنة اللهب.

لم يقاوم ذلك الإله، بل ولم يصمد لوقت طويل.. دقائق فإذ بإله السامري والمغفلين يتغير قوامه.. يذوب، ثم يسيح مختلطاً بالرماد والتراب، ومتحولاً إلى نفايات. تركوه حتى برد، ثم حملوا الخليط فطوحوا به وسط مياه الخليج.

انتهى الإله المزيف الذي صنعه السامري.. انتهى إله لم يتجاوز من العمر أكثر من شهر ونصف.. هوى لقاع البحر، كما هوى الفرعون الذي كان

يقول لشعبه: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُ﴾، وبعد التخلص من تلك النفاية توعده موسى الإسرائيليين الوثنيين الذين عبدوا العجل بمصير أسود، يقول الله عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

شعر موسى بأن معاناته مع الطغيان الوثني قد ولت، لكن معاناته الجديدة والأطول قد بدأت، وهي معاناته من شعبه الإسرائيليين أنفسهم، فالسنوات التي قضاها في بيئة فرعونية وثنية قمعية، حولت الكثير منهم إلى مزيج من التناقضات، فبنو إسرائيل يتمتعون بأعظم نسب في العالم، وبياهون غيرهم بأنهم أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، بينما يتعامل معهم الوثنيون بازدراء، وكأنهم من طبقة العبيد.. الإسرائيليون يتمنون لأنبياء بشروا بالتوحيد، وناضلوا لنشره، بينما يرغمهم الوثنيون على ممارسة الشرك والركوع والسجود لأخشاب وصخور منحوتة، ولدجال اسمه فرعون.

أجداد الإسرائيليين (الأنبياء) يحملون رسالة العدل، بينما أصبحوا هم يستوحشون من الحرية، لكثرة ما تعرضوا له من القمع والظلم والتقتيل.

نفسية أمثال هؤلاء لن تكون سوية غالبًا، والأيام القادمة ستحمل لموسى سلسلة من المفاجآت الصادمة، فهي نفسيات تحمل إرثًا ثقيلًا من القمع متعبًا، مما جعلهم يتحولون إلى بيئة مناسبة للتطرف في كل اتجاه، لذا لا يمكن لموسى أن يعتمد في التعامل معهم على أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم فقط.. لا بد أيضًا من الصرامة والرقابة معًا.

فما الذي سيتخذه موسى تجاه من عبدوا العجل؟



بنو إسرائيل وأول عقوبة تنزل بهم

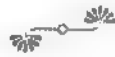
كانت عبادة العجل نفس كامل لتوحيد الله سبحانه، وكفر برسالة موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتكاب لأعظم ذنب عند الله الذي يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، لذا توجه موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو شعبه، وقام خطيباً في معسكره الإسرائيلي بقسميه: المسلم والوثني معاً. فقال: ﴿يَنْقُومِ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

كانت تلك عقوبة واختباراً قاسياً للمسلمين، الذين انصاعوا للأمر، وتهيؤوا لقتال إخوة النسب، الذين عبدوا العجل.. حملوا السلاح، وشنوا عليهم هجوماً، فسقط من الموحدين شهداء، ومن السامريين قتلى، ثم أمرهم موسى بإيقاف القتال، بعد أن أعلن السامريون توبتهم، واعترفوا أن ارتكابهم للشرك ليس بالأمر الهين، بعد كل ما رأوه من معجزات لموسى ونصر وتأيد رباني، وهل اضطهدهم فرعون إلا من أجل توحيدهم لله، وهل أرسل الله أنبياءه ورسله إلا من أجل التوحيد، فكيف يقوم أبناء الأنبياء بنسفه؟ بل وصناعة الأصنام وعبادتها؟ كيف يقوم أهل التوحيد بخيانة ربهم، الذي شق لهم البحر، وأنجاهم، وأغرق عدو الله وعدوهم؟

كان الشرك مفزعا جداً لموسى، لذا تبرأ منه، ودعا ربه طالباً المغفرة، وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، استغفر ربه رغم أنه لم يسهم بالوثنية، ولم يرض هو ولا أخوه بها.. استغفر، لأن الاستغفار اعتراف مستمر بالحاجة لرحمة الله سبحانه، وأن ما يتلقاه موسى من تأييد وخوارق هي من الله وحده، ولو شاء لسلبها في لحظة.. النبي دائم لشكر. دائم العرفان. دائم التواضع لمن رفعه واختاره وفضله، لأنه يعرف قدر الله وقدرته الله أكثر من غيره.

مر ذلك الاختبار مريراً على بني إسرائيل، ثم عفا الله عنهم، وتاب عليهم، واستأنف موسى وهارون نشر الوعي بينهم مجدداً، بتعاليم جديدة، تنزل تباعاً.. تعاليم من أجل تقوية إيمانهم، لذا طلب منهم الاجتماع، ولما اجتمعوا انتقى منهم سبعين رجلاً ليرافقوه في رحلته الثالثة لجبل طور، وليكونوا شهوداً.

انطلق السبعون خلف موسى عَلَيْهِ السَّلَام، حتى أقبلوا على الوادي المقدس، وكان غير بعيد جداً عن مكان إقامتهم على البحر.. ساروا حتى دنوا منه، ولما دنوا ارتجت الأرض من تحتهم ومن حولهم.. تساقطوا وشعروا بالرعب، واجتاح موسى خوف شديد، وظن أنه الهلاك بسبب العجل.



أمة محمد ﷺ في سيناء

اجتاح الخوف موسى ﷺ.. خشي أن تكون هذه الرجفة عقوبة لما ارتكبه بعضهم من وثنية.. خشي أن تكون مقدمة لمثل الصيحة، التي أبادت قوم ثمود ومدين، فناشد الغفور الرحيم سبحانه اللطف قائلاً: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تشَاءُ وَتَهْدِي مَن تشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، فخاطبه سبحانه وقال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

ثم بين سبحانه أن أحق الناس برحمته ليس أولئك المتقلبون الجاحدون، بل هم أمة نبينا محمد ﷺ، التي يحملها المستقبل، وذلك لصفات يحبها الله فيهم، قائلاً: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٦١) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ»، تلك هي إحدى البشارات ببعثة نبينا ﷺ.. بشارة نزلت في سيناء.. في لحظات خذلان معظم شعب موسى لموسى، وتخليهم عن التوحيد.. بشارة تكشف أن رسالة محمد ﷺ وأمة هي الأمر بالمعروف، وأوله التوحيد والعدل، والنهي عن المنكر، وأشدّه الشرك والفساد والظلم، وقد أغرق الله فرعون قبل أشهر، لأنه ادعى الألوهية، وظلم الإسرائيليين، رغم تلوث الكثير منهم بالشرك، ولو لم يلاحقهم في البحر، ويصر على إبادتهم، لربما كان حيًّا، فالجبار سبحانه حرم على نفسه الظلم، وحرّمه على خلقه.. فقال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّمًا، فلا تظالموا»^(١)، لا يرضى بالظلم، ولو لمن يكفرون به، ففي الدنيا: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، فالحساب في الآخرة، أما الفساد والظلم، فلا تسامح فيها في الدنيا ولا في الآخرة، ولذا تنهار الأمم الفاسدة، رغم قوتها وراثتها، وتدوم الأمم العادلة، مهما كانت عقيدتها.

مفاهيم جاهد موسى لإيصالها، لكن يبدو أن قومه يحتاجون لمجاهدة أكبر، فها هم بعدما عاد موسى والسبعون.. يستقبلونهم، والفضول يقتلهم.. يحتشدون حولهم.. يسألونهم عما جرى لهم، وعن كلام الله لموسى.. يطلبون المزيد من التفاصيل. لكن حديث موسى والسبعين لم يشبع غرورهم، فلم تتوقف أسئلتهم التي لا تبحث عن الإجابة لتعمل، بقدر ما تبحث عن جمع المعلومة للمعلومة نفسها.

بدؤوا بمطالبة موسى بأشياء غريبة.. توجهوا نحوه ذات يوم، فطالبوه بشيء مستحيل.



(١) صحيح مسلم (٢٥٧٧)، وهو حديث قديمي.

القبيلة المغرورة تتواضع

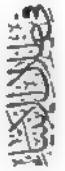
رغم أنه يوجد من الإسرائيليين أنبياء ورجال ونساء عظماء وعظيمات، وموحدون نبلاء، ورغم أن منهم من وصفهم الله سبحانه بأنهم: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، وأنه فضل هذه القبيلة على الأمم والقبائل، إلا أن غالبيتهم وقفوا من نبيهم موسى ﷺ موقفًا محيرًا.. ممثلين بالغرور.. مغترين بحلم الله، وتفضله عليهم، وكأنهم يقولون لأنفسهم:

من مثلنا من القبائل: نحن بنو إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم.. أجدادنا وآباؤنا وأعمامنا أنبياء، بل من إخواننا، ومن بيننا من هونبي.. نحن من جعل الله النار بردًا وسلامًا على جدنا.. نحن من بنينا بيت المقدس.. نحن من شق الله لنا البحر، وأغرق من أجلنا فرعون وجنده الأقباط الوثنيين.. منا يعقوب ويوسف والأسباط، ومنا كلیم الله موسى وهارون، فمن مثلنا؟

لا أحد، وما دمنّا الأعظم، فلا ينقصنا سوى شيء واحد، وإن لم يتحقق فسوف نتمرد.

مشى هؤلاء الإسرائيليون نحو رسول الله موسى ﷺ وقد تورموا من العجب والغرور، معلنين تمردهم إن لم يتحقق لهم ما يريدون. قالوا: ﴿يَكُومُ لَكَ نُؤْمَنٌ لَكَ حَقٌّ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

وبينما هم ينظرون إلى موسى، ويتظنون جوابه، وقبل أن يرد.. قبل أن يحرك شفثيه بكلمة.. أتاهاهم الرد من السماء.. دوت صاعقة مرعبة رددتها الجبال، فإذا هم جثث متناثرة أمامه.. ارتج موسى مما حوله.. كان مشهد الجثث مروعًا، وكأنما خرت من السماء.. رق ﷺ لمآل هؤلاء الأشقياء، فدعا ربه، وناشده العفو عنهم، فاستجاب الرحمن الرحيم، فإذا الحياة تسري بأطرافهم.. يتحركون.. ينهضون ببطء، والذعر يجتاحهم.. يتأملون العالم من حولهم.. يتحسسون أبدانهم.. تدور أعينهم بين الأرض والسماء.



شعروا بعظمة الجبار سبحانه، فتلاشى فخرهم، وشكروه، واستغفروه مجدداً، وتاب من كان وثنيًا، واعتذروا لموسى، وعادوا لأطفالهم، الذين كانوا قبل قليل أيتامًا، ولنسائهم بعد أن كن قبل دقائق أرامل. سكنت تلك القبائل وهدأت، ومرت الأيام، فإذا بهم يطلبون من موسى شيئًا آخر.. يطالبونه بمياه عذبة، بدلًا من السقيا المرهق من الآبار، فدعا موسى ﷺ ربه، فإذا به يتلقى أمر الجبار: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾.

تقدم الكليم نحو أحد الحجارة الكبيرة، ولما وقف أمامه رفع عصاه، فضرب به حجرًا كبيرًا أمامه، فإذا بأطراف الحجر تنبجس أمامهم شلالات ماء.. اثنتا عشرة عينًا، تتفجر ماء زلالًا بعدد قبائل بني إسرائيل، لكل قبيلة شلال، فهل انتهت مناكفات بني إسرائيل؟ لا يبدو ذلك، فزمن المناكفات الإسرائيلي لم ينته، لكن يبدو أن زمنًا آخر للتحايل قد بدأ.



أنهار ومن وسلوى ونظام

في سيناء أمر الله سبحانه موسى ﷺ: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾، فرفع عصاه فضرب به حجرًا كبيرًا جدًا أمامه، فإذا بالماء ينبجس من أطراف الحجر شلالات ماء عذب.. اثنتا عشرة عينًا اتسعت لها أعين القبائل الإسرائيلية، ومعجزة هرول بعدها الرجال والنساء والأطفال إلى رحالهم، فأخذوا قربهم وأوانيهم ومزاداتهم، ثم عادوا نحو العيون العذبة، ليملئوها بالماء المعجزة. لكن موسى أوقفهم، حتى لا تدب الفوضى والتزاع، لا سيما وهم قد تمرسوا عليها.

هتف بهم، ولما شخّصت أبصارهم أشار للعين الأولى، فجعلها لقبيلة فلان، وللعين الثانية، فخصصها لقبيلة فلان، وهكذا حتى حدد لكل قبيلة عينًا ﴿عَلَى كُلِّ نَاقِبَةٍ أُكُلٌ﴾.

بدأت الأرض تخضر من حولهم، فإذا بأسراب من طيور المن تحلق فوقهم.. يصطادون منها ما شاؤوا، ويتفننون في إعداد موائدهم طبقاً وشياً، ويتلذذون بعسل النحل، الذي كثرت خلاياه لكثرة الزهور من حولهم. أمن وأمان، ومن وسلوى، وساحل جميل، وأسماك، ومعجزات تتلوها معجزات، ونعيم يتلوه نعيم.. لتتوالى أحكام التوراة بعدها تفقههم بأمور دينهم، وتنظم دنياهم، فالشعب يكثر لا سيما، وتعدد الزوجات عندهم لا حدود له، وهم بحاجة لقوانين، لا إلى أعراف غير ملزمة، كما أن الأنظمة تحتاج إلى قيادة صارمة، تضمن تطبيقها، وإلا تحول المجتمع إلى غابة، يفترس القوي فيها الضعيف.

لذا نزل نظام جنائي، بدأ بتحريم سفك الدماء، وأن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، ثم نزل الوحي بقوانين القصاص، التي تقرر أن ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾، وبين الله أن أحكامه وعي وتنوير، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وطالب بعدم المجاملة في تطبيق النظام، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

هنا بدأ الفوضويون وأعداء النظام سلسلة من المماحكات.. لا يريدون عقوبات.. لا يريدون نظاماً.. يريدون مجتمعاً هلامياً، لا قوام له، كي يعبثوا، ويتحايلوا، ويفسدوا دون حسيب أو رقيب، وكأنه لا يصلحهم إلا البطش.. نصحبهم موسى، وطالبهم بعدم التمادي، لكنهم تمادوا، وإذا بشيء فوق رؤوسهم، أرعبهم، جعلهم يهرولون نحو موسى.



مخلوقات غريبة على الساحل

رفع الإسرائيليون رؤوسهم للسماء، فإذا شيء أسود، لا يشبه الغيوم.. شيء مربع، لا غيث فيه ولا مطر، ولم يروا مثله.. هرولوا كالعادة نحو الكليم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وقفوا أمامه يرتجفون، فزادهم رعباً، حين أخبرهم أن الذي فوق رؤوسهم هو جبل الطور.. ملايين الأطنان من الصخور لسحقهم، إن لم يطبقوا نظام التوراة، التي يقول الجبار عنها: ﴿وَإِذْ نَنفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

خلع المشهد قلوبهم فسجدوا لله، وأعلنوا خضوعهم لشريعة التوراة، التي بدأ موسى بتطبيقها، وأولها العدل.. أسقط في أيديهم.. أدركوا أن أي تمرد، أو خلق للفوضى، أو مجاهرة بمخالفة النظام، ستقابل بعقوبة عاجلة.. كانت المعجزات رحمة لهم، فأمثالهم يدمرون أنفسهم، لو تركوا لغرائزهم، ومع ذلك بقيت قلة منهم، عجزت عن مقاومة غرائزها، لم يتنه زمن المطالب، لكن بدأ زمن آخر للتحايل والالتفاف على النظام:

ذات يوم أنزل الله عليهم تحريم أكل الشحوم، فإذ بهم يقومون بإذابتها، ثم يبيعونها ويأكلون ثمنها.

أنزل الله عليهم تحريم صيد السمك يوم السبت، فتحايلوا.. صاروا يرمون شباكهم في عرض البحر يوم الجمعة، ثم يعودون لأخذها يوم الأحد، وقد امتلأت بالأسماء. ظلت هذه القلة المتحايلة تتماذى، فزجرهم موسى، وحذرهم من عواقب التحايل، لكنهم تمادوا مما أثار غضب الإسرائيليين المحتسين، فوعظوهم، وذكروهم بنعم الله، التي لا تعد ولا تحصى، لكن المادة طغت عليهم، فلم ييأس المصلحون من الاحتساب، مما جعل بعض المؤمنين يلومون الأمرين المعروف، الناهين عن المنكر لتكرار نصيحة أناس ميؤوس منهم، قائلين:

﴿لَمْ يَعْطُوا قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فذكر المحتسبون سببين:
﴿قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَز وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ﴾.

السبب الأول: أداء واجب النصيحة، والآخر عدم اليأس في حياة المصلح.

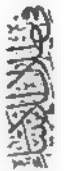
وفي أحد أيام الجمعة ذهب المتحايلون للساحل، يحملون شباكهم.
وضعوها في مراكبهم، وركبوها وجدفوا، ولما أصبحوا في عرض البحر،
توقفوا، ونشروها، ثم رموها، لكنهم لم يعودوا إلى الساحل، ولا إلى بيوتهم
هذه المرة.. استبطأتهم عائلاتهم.. خرجوا يبحثون عنهم.. مشطوا الساحل
فلم يجدوا لهم أثرًا، لكنهم وجدوا مخلوقات غريبة على الساحل.



ساحل القردة

لم يعد أحد من الصيادين المحتالين يوم الجمعة.. استبطأتهم أسرهم،
فخرجوا يسألون عنهم.. لم يجدوا جوابًا، فلا أحد رآهم بعد إبحارهم..
بحثوا.. مشطوا القرية، فلم يجدوا شيئًا، لكنهم وجدوا بين الساحل والقرية
مخلوقات غريبة.. قردة لها صراخ.. تنظر بحزن وخوف إلى المحققين
الخائفين منها.. الكل خائف إلا موسى ﷺ، الذي أقبل، وكأنه يقول
لهم: لا تبحثوا بعد اليوم عن الصيادين المحتالين، فهم لم يفرقوا، ولم يموتوا،
ولم يسافروا.. ها هم أمامكم.. هؤلاء القردة هم أخوانكم، الذين نصحتموهم
بتطبيق أحكام التوراة، فلم يستنصحوها، ونهيتموهم عن الفساد فلم يأبهوا،
وخوفتموهم بالله فلم يخافوا، وخالقهم سبحانه يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ
قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

شكر المؤمنون ربهم على نعمة الهداية، والنجاة من هذا المصير، أما تلك
القردة فظلت تتفاقر، وتصرخ حزينة هنا وهناك.. لا أحد يعرف من هو أخوه،



أو ابن عمه منها، ولا أحد يريد لها في بيته، رغم المرارة التي تشعر بها عائلاتهم وأقاربهم.. ظلت القردة تائهة على الساحل، وفوق صخور الجبال حتى ماتت، وانقطع نسلها، فאלله «لم يجعل لمسوخ نسلًا ولا عقبًا»^(١).

ثم ماذا يا بني إسرائيل؟

كل هذا العناد والتمرد والتحايل، ثم ماذا؟ آية أو معجزة واحدة، مما جاء بها موسى تكفي العاقل، لكن معجزات الأنبياء كلها لن تحرك شعرة في رأس حسود أو حقود أو شخص يعبد هواه.

ظل النبي العظيم موسى ينشر التوحيد، ويحكم بالعدل، لكن معظم شعبه ظلوا كالأطفال.. يبحثون عن الخارق والمدهش، وليس لديهم أي توجه لمساعدته في مهمته، ففي أحد الأيام وجد بعضهم جثة قتيل.. أخبر أهله فجاءوا وتعرفوا عليه، وشاع الخبر في القرية، لكن أحدًا لم يستطع الوصول إلى القاتل.. بدأت الظنون تلقي الاتهامات هنا وهناك، بعيدًا عن القاتل الحقيقي الذي يبدو أنه أصبح في مأمن.. بدأت مطالبة أهل الضحية بتطبيق القصاص دون دليل، ولما عجزوا انطلقوا نحو موسى، واندس معهم القاتل.. يطالبون بإخبارهم عن هوية القاتل، فظنوا أن حياتهم مرهونة بالمعجزات.

سكت موسى حتى جاءه الوحي، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، نظروا إليه باستخفاف، ثم قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالِ أَعِودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أدركوا أنه جاد، وأن ذبحهم لأي بقرة كاف، لكن يبدو أن القتل بدؤوا بالتشويش والمناكفة.



(١) صحيح مسلم (٢٦٦٣).

شددوا، فشدد الله عليهم

طلب موسى ﷺ من أهل القتل ذبح بقرة.. أي بقرة. لم يحدد لوناً أو صفة.. هنا يبدو تدخل القتلة للتشويش.. أظهروا حرصهم على الظفر بالقاتل، فهتفوا بموسى، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

هيا ابحثوا عن أي بقرة في منتصف العمر، لا فارض هرمة، ولا بكر صغيرة.. إنها صفة يسهل الحصول عليها، لكن القتلة لا يريدون ذلك.. لا يريدون حتى الحصول على البقرة، لذا ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾.

بدأت الدائرة تضيق، فالبقرة الصفراء النقية اللون، يصعب الحصول عليها، ومع ذلك شوشوا، فقالوا لموسى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةٍ فِيهَا﴾.

اطمأن القتلة أنهم لن يحصلوا على بقرة بتلك المواصفات.. خاصة الصفة الأخيرة. بقرة لم يذلها العمل أو يطوعها، ولم تستخدم يوماً في حرث الأرض، أو السقاية بالسواني، ولا يوجد في لونها الأصفر أي بياض أو سواد، وكأنهم يريدون أن تنزل عليهم بقرة من السماء.

انطلق الأهل.. يسألون.. يبحثون في الحظائر، والمزارع داخل القرية وخارجها، حتى أضناههم البحث، وفجأة عثروا عليها، فاشتروها بأي ثمن، ولما دفعوا ذلك الثمن، أخذوها نحو موسى، حتى أوقفوها أمامه، و﴿قَالُوا آتِنَا جَنَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، هنا تضعض القاتل وارتج، وهو ينظر إلى موسى، والله يقول له: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعَضَاهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

مد أحدهم يده بالسكين، واحتز من لحمها قطعة، ثم ضرب بها الجثة، فإذا بالمعجزة الربانية.. القاتل يتكلم.. يفصح عن هوية قاتله.. لوى الحاضرون رؤوسهم، وحدثت عيونهم بشخص منغرز بينهم.. كان يناكف نبي الله، ويحاول تعجيزه حتى لا تظهر الحقيقة.. تبين أنه من القبيلة نفسها، ربما طمعاً بإرث.. ربما حقداً.. ربما خصومة.. المهم أنه قد تم القبض عليه، ونال جزاءه بعد أن فضحه الوحي، الذي يقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْنُيُونَ﴾.

مرت أشهر وسنوات، وكثرت معها مناكفات شعب موسى، لدرجة أنهم بدؤوا يتدمرون من المن والسلوى، والعسل ورغد العيش، فكانت عاقبة تدميرهم كارثية.



يعشقون أرض البصل، ويرفضون الأرض المقدسة

توجه الإسرائيليون لقائدهم موسى ﷺ معلنين تدميرهم من أطعمة متوافرة ولذيذة، وقالوا له: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآيَهَا وَفُومَهَا وَعَدْسَهَا وَيَبْصِلَهَا﴾، وإذا به يتعجب من تدميرهم من كل شيء.. حتى من رغد العيش، قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، وبدوا أنهم كانوا يريدون أطعمة لا يتعبون في زراعتها، وجنيها.. هنا بلغ موسى من الحلم والحدب على شعبه مستوى غير مسبوق، لذا دعا ربه، فاستجاب له، وطلب منهم التوجه إلى أي بلد في سينا قائلاً: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾، ادخلوا أي بلد، ولا يقصد مصر التي هربوا منها.

جمع الشعب المشاكس أمتعته، ووضعها على الرواحل، ثم انطلقوا بمحاذاة ساحل الذكريات، متوجهين إلى أي بلد، تتوافر فيها تلك الأشياء،

لكنهم دخلوها كغرباء طفيليين، أذلة صاغرين بين سكانها الأصليين، حتى قال الله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، بعد أن كانوا أعزة يعيشون بين المعجزات ورغد العيش، ويتمتعون باثنتي عشرة عينًا، تتفجر ماءً زلالًا، وبعد سنوات من الشعور بالذلة والغربة والمسكنة، طلب منهم موسى الاستعداد لمغادرة هذا المصير، فإذ بهم يوافقون.

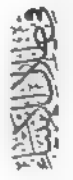
تأهب الإسرائيليون، وحملوا أمتعتهم وانطلقوا، وبعد يوم أو يومين من المسير، وفي إحدى محطات استراحاتهم، قام موسى ﷺ فخطب فيهم خطبة بالغة الخطورة.. معلنا عن موعد الرحلة الكبرى والمحطة الأخيرة، لكن قبل أن يحددها بدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم، وتفضيلهم على غيرهم، فقال: ﴿يَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾، ثم كشف تلك الوجهة، فإذا هي مهوى الفؤاد.. الأرض التي عليها ثاني مسجد بناه جدهم إبراهيم ﷺ بعد بنائه للمسجد الحرام بمكة، فقال: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

نظر المناكفون إلى بعضهم، وكأنهم يقولون: ما هذا؟! أينقذنا من خناجر فرعون، ليرمينا بين سيوف الكنعانيين؟ تشاوروا، ثم صاحت تلك الأغلبية دون حياء: ﴿يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾، كانوا يريدون حياة سهلة.. ثمارًا يقطفونها، ويزاحمون شعوبها. لكن يبدو أن عصر المعجزات قد ولى.



انتهى عصر المعجزات يا بني إسرائيل..

بعد كل تلك المعجزات والبراهين.. ما زال الإسرائيليون يريدون أن يعيشوا بقية حياتهم بالمعجزات.. بحر ينشق، وصخور تتفجر ماء، وها هم يريدون



من الوثنيين أن يخلوا أراضيهـم لهم بكل بساطة! لم يتحدث موسى عن قتال...
تكلم عن دخول.

هنا تقدم رجلان من الأقلية المؤمنة الثابتة، حتى أصبحا أمام الجموع
المنافسة الرافضة، فقالا: ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ
وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

هذا هو الفرق بين من يستحضر عظمة الله وقدرته، فإذا كل القوى تتلاشى
من قلبه، وبين قوم يخشون الناس كخشية الله أو أشد... هذا هو الفارق بين من
عبروا البحر بقلوبهم وعقولهم، وبين من عبروه بأقدامهم فقط. كلمات عظيمة
تكشف مدى التوكل على الجبار سبحانه.. كلمات لم تجد سوى قلوب قاسية
وصفها الله، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارِ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

كرر الجبناء رفضهم، وصاحوا بوقاحة: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا
دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾، لن ندخلها أبداً؟ إذا
فالديار المقدسة لا تهمهم.

صدم موسى من هذا الجحود... شعر بخذلان شعبه له، فتولى عنهم حزينا،
وتوجه نحو ربه معتذرا إليه، ومتبرئا من الخونة، وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ
إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَأَفْزَقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، وإذ بغضب الجبار سبحانه
يحل على ذلك الجيل.

ليس بعد اليوم من معجزات، ولا حتى تهديد بالفناء.. هي حياتكم فعيشوها
بواقعية.. منذ اليوم لستم أفضل أهل الأرض، ولن تحظوا بالتأييد، إلا إن بذلتم
من أجله وناضلتم.. أمامكم تيه طويل، وشقاء ومعاناة، مدتها أربعون عاما،
ولن يغير الله ما بكم، حتى تغيروا ما بأنفسكم.

أما موسى فظل معهم يعاني منهم ومعهم، فمهمة الأنبياء ليست سهلة..
واصل قيادتهم وظل يعلمهم، وبينما هو معهم ذات يوم، سأله أحد تلاميذه،
فقال: (أي الناس أعلم؟)

استعجل موسى الإجابة فقال: (أنا أعلم) لم يقل: أنا أعلم إن شاء الله.
لم يقل: الله أعلم، فعاتبه ربه سبحانه، لأنه لم يرد العلم إليه. ثم أوحى إليه:
(أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين، هو أعلم منك)، خفق قلب موسى شوقًا
لرؤية رجل ليس بنبي، لكنه أعلم من كلهم الله، فقال: (يا رب، وكيف به؟ فقيل
له: احمل حوتًا في مكتل، فإذا فقدته فهو ثم) ^(١) ستراه هناك.. في المكان
الذي تفقد فيه سمكتك.



ليس بنبي، لكنه أعلم من نبي

أخذ النبي موسى ﷺ زبيلاً متوسطاً، يسمى (المكتل)، ونادى تلميذاً
مخلصاً، من أفضل تلاميذه، اسمه (يوشع بن نون)، وطلب منه مرافقته.. انطلق
الاثنان نحو البحر، فاصطادا عَلَيْهِمَا السَّلَام سمكة، ووضعها في الزبيل، ثم سارا
بمحاذاة ساحل خليج السويس جنوباً.. ظلا يسيران ويتوقفان، حتى أدركهما
التعب في ملتقى الخليجين السويس والعقبة مع البحر الأحمر، فلجأ إلى
صخرة على الشاطئ، فرقدا تحت ظلها، وفي أثناء رقادهما حدثت المعجزة
الربانية.. اضطربت السمكة، وتقلبت داخل المكتل، حتى غادرته. أفاق النبي
وتلميذه عَلَيْهِمَا السَّلَام، ثم واصل سيرهما.

ظلا يسيران حتى قرصهما الجوع فتوقفا، ثم التفت موسى ليوشع، وطلب
منه شي السمكة. توجه يوشع نحو المكتل، وأدخل يده فلم يجد شيئاً..

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

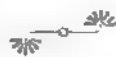
اتسعت عيناه من الدهشة، فالسمكة ليست في داخله، فقال لنفسه: لا بد أنني نسيته هناك عند الصخرة. عاد لموسى، وقال له: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

شعر موسى بالارتياح رغم الجوع، وقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، طلب من تلميذه النهوض، ثم عادا من حيث أتيا.. يتتبعان آثار خطواتهما، وبعد مسافة لاحت لهما الصخرة، فلما لاحت، إذ بالمفاجأة تنتظرهما.. لم يجدا حوتا.. وجدا شخصا مغطى بثوب من رأسه إلى قدميه.

وقف موسى باحترام، يتأمل هذا النائم المسجى.. يتأمل رجلا آتاه الله علما ليس عنده. لم يقل الله لموسى: اذهب إلى البلد الفلاني، واسأل عن قصره، فستجده هناك، أو اذهب إلى القرية الفلانية، فهو أشهر من نار على علم، وستجد تلاميذه جيوشا حوله.. وجده وحيدا على الساحل، ليس معه إلا الله.. لا جاء ولا منصب ولا شهرة، ولا حاشية ولا مردين.

ولي حباه الله بشيء ليس عند موسى، رغم أنه ليس أفضل من موسى، ولا من بقية الأنبياء.. ولي يعيش مع الله.. يأنس بذكره سبحانه، ويسعد بمناجاته، ويتلذذ بالخلوة معه.. أهذا هو الخضر، الذي عاتب الله من أجله موسى، وأمره بالتلمذ على يديه؟ يفتersh رمال الشاطئ، ويلتحف قطعة قماش.

وقف كلیم الله متعجبا.. معه العصا التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وفجرت الأنهار بإذن الله.. يتساءل أي علم سيجده عند هذا الفقير، الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو حتى قاربا يحر به.



أول الدروس صدمة

وقف كلیم الله موسى ﷺ معه العصا، التي ابتلعت كيد السحرة، وشقت البحر، وأغرقت فرعون وجنوده، وفجرت الأنهار.. وقف على رمال الشاطئ، يتساءل: أي علم سيجده عند هذا الفقير؟ الذي لم يجد بجانبه راحلة تقله، أو قاربًا يبحر به.

وقف أمام الخضر المسجى على الساحل، وقال له: السلام عليكم.
كشف الخضر الثوب عن وجهه، وقال: وأنى بأرضك السلام؟ استغرب موسى من هذه الإجابة، التي تتكلم بأكثر من أحرفها، فقال: أنا موسى.
رفع الخضر رأسه، وحدث به مستغربًا، وسأله: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. (قال الخضر: أو ما كان لك في بني إسرائيل شغل؟ قال: بلى، ولكني أمرت أن آتيك وأصحبك)، فقال متعجبًا من طموح موسى: «وما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك؟» قال كلیم الله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟﴾

هنا.. حذره الخضر من علم لا يطيقه.. علم لو أصبح لدى البشر، لأفنى بعضهم بعضًا، ولكره بعضهم بعضًا، ولأصبحت الحياة لا تطاق.. حذره الخضر، قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، «يا موسى، إني على علم من علم الله، علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم، علمكه لا أعلمه»^(١)، أصر موسى على التلمذ، وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وافق الخضر، ولكن بشرط هو أن لا يطلب منه تفسير أفعاله، حتى يفسرها هو له. قائلًا: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وافق موسى، دون تردد فرفع الخضر قطعة القماش المتواضعة التي كان يغطي بها وطواها، ثم نهض، وانطلق بصاحبيه موسى ويوشع بن نون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

(١) صحيح البخاري (١٢٢) وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

يتهادون على ساحل البحر.. بدأ موسى رحلة طلب العلم ظناً أنه لن يرتوي منه، وإذ بسفينة صيد تبحر بمحاذااتهم. هتف الخضر بأصحابها، فتوقفوا مستفسرين، فسألهم أن يحملوهم. فوافقوا دون مقابل.

خاض الخضر وصاحبه مياه الشاطئ، حتى وصلوا السفينة، وسلموا على أصحابها، وصعدوا وأخذوا مقاعدهم.. ابحروا وموسى صامت بين جمال زرقة السماء والماء، وفي أثناء ذلك رفرف فوقهم طائر، ثم هبط على حرف السفينة، ثم نقر البحر بمنقاره نقرة، ثم رف ثانية في السماء.. كان الخضر يتأمل موسى الذي ينظر للطير، فقال: «يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر».

ازداد شغف موسى لنقرة العلم، لكن الخضر صدمه، حين نهض واتجه إلى قديم أو فأس في ناحية من السفينة فأخذه، ثم توجه لجدار من جدران السفينة فهوى به عليه حتى اقتلع لوحاً من ألواح.



صدمة الدرس الثاني والثالث أكبر

صدم موسى ﷺ من سلوك الخضر.. كيف يعتدي على ملك غيره؟! لم يستطع الصبر على اقتلاع الخضر للوحة علوية من ألواح جدار سفينة الصيادين الكرماء.. عاتبه مباشرة، قائلاً: «قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟»^(١).

نظر الخضر إلى موسى بهدوء، وقال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ اعتذر موسى، وقال: ﴿لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَبِيتُ وَلَا تَรْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

(١) صحيح البخاري (١٢٢)، وما بين الأقواس من القصة هو جزء منه.

واصلت السفينة إبحارها، حتى وصلت إلى ميناء قرية ساحلية، فتوقفت ونزل الخضر، وتبعه موسى ويوشع عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وتهادوا نحو القرية، وفي أثناء سيرهم شاهدوا أطفالاً يلعبون.. كانت براءتهم وضحكاتهم تزين المكان وتبهجه، لكن الخضر قتل البهجة في نفس موسى، حين تقدم نحو أحد الأطفال، فأخذه من بينهم، وسار به وسط دهشة الجميع، ثم قتله أمام عيني موسى، الذي فقد أعصابه، وكأنه يعيد مشاهد معاناة أطفال شعبه المريرة، حين كان الفراعنة الوثنيون ينحرونهم، فهتف بالخضر مستنكراً: ﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

نظر إليه الخضر بثقة متناهية، وأعاد تذكيره بقوله: ﴿الْأَقْلَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ شعر موسى بالخطأ في تسرعه، فطلب منحه فرصة أخيرة، قائلاً: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

وافق الخضر، ثم واصل الثلاثة المشي عبر طرقات القرية وبين بيوتها، ثلاثة هم من أفضل من يمشي على وجه الأرض، ومع ذلك ليس معهم ما يشترون به وجبة لهم.

بحشوا عمن يستضيفهم فلم يجدوا وسط قرية البخلاء هذه.. قرية ﴿أَسْتَظْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا﴾، لم يغضب الخضر.. على العكس من ذلك.. مر بأحد طرقاتها، فالتفت فرأى جداراً متهاكاً آيلاً للسقوط ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، بيده وأعاد له استقامته، أو أعاد بناء المائل منه، بينما كان موسى يتأمل متعجباً.. حتى هذا العمل الجميل، لم يطلق موسى صبراً عليه، ربما لأن هذه القرية لا تستحق، فقال: ﴿لَوْ شِئْتُ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

هنا توقف الخضر، ليخبر موسى بانتهاء العقد المبرم بينهما، فقد خرق موسى بند الاتفاق ثلاث مرات، وهي كافية لعدم جدوى المواصلة.. نظر الخضر إلى موسى، وقال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، لكنه لن يفارقه حتى

يخبره بسبب تصرفاته الغريبة تلك، التي لم يستطع موسى الصبر عليها. بدأ الخضر أولاً بتفسير ما فعله في السفينة.



لِمَ لَا يَطَاقُ عِلْمُ الْخَضِرِ؟

بدأ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ أولاً بتفسير ما فعله في السفينة، قائلاً لموسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فهو ملك متسلط، يسطو على كل جميل في بلده، فأراد الخضر تشويه السفينة، دون الإضرار بها، حتى يزهد بها جواسيس الملك.. كان فعله رحمة بهؤلاء المساكين، فهي مصدر رزقهم.

وأما قتل الغلام فلا عجب أن تثير احتجاجات الملاحدة، فقد احتج موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلهم، مع أن إجابة الخضر كافية، فقد أخبر موسى أن هذا الطفل مشروع طاغية، قائلاً: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا، هذه الإجابة أقنعت موسى مباشرة.. إجابة تكشف عن العلم الذي لا طاقة للبشر به، فلو علموا به لسالت دماء أطفال العالم، وهل سيترك الإسرائيليون فرعون لو رأوه وهو طفل، وعلموا أنه سيذبح الرضع من أطفالهم؟

هل سيترك ضحايا العالم طواغيت أمثال هولاكو ولينين وستالين وهتلر وبنشار لو وجدوهم أطفالاً؟ بل هل سيسعد البشر لو علم كل فرد منهم بتاريخ وفاته ووفاء أحبابه؟

لكن هذا العلم المؤلم، والذي لا يطاق، لا يخلو من جميل، مثل قصة الخضر مع الجدار، فقد قال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

وَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿١٢١﴾ باليتيمين اللذين كانا سيفقدان مالهما، لو أنهدم الجدار، وانكشف الكنز فسيتم نهبه. وأخيراً كشف الخضر لموسى مصدر علمه، فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ، عَنَّ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

هو علم لا يطاق، وقد أبتلي الخضر به.. ابتلي برؤية مستقبل أسود، ومشاريع مجرمين.. هموم لو حملها البشر لأصيبوا بالاكتئاب، ولما توقفت أنهار الدماء في العالم يوماً واحداً.

هنا افترق موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَام، وليتهما لم يفترقا بهذه السرعة.. أمنية باح بها النبي محمد ﷺ فقال: «يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما»^(١).

افترق النبي عن الولي، فكم هي المسافة بينهما؟



المساحة بين الولي والنبي

النبي وحي لإنقاذ البشر، يحييهم به الله، ويسعدهم.. ينشر التوحيد والعدل.. النبي قدوة.. منارة.. ضوء في قلب الظلمة.. دونه يتيه البشر، ويضيعون.. دونه تجتاح العالم الوثنية والظلم والفساد.. النبي معاناة ومكابدة، وتضحيات وعذابات.. قد يموت مقتولاً أو مسجوناً أو طريداً، وقد يموت حاكماً.. النبي تجسيد للخلافة والنظام على الأرض.

أما الولي فالهيام وكرامات تنهال عليه وحده، وتهمه وحده.. تؤنس وحشته بعد أن جعل الله أنيسه.. يجد سعادته بذكر ربه بعيداً عن البشر.. بعيداً عن الحشود

(١) صحيح البخاري (١٢٢).

والمريدين والاتباع والمداحين في الحل والسفر.. الولي حالة انشغال بالله عن الخلق.. حب لله يجرف القلب، فينسى ما حوله ومن حوله، وروحانية تنفر من الشهرة والجاه والحاشية والمنصب.. باطنه أنقى من ظاهره، وقد لا يكون له قدر بين الخلق.. قد لا يفتقد إذا غاب، ولا يؤبه له إن حضر، لكنه لو أقسم على الله لأبره، والله يقول: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١)، لكنه لا يقدم في حياة البشر أو يؤخر.

أما من من يتوسلون بضريحه أو يتاجرون ويسترزقون بكراماته.. هؤلاء يتجاهلون أنها من عند الله سبحانه.. يتناسون الحي القيوم، ويتمسحون بضريح ميت مرهون بعمله، لا يملك من أمره شيئاً، فضل النبي على الولي واضح، لأنه لا يخرج عما جاء به النبي، ولا يوحى إليه بشرع.

افترق الخضر الولي عن موسى النبي عَلَيْهِمَا السَّلَام، وعاد كليم الله لشعبه المشاكسين، الذين ظلوا محصورين في سيناء أعواماً، لذا اضطروا إلى التعامل مع أهل المناطق المتاخمة لهم، ومع الأيام والأشهر والسنوات صار بعضهم ثرياً، وكان من بينهم تاجر إسرائيلي، بلغ ثراء فاحشاً، لم يصل إليه أحد قبله، يقال له قارون.. تضاعفت ثروته بشكل هائل، حتى آتاه الله ﴿مِنَ الْكُوزِ مَائًا مَفَاتِحَهُ﴾، لنسوا بالعصبة أولى القوة ﴿﴾، أي أن مفاتيح صناديق وأبواب مخازنه، يصعب على الرجال الأقوياء حملها، فكيف بثروته، لكنه أصيب بالجشع.

لم يكتف بعدم شكر الله على ما وهبه من ثروة.. صار يقتل الحيل للسطو على أموال الفقراء الإسرائيليين.. وإذ لالهم.. تحول إلى حوت، يلتهم ضعفاءهم،

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

حتى ضجوا منه، ووصف الله فسادهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، وما من عقوبة أسرع من عقوبة البغي^(١).



قارون رجل أعمال برتبة مجرم

تحول التاجر الإسرائيلي الهائل الثروة (قارون) إلى حوت، يلتهم الفقراء الإسرائيليين، حتى ضجوا منه، ووصف الله فسادهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾، وليس هناك أسرع عقوبة عند الله من البغي.. خاصة البغي على الأقارب.. قد يمهّل الله الكافر والمشرّك حتى البعث، بل قد ينصره إن كان عادلاً، أما البغي فليس هناك أسرع من عقوبته.. سواء جاء من مسلم أو كافر.

ظل قارون في بغيه واستغلاله للضعفاء، حتى انقسم بنو إسرائيل حوله إلى ثلاثة أقسام:

قسم يتمنى أن يكون مثله، مهما كانت وسائل ربحه وحيله.

وقسم يثن من استغلاله وثقل فوائده ديونه، ويضج من رياه.

وقسم ثالث محتسب طيب ناصح.. يخشى عليه من عقوبة، قد تحل به، لذا توجه هؤلاء يوماً للنصحه، وقالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، لكن قارون كأي ثري مغرور.. يرى أن هؤلاء مجرد

(١) سنده قوي رواه أحمد (٢٠٣٩٨)، وغيره من طرق عديدة عن عيينة بن عبد الرحمن الغطفاني، وهو صدوق، عن أبيه وهو ثقة، عن أبي بكرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله العقوبة لصاحبه في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم».

حفنة من الجهلة بالاقتصاد، يقتلهم الحسد، لأنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه، ولذا رد عليهم ردًا طافحًا بالخطورة والكبر، وكأنه لا فضل لله عليه، قائلًا: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

تفرق الناصحون عن قارون بعد أن يشوا منه تجاهله لنصائحهم، فالتف حوله الوصوليون والمنتفعون والمتسولون، وذات يوم خرج من قصره كالطاووس.. يتبخر في الأسواق، مرتديًا الحرير والحلل.. لا يكاد يرى على الأرض سوى نفسه.. وسط تأوهات المتذمرين من أوضاعهم المادية، وهم يقولون: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، لا يهمهم كيف جمع ثروته من حلال أم من حرام، ولا كيف يوظفها.. فنصحهم العقلاء، فقالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنۢ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾.

لكن هؤلاء المعجبين تجاهلوا نصيحة الناصحين، وظلت أعينهم تتابع الطاووس.. لم يعلموا أن جولته الاستعراضية كانت الجولة الأخيرة. عاد قارون لقصره، وقد امتلأ رأسه بالمديح والتبجيل، والتهافت والتسول، الذي أسكره عن مالك الملك، وواهب الأغنياء، الذي وهبه تلك الثروة، فلما دخل قصره.. سمع الناس دويًا في الحي الذي يسكنه، هز المدينة. انفتحت الأبواب، وخرج الناس مذعورين.. انطلقت آلاف الخطوات نحو مصدر الصوت، فإذا بها تلتقي حول هاوية مروعة خلعت القلوب.



حين ارتجت المدينة

انفتحت أبواب المدينة على إثر دوي ورجفة هائلة هزت القلوب والمدينة.. خرج الناس من بيوتهم في حالة ذعر يتلفتون ويتساءلون.. انطلقت آلاف

الخطوات، ثم توقفت أمام مصدر الصوت.. توقفت حول حافة فوهة مرعبة، ابتلعت قارون وقصره وكنوزه، وكل المديح الذي كان يكال له.

تحلق المعجبون والحساد والناصحون والمسحوقون حول تلك الهاوية.. تبحث عيونهم عن قارون.. عن قصر قارون.. عن بقايا من كنوز قارون.. عن أي قطعة ثمينة أو حجر كريم تركه خلفه.

لا أثر لشيء.. تحول المكان إلى قبر للبغي والظلم والغرسة.. قبر بلا غطاء، ولو غطاء من مديح أو حزن أو رثاء.. انتهى قارون بالنسبة لهم.. نفص المعجبون والمتسولون والمداحون أيديهم منه ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ﴾، أصبح ﴿الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾، يحدقون بتلاشي بغيه وظلمه أمام قوة الله وبطشه، ﴿يَقُولُونَ وَيَكُنْ اللَّهُ يَبْطِشُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكُنَّا مِنَ الْكَافِرُونَ﴾.

تحول قارون إلى درس قاس لرجال الأعمال، الذين يغريهم جشعهم بالتحديق في أرغفة الفقراء، ودخلهم المتواضع، وما كان ليكون درسًا لو أدرك أن الله هو من منحه العقل والقدرة على جمع تلك الثروة، وما كان ليجمعها لو أن ربه خلقه متخلفًا أو أبكم أصم.

انتهى قارون، وبقي موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعاني من أمثاله حتى شاخ.. ضعف كليم الله شيئًا فشيئًا، ثم مات بعد أن أمر بوضع الألواح، وما نزل من التوراة في تابوت.. مات في سيناء، أرض الوادي المقدس والنار والنور والته والمعجزات، بعيدًا عن مسقط رأسه.. محرومًا من مهوى فؤاده بيت المقدس، بسبب خذلان الإسرائيليين له، فخلفه أخوه هارون صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ما لبث أن مات أيضًا، فبكى الإسرائيليون نبييهما العظيمين.

بكوا تضحياتهما وبذلتهما، فتولى القيادة يوشع بن نون، الذي استلم تابوت التوراة، ثم مات يوشع، وخلفه أنبياء تعرض بعضهم لحروب، تسببت في

تشردهم، وضياع التابوت، وضياع التوراة معه، إلا ما علق ببعض الذاكرة العشوائية، مع العلم أنه لم يوجد من التوراة إلا تلك النسخة الضائعة، التي لم تكن متاحة إلا لشخص أو شخصين، ثم جاء جيل شعر بالندم على ممارسات سلفهم الاتكالي، الذي استمر الخنوع.. سلف يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، فهل ينجح الجيل الإسرائيلي الجديد في تعويض ما فات.



جيل رباه موسى وهارون

مات هارون بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَام، وبدأ الجيل الذي خرج معهما من مصر بالأفول والانقراض.. كان جيلاً اتكالياً عنيداً مناكفاً.. جيل استمر الخنوع والقمع.. جيل يريد أن تقوم المعجزات على خدمته، وأن تكون الكرامات رهن إشارته، حتى وهو يمارس الموبقات، فسلط الله عليهم من يشردهم ثانية داخل سيناء حتى انتهوا، ثم ظهر هذا الجيل الإسرائيلي الجديد، الذي شعر بالحسرة على ضياع التابوت الخشبي، الذي وضع فيه موسى لوحى التوراة، وأوراق الشريعة التي دونت فيها الأحكام.. جيل شعر بالخزي من خذلان آبائهم لموسى في دخول الأرض المقدسة، لذا ظل دخولها هاجسهم، فتشاور بعضهم، ثم توجهوا نحو آخر نبي لهم، وكلهم تصميم على دخول الأرض المقدسة، قائلين: ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

تأمل ذلك النبي حماسهم، فنبههم إلى أن القتال ليس سياحة، ولا حماساً ويطولات خيالية في قصص تروى.. هو تضحيات وصبر، لذا أراد التأكد من عزمهم، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

فأجابوه مباشرة، ودون تردد، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾، وإذ بالوحي ينزل على نبيهم، ليحدد لهم اسم ملكهم،

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وما إن سمعوا باسم الملك الجديد، حتى لاحت المناكفات والاحتجاجات.

كانت نظرتهم للأمور قاصرة.. محصورة في الوجاهة والثروة، لا في القدرات القيادية، لذا قالوا لنبيهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾، فحسم الأمر بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ثم ذكر دليله على أن طالوت مختار من عند الله، وهو أن الملائكة ستقوم بإعادة التابوت الضائع، قائلًا: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

حدثت المعجزة، ورأى بنو إسرائيل التابوت بين يدي طالوت، فلم يجدوا مفرًا من التسليم له، ومبايعته ملكًا. ومباشرة أصدر أمره بالتأهب لدخول الأرض المقدسة.. عندها بدأ أغلبهم بالمماطلة والتلكؤ، فسار بالبقية، لكن طالوت لم يطمئن لهذه البقية.. أراد التأكد، لذا قام بإجراء اختبار قاس، لمدى صمود هذه البقية الإسرائيلية، فإذ به يصدم بالنتيجة.



داود البطل

سار طالوت بجيشه، ولم تكن الجيوش آنذاك بالأعداد المبالغ بها في الكتاب المقدس أو كتب التاريخ، فسكان تلك المنطقة ليسوا بهذه الكثرة.. سار طالوت لمواجهة جيش أكبر منه وأقوى، يقوده فارس وثني متمرس، ومبارز شرس اسمه (جالوت)، وفي الطريق مر الجيش المؤمن بنهر، فإذ بالوحي ينزل على النبي، يأمره باختبار جيشه.



توقف طالوت، وتوقف جيشه أمام النهر، ثم استدار نحوهم، وهتف بهم طالباً منهم عدم الشرب من النهر، أكثر من ملء الكفين، قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، لم يأبه الإسرائيليون بهذا الاختبار. نزل الجيش حول النهر، وتسابق الجند نحوه يغتسلون، ويملأون القرب والمزادات، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

كان طالوت ينظر إلى المشهد على حافة النهر بحسرة.. نظر للمؤمنين الصامدين معه، فإذ بهم لا يتجاوزون (بضعة عشر وثلاث مئة)، والتفت إلى تلك الكثرة.. حذر بهذا الغشاء، فطلب منهم البقاء في أماكنهم أو العودة، فلا خير في جيش لا ينفذ الأوامر، ولا نفع في جيش لا يعرف الصبر، ثم طلب من القلة الباسلة أن تعبر النهر معه.

تحركت الجنود خلفه، وبقي المخدولون يحرسون قربهم.. ساروا حتى اقتربوا من جيش جالوت، وإذ ببعضهم يصاب بالصدمة.. إنهم أكثر من ضعف جيش طالوت، فحصل حوار جميل داخل الجيش المؤمن.. حيث قال المصدومون: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذُنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

شدت تلك الثقة بالله من أزر المصدومين، فعزموا على القتال.. بدؤوا بالدعاء، فلا مفر من الله إلا إليه، وما خرجوا إلا نصرة لدينه، ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، وفجأة دوى صوت مخيف.

صاح جالوت الشجاع، طالباً المبارزة، وإذ بفتى مؤمن متواضع يتخلل الصفوف.. فتى جسور، لا يهاب جالوت ولا الموت، اسمه داود.. كان الوثنيون يحدقون بالفتى، وكأنما يحدقون بمتهور باع نفسه.

دنا داود من جالوت، وسل كل منهما سيفه، فإذا بسيف داود يعاجل جالوت،
فإذا هو يتلبط على الأرض.

خر القائد الوثني، فانهارت معنويات الوثنيين، وهم يرون فتى يجهز على
قائدهم وأشجعهم.. نصر لم يحمل داود نحو الغرور.. حمله إلى شيء أرقى.



داود بين الجبال وأسراب الطيور

انهارت معنويات الجيش الوثني، بعد سقوط قائده جالوت على يد الفتى
داود.. تحولوا إلى شظايا.. انقشع غبار المعركة، فإذا هم بين قتيل وأسير،
وفلول هاربة.. لم يتبخر داود، كما تبخر قارون.. لم تزد ميادين الفداء
إلا تواضعًا.. ظل جنديًا مخلصًا لملكه طالوت.. يتهادى خلفه نحو بيت
المقدس في موكب.. يحمل التابوت الخشبي، الذي يحتوي الألواح وبقايا
التوراة، التي ضاع معظمها.

لم يستغل داود منصبه في التسلط، بل سخر قدراته في حماية دينه وشعبه
ودياره المقدسة.. ظل فتى عابدًا مخلصًا لله.. صوامًا قوامًا، حتى أثنى عليه
نبينا ﷺ فقال: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر
يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه،
وينام سدسه»^(١).

أحبه شعبه حتى شيدوا له عروشًا في قلوبهم، وبايعوه ملكًا عليهم بعد
رحيل طالوت، ﴿وَأَتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، فبسط
حكمه على القدس والديار الفلسطينية حولها، وظل متواضعًا نزيهاً لدرجة

(١) صحيح البخاري (٣٤٢٠).

أنه كان «يأكل من عمل يده»^(١)، فاصطفاه الله نبيًا، وأنزل عليه الوحي، وأجرى سبحانه على يديه معجزات، لم تكن لأحد من الأنبياء قبله.

كانت معجزات داود تذهل البشر.. تخطف قلوبهم.. تحلق بأرواحهم في عالم غير العالم، فقد أنزل الله عليه كتاب (الزبور)، ووهبه صوتًا تماهت فيه القوة بمنتهى العذوبة والجمال، فكان يتغنى بتلاوة الزبور، و«ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به»^(٢).

زادت ابتهالات داود روحانية، بعدما أمر الله الجبال والطير أن تردد معه، فقال: ﴿يَجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾، إذا شدا عليه السلام بين الأودية والجبال وتغنى.. رددت الجبال معه تسبيحًا لله وتقديسًا، فإذا الكون لوحة تأخذ شغاف القلب وتذهل العقل.. تحلق فيها الطيور فوق داود.. تحوم حوله أسرابًا سارحة وبارحة، مسبحة لله حين شروق الشمس، وحين الغروب.. في أعذب الأوقات، وأكثرها روحانية.

كلمات وأجنحة وأصوات عذبة، تشهد بنبوته.. يقول الله عنها: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾^(١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، عالم حالم، يأسر المشاعر، فتفيض العيون، وكأن الكون محراب لا حدود له، وكأن السامع والمشاهد يحلقان في معراج نوراني مهيب.

لم تكن معجزة الصوت الساحر، المعجزة الوحيدة لداود.. هناك خارقة أخرى، لا تقل إبهارًا.



(١) صحيح البخاري (٢٠٧٢).

(٢) صحيح البخاري (٧٥٤٤).

داود خائف

لم تكن معجزة الصوت الساحر المعجزة الوحيدة لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ.. هناك خارقة أخرى لا تقل إبهارًا تنال بين يدي هذا النبي الأواب.. تماهت لديه العذوبة الأخاذة بالقوة الجبارة.

لان له الحديد في معجزة يراها المرء، فيوقن أنه أمام نبي.. كان يمد يديه نحو الحديد الصلب، فيمسكه ويعالجه، فإذا به يلين بين أنامله، كالعجين أو الصلصال، دون عناء أو جهد.. دون قفازات أو لهب أو أفران.. معجزة من معجزات الخالق سبحانه، الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. والذي يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾.

أمره الله بصنع دروع سابغة، تغطي أطراف جنده وتحميهم، وألهمه صنع المسامير بدقة، تتناسب مع الحلقات، حيث يقول سبحانه: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَنِقَرَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صُلْحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، ورغم أنه كان حاكمًا وعابدًا وقاضيًا عادلاً، إلا أنه تعرض يومًا لما يتعرض له البشر.

فتنه يومًا من الأيام عارض من عوارض الدنيا، فمال في حكمه إلى عاطفته، فإذا به يفاجأ، وهو في أنقى لحظات اتصاله بالله، وأهدأ أماكن عزله.. في غرفة تعبده المغلقة، التي تسمى المحراب.. والتي يبدو أنها كانت غير مسقوفة.. يفاجأ في لحظات الخلوة تلك بشخصين يتسوران المحراب، ويتسلقان جدرانها، دون أن يشعر بهم الحرس.

ارتجف قلب داود، وهو يراهما أمامه.. يقطعان عليه خلوته دون إذن أو موعد أو سابق إنذار.. شخصان غريبان ليسا من أهله، ولا من ساكني القصر، بل ولا حتى من أهل مدينة القدس أو مملكته. يقبلان عليه.. يحذفان به، فيقرأ أن في نظراته ارتباك الخوف ﴿دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ﴾،



اطمأن نبي الله، وهدأت مشاعره، فعرف الغريبان نفسيهما، وقالوا: ﴿خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

وقبل أن يسألهما داود عن قضيتهما، استرسل أحدهما، وترافع عن نفسه، قائلاً: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾. لم يأخذ الأمر كثير تفكير من الملك العادل، فقال للمترافع: ﴿لَقَدْ طَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وبعد أن أصدر داود حكمه انتبه.. أدرك أن هذين المتسللين ملكان، بعثهما الله إليه؛ لتنبيهه إلى خطئه.



إنابة داود وتوبته

انتبه داود.. تذكر صلى الله عليه وسلم خطأه، وأدرك أنهما ملكان، بعثهما الله إليه لتنبيهه، حيث يقول الله: ﴿وَلَقَدْ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، سجد ندمًا وتوبة وإنابة إلى ربه.. ابتهل إلى الجبار العظيم، الذي منحه ما لم يمنح غيره طالبًا الصفح والغفران، فقال الرحيم الرحمن: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾.

ليس هناك من لا يخطئ، وارتكاب الخطأ من طبيعة البشر، والنبي صلى الله عليه وسلم يحلف قائلاً: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(١)، ولذا فمهمة الأنبياء تلخص بأمرين: تصحيح العقائد بالتوحيد، لكن من غير إلزام أو جبر، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فالحساب على العقائد يوم الدين.. يوم البعث

(١) صحيح مسلم (٢٧٤٩).

والهول والحساب ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

أما المهمة الأخرى للأنبياء، فالزامية لا خيار، ولا استثناءات فيها، وهي إقامة العدل، ولذا ألزم الله داود بتنفيذ هذه المهمة، قائلاً: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

ظل داود ينشر العدل، ويحارب الظلم والفساد، حتى قويت دولته.. يعاونه ابنه الأكبر سليمان، الذي قال الله عنه: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وأنزل عليه الوحي في حياة والده، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد مارسا مهمة القضاء جميعاً، بل أحياناً يترافع الخصوم عند داود ثم عند سليمان.

كانوا يأتون داود أولاً، ثم يترافعون عند سليمان، وكأنها عملية استئناف.

ففي أحد الأيام وفي البرية.. كان هناك امرأتان تنتزهان، وربما ترعيان الغنم، ومعهما طفلان صغيران.. كان الطفلان يلهوان، بينما انشغلت الأمان بأمر ما، وفي لحظات الانشغال تلك اقترب مخلوق مخيف من الطفلين.. دنا فإذا هو ذئب، قد كشر عن أنيابه.. هاجم الذئب أحد الطفلين واجتره بعيداً.

التفتت المرأتان على الصراخ، فإذ بالفاجعة.. الذئب يجتر الصغير ويمزقه، ويمزق معه قلب الأم، التي صرخت وصرخت، ولكن بعد فوات الأوان.. فقدت الأم المفجوعة صوابها، لدرجة ذهبت معها لداود تدعي فيه أن ابنها لم يمست، وأن المأكول هو طفل تلك المرأة.



أم تفجع مرتين أيام داود

افترس الذئب أحد الطفليين واجتره بعيدًا، فكادت أمه أن تفقد صوابها، بل فقدته، حين توجهت نحو داود صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدعي فيه: أن الطفل الذي افترسه الذئب هو ابن صاحبته. فحكم داود لها، فاستأنفت الأم الحقيقية الحكم عند سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقفت المرأتان أمامه، فتأمل تصرفاتهما في أثناء مرافعاتهما، فأصدر حكمًا مفجعًا.. هتف بحاجبه، وأمره بأمر اتسعت له عيونهما، وارتجف له قلباهما، وهو يقول: «اثنوني بالسكين أشقه بينهما».

سكتت المدعية، وانهارت الأخرى.. لا تريد له الموت.. ناشدته الرحمة، وهي تقول: «لا تفعل، يرحمك الله هو ابنها»^(١) سكت الجميع، وإذ بسليمان ينطق بحكم مفاجئ.. أمر بتسليم الصغير للمرأة، التي ناشدته ألا يؤذي الصغير، لأن الأم لا يمكن أن تضحي بطفلها، ولو كان سيؤخذ منها.

وفي قضية أخرى حدثت ذات ليلة، حين أهمل أحدهم غنمه، فساحت في الأراضي المجاورة، حتى انتشرت داخل بستان عامر بالثمار.. نفشت الغنم في الزرع، وأكلت الثمار، وعاثت حتى أصبحت المزرعة حطامًا.

أشرقت الشمس، واستيقظ صاحب المزرعة، فهاله ما جرى لمزرعته فهرع إلى داود يشكو صاحب الغنم، فحكم له حكمًا، جعله يتوجه نحو سليمان، الذي حكم له حكمًا آخر، فلم يعاتب الله داود على اجتهاده، بل جعل للقاضي المجتهد أجرًا وإن أخطأ، ما دام لم يحكم بهواه، أما إذا انحاز إلى طرف على طرف، فيكون القضاء وبألا على صاحبه، ف«القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض

(١) صحيح البخاري (٦٧٦٩).

لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة»^(١).

كانت مدة حكم ونبوة داود وسليمان حافلة بالعدل والعجائب والخوارق، وبالقوة الهائلة في جسد كل منهما وسلطته، لكن سنة الله ماضية.. كبر داود وشاخ، ثم مات، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾، ورثه في الحكم، وليس في المال، فالأنبياء لا يورثون: ميراثهم يوزع صدقة على شعوبهم، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»^(٢) «لا نورث ما تركنا صدقة»^(٣).

تولى سليمان الحكم بعد وفاة والده، وسار على نهجه في العدل والقوة، واصطفاه الله نبياً، وآتاه ملكاً يفوق ملك والده، وحباه بمعجزات، خاطب شعبه عنها يوماً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وفي أحد الأيام كان يتفقد خيله المحببة.. يتأملها معجباً بها، لكن هذا الإعجاب أدخله في عالم من الحزن والندم.



توبة سليمان

سار سليمان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نهج والده في العدل والقوة، وآتاه الله ملكاً يفوق ملك والده، فذات يوم كان مشغولاً، بتفقد خيله ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفِينَتُ الْأَخْيَادُ﴾، معجباً بجمالها وأصالتها وحسنها.. قد صفت أمامه..

(١) سننه قوي رواه الترمذي (١٣٢٢) وغيره من طرق عن سليمان وعبد الله ابني بريدة عن والدهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال. وابني بريدة ثقتان.

(٢) سننه صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكيع وسفيان إمامان ثقتان، وأبو الزناد وشيخه عبد الرحمن بن هرمز ثقتان أيضاً. والحديث في الصحيح كما في الحديث الذي يليه.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٣٣).

يتأملها، ويتحدث لمن حوله عنها.. يمسح نواصيها وأعرافها.. ظل كذلك لا تشبع عيناه من تمليحها والشغف بها، حتى توارت الشمس بالحجاب، وغابت خلف الأفق.

أفاق سليمان من عالمه، فإذا إحدى الصلوات المكتوبة آنذاك قد فاتته، فحزن حزناً شديداً، وأمر بإبعاد الخيل عنه، وهب للصلاة والدعاء والإنابة طويلاً، وبعد أن فرغ التفت لمن حوله، فباح لهم بذنبه، ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

كان ذكر الله زاد الأنبياء على كل حال وفي كل حين.. ذكر الله هو غذاء أرواحهم.. ذكر الله هو الشلال، الذي يغسل همومهم ومعاناتهم، ويخفف من ضغط المسؤوليات الثقيلة عليهم.

هدأ غضب سليمان، فطلب من الجند إعادة الخيل، وقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾، ظل يمسح قوائمها الرشيقة وأعناقها.. تلامس أنامله أعرافها الناعمة برفق، وكأنه يعاتبها، ويعاتب حبها.

لم تكن فتنة الخيل الفتنة الوحيدة، التي مرت بسليمان ﷺ، ولكن لأنه ولد ملكاً ابن ملك.. كان شغفه وحلمه بدولة قوية، تخدم التوحيد لا حدود له.. كان يحلم بسلطة تذل لها قوى الشر، لذا دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، هكذا كان حلم سليمان.. ملكاً لا يداني في نشر التوحيد والعدل.

لم تكن تلك الدعوة الوحيدة، فقد قام سليمان بإعادة بناء المسجد الأقصى، وبعد أن بناه سأل الله ثلاثة أشياء.. سأل الله:

«حَكَمًا يَصَادَفُ حُكْمَهُ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه.

وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه».

ولذا علق النبي محمد ﷺ على دعوته الثالثة، فقال: فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطاه إياه^(١).

هطلت زخات الهبات الإلهية على سليمان.. لا تدري أصبح ملكًا في السماء أم ملكًا على الأرض، أم ملكًا في البحار؟.. إنها باختصار نفحة من كرم مالك الملك، الذي يقول: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، عطاء بلا حدود، وملك بلا مقاييس، ما زاد سليمان إلا تواضعًا للجبار سبحانه وتعالى.



عجائب مملكة سليمان

ناشد سليمان ﷺ ربه عز وجل ملكًا فريدًا.. ملكًا استثنائيًا في قوته وهيبته، لا لباهي به، بل لينشر به التوحيد، ويحقق به العدل.. دعا الله، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، وإذا بزخات الهبات الإلهية تهطل على سليمان، ففي السماء ﴿الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾، ﴿الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وكان الآية تحدد أبعاد دولة سليمان بالمسافة، التي يقطعها المسافر تلك الأيام في مدة شهر.. كان سليمان يتحكم في الريح، ضمن تلك المساحة.

ليست الريح فقط.. الطير سخرت له أسرابًا وأفرادًا، ومن التسخير أن ألهمه

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٦٦٤٤) وغيره من طرق عن الثقات ربيعة بن يزيد و أبي زرعة السيباني وغيرهم عن الثقة عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا.

الله القدرة على التواصل معها، وتوجيهها حيث يريد، أما على الأرض فلم يكن لسليمان من الجنود الكثير، نظرًا لقلة الإسرائيليين وتلكتهم، لذا عوضه الله بقوى خارقة.

سخر له الجن.. حتى الكفار ﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ۖ﴾ (٣٧) وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴿﴾، أما مردة الجن فتم تقييدهم، وإرغامهم على الانقياد له، وأعطاهم الله القدرة على الظهور والبناء والتشييد له: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبَ وَتَعْمِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾، بل إن الجبار سبحانه حذرهم من التمرد على نبيه، وتوعدهم، فقال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرٍ أَنَا ذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وكما ألان الله الحديد لوالده داود، فقد ألان الله لسليمان النحاس، بل أساله له كي يصنع به ما يشاء، فقال: ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ بَيْنَ الْقَاطِرِ﴾.

هذا هو ملك سليمان: عالم من العجائب والمعجزات، يمتد من لجج البحار إلى ذرى السماء.. قوى بسط سليمان من خلالها العدل والنظام ونشر التوحيد. لم يتعرض هذا النبي لما تعرض له بقية الأنبياء من الاضطهاد والتشريد والفقر والمعاناة.. كان مهابة تجله الممالك المجاورة، وتخطب وده وتتودد إليه، فلا أحد يستطيع الصمود أمامه أو استفزازه، فما زاده ذلك إلا تواضعًا مع الصغير قبل الكبير، ومع الضعيف قبل القوي.

ذات يوم ﴿وَحِشْرَ لِّسَانٍ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، ويتم ترتيبهم بحيث لا يتقدم أحد، أو يتأخر عن موقعه، الذي وضع فيه، وفي أثناء الترتيبات رصد سليمان لغة لا تنتمي لعالم البشر.. لغة خائفة مرتبكة، تتوجس خشية جيشه المهاب، وما إن رصدها حتى انصدع قلبه خشوعًا وامتنانًا لله سبحانه.



سليمان غاضب

رصد سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أثناء تفقد جيشه لغة خائفة، وحركة مرتبكة.. لغة لا تنتمي لعالم البشر.. صادرة من قرية للنمل قريبة من موقع الجيش.. نملة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

انصدع قلب سليمان امتناناً لله، وهو يرى ما حوله من عوالم، خصه الله بتسخيرها من بين جميع الأنبياء، ﴿فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، فالذي منحه هذه النعم قادر على أن يسلبها منه.

تفقد جيش الإنس وجيش الجن، ولما توجه للجانب المخصص للطير، الذي يبدو أنه قد حضر عن كل نوع من الطير طائر يتواصل معه.. رأى مكان الهدهد شاغراً، فهتف غاضباً: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ.

لم يجبه أحد، فلا أحد وسط هذه المملكة مشغول بغير وظيفته، أما سليمان فكما هو أواب وشاكر.. هو حازم جداً، لأن مملكته تمتد من أعماق البحر إلى ذرى السماء.. مملكة تجمع المتناقضات.. إن لم يكن الحزم والعدل نهجها، تتفلت شظايا، لكن غضبه هدأ حين رأى الهدهد يرفرف نحوه بعد مدة.. يقبل بكل ثقة، ودونما ارتباك أو اعتذار، فقد وقع على مشهد شده وأشغله، وما إن هبط حتى قال مباشرة: ﴿أَحْطَطُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَاءٍ يَقِينٍ﴾، ثم استرسل، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمَّا عَزَّشْتُ عَظِيمًا﴾، ثم بين عقيدتها وعقيدة قومها الوثنية، فقال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.



لم يتوقف عند ذلك.. ظل يتكلم مبيناً استهجانهم لوثنيتهم، وقائلاً: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴿٢٦﴾.

كان الحضور يحدقون بهذا الطير الجميل، وتاج الريش الملون، الذي يزين رأسه دون أن يفهموا شيئاً.. كانت لغة ثنائية بينه وبين سليمان صلى الله عليه وسلم، الذي لم يصدقه ولم يكذبه، بل قرر التحقق من أقواله قائلاً: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، هتف النبي الملك سليمان بخدمه طالباً إحضار قلم ورقعة للكتابة. ثم كتب فيها: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) **أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴿٣١﴾.



بلقيس أحكم من وزرائها

استدعى سليمان صلى الله عليه وسلم كاتبه فأتى، ووضعت المحبرة والرقعة أمامه، فغمس القلم في المحبرة بانتظار ما يملأ عليه. نظر سليمان إليه، وبدأ الإملاء: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣٠) **أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴿٣١﴾، سطر واحد فقط، لكنه يغني عن خطب لأنه من سليمان.

جف الحبر، فطويت الرسالة، ونظر سليمان للهدهد، وقال: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، ثم وضعت الرسالة بطريقة تمكن الهدهد من حملها وإلقائها.. رفرف الطير الجميل، أياماً فوق الأودية والصحاري، بل وفوق الجبال، فقد أعطي القدرة على الارتفاع لمستويات شاهقة.. يتوقف لشربة عند نبع، أو يأوي لغصن فينام، حتى أشرف على معبد الشمس وقصر بلقيس.. ينتقل من بستان إلى فناء، حتى رأى الملكة التي

تهادت، وحولها حاشيتها، ثم ارتقت الدرج العريض، نحو عرشها العظيم.
المرصع بالأحجار والمعادن الثمينة.

رفرف الهدهد، فألقى الخطاب. فاهتزت الملكة من المشهد، وهي التي
تعيش في بيئة لا تخلو من السحر والشعوذة.. مدت يدها نحو الرسالة، وحلت
رباطها وفتحتها. ارتجف قلبها من سطر واحد.. من اسم المرسل.. من طريقة
إيصاله، ثم هتفت بمستشاريها ووزرائها، وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِلَيَّ الْفَيْ إِلَى كَنْبِ كَرِيمٍ
(٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

تصفحت الوجوه المأخوذة والأعين حولها.. كانت امرأة عاقلة، وملكة
حكيمة.. لا تنفرد برأيها، ولا تتعصب له.. كانت تقود شعبها عن طريق
المشورة، لذا قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾.
فإذ بردة فعل عنيفة، تصدر منهم.. أبدوا استعدادًا للقتال والحرب، قائلين.
﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِآيِسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

ثمنت بلقيس حماس وزرائها، لكن هذه المرأة التي خرجت للتو من غرفة
تبرجها، ومن أمام مرآتها وأدوات زينتها وكحلها، كانت أحكم وأكثر اتزانًا من
مستشاريها، فهذا الملك الذي استطاع إيصال كتابه بهذه الطريقة، قادر على
أن يفعل بمملكته العجائب، لذا فلن تقامر بحكمها وبشعبها أمام ملك كهذا.
حتى مع افتراض أن قوتها مثل قوته، ففي الحرب يخسر الجميع حتى المتصر.
لذا قالت لهم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، حكمة
أيدها الجبار سبحانه، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تجاهلت بلقيس خيار الحرب، وقررت القيام بخطوة لجس نبض سليمان.
علها تكتشف المزيد عن شخصيته وأهدافه وسر جراته.



بلقيس في الطريق

قررت بلقيس القيام بخطوة لجس نبض سليمان ﷺ واكتشاف شخصيته وأهدافه وسر جراته. فقالت لوزرائها: ﴿وَأِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أمرت على الفور بإعداد هدية ملكية فاخرة، عليها تشتري بها أمن دولتها. أحضرت الهدية لها، فعبرت عن رضاها عنها، فوضعت على راحلة أو وراجل، ثم انطلقت القافلة تحمل الهدية وسط حراسة عبر الجبال والأودية.. انطلقت شمالاً نحو الشام.. عبرت الأرض المقدسة الأولى في الحجاز، وظلت تسير وتتوقف، حتى حطت ببيت المقدس.. سأل قائد القافلة عن مقر الحكم، فدلوه، ولما أصبحوا أمام بواباته، كشفوا عن هوياتهم، وطلبوا مقابلة الملك.

سمح النبي الملك سليمان ﷺ لهم بالدخول، فتهادى الرجال يحملون هدية فاخرة، ثم وضعوها بين يديه. قاموا بفتحها، وقلوبهم مفعمة بالسرور.. ظنّ منهم أن سليمان طالب دنيا، وقد يطلب المزيد، وقد يبتزهم.. كل شيء وارد.. كل شيء مقبول.. المهم أن لا يشن حرباً.

حذق ﷺ بالهدايا.. جالت عيناه بين بريقها، ومهارة صنعها وصياغتها، فإذ به يشتاط غضباً، ويقول لمبعوث بلقيس: ﴿أَتُحَدِّثُنِي إِسْرَافًا وَعَبَثًا﴾. فإذ به يشتاط غضباً، ويقول لمبعوث بلقيس: ﴿أَتُحَدِّثُنِي إِسْرَافًا وَعَبَثًا﴾.

ارتجفت المبعوث، وتحولت نظرات الوفد المسرورة إلى نظرات خوف، وإذ بسليمان يزيدهم رعباً، ويقول: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. فإذ بسليمان يزيدهم رعباً، ويقول: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِمِثْلِ الَّذِي كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ارتجفت القلوب، واهتزت الأيدي، وهي تغلق الصناديق، ثم تضعها على ظهور الدواب التي أحضرتها، ثم انشلت القافلة عائدة من حيث أتت.. مرت

الأسابيع طويلة ومملة على القافلة الحزينة، حتى دخلت أرض سبأ.. توجهت نحو القصر، ولما وصلت طلب المندوب مقابلة سيده.. كانت الملكة بلقيس تنتظره على أحر من الجمر، فيأذبه يربعها بجواب الملك سليمان وتهديده.

تماسكت الملكة، وظلت على رأيها في عدم المجازفة بمكتسبات دولتها.. فكرت وفكرت، فقررت تجنب دولتها ويلات الحرب وخرابها، مهما كان الثمن الذي ستدفعه، لذا قررت اكتشاف عالم سليمان بنفسها، وعلى الفور بدأ الموظفون بإعداد الرواحل والمركبات، وحملت الصناديق المليئة بأزياء الملكة وعطورها وأدوات زيتها، وبعد أيام أصبح كل شيء جاهزاً.

الرواحل.. الزاد.. الجند. القافلة، كلها رهن إشارة الملكة، التي عينت من ينوب عنها في إدارة الدولة، ثم انطلقت نحو الشام.. هذا ما كان يحدث في سبأ، أما الأرض المقدسة.. في بيت المقدس فالحركة هناك أشد سرعة ورعباً.



أسرع الجن وأقواهم

كانت ملكة سبأ في مركبها محفوفة بموكبها في طريقها للشام.. تحف بها قافلة مهيبه، محاطة بالجند المدججين.. سارت بين جبال الجنوب، وتجاوزت جبال الحجاز، وحاذت الساحل مرات.. هذا ما كان يحدث في الطريق، أما في بيت المقدس، فالوضع غاية في الاستنفار، فقد وصل الخبر لسليمان، لذا أراد أن يستقبلها بمشهد، يريها شيئاً من آيات الله المبهرة، التي تكرم بها سبحانه عليه، وسخرها له.

أراد أن يريها قدرة الله، الذي تركت عبادته، واتجهت هي وقومها لعبادة الشمس، التي لا تستطيع تغيير اتجاهها ولا مواعيدها.. لا تستطيع حتى التخفيف من حرارتها، التي تتفجر وتضطرم في جوفها. من أجل ذلك استدعى



سليمان أقوى الجن وأسرعهم، وربما استعان بملك من الملائكة معهم، وهم الآن أمامه، ورهن إشارته.

حَدَقَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلْكَ الْقَوَى الْخَارِقَةِ، الْمُصْطَفَةِ أَمَامَهُ، وَالْمُسْخَرَةِ لَهُ، ثُمَّ هَتَفَ بِهِمْ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، هُنَا نَطَقَ عَفْرِيَتْ مِنْ عَفَارِيَتِ الْجِنِّ، مَبِينًا سَهْوَةَ الْأَمْرِ، وَقَائِلًا: ﴿أَنَا أَنَا بِكَ يَدٌ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، سَكَتَ سَلِيمَانُ بَانْتِظَارِ عَرْضِ آخِرٍ، فَالْخِيَارَاتُ أَمَامَهُ فِي بَدَايَاتِهَا، وَهِيَ عَدِيدَةٌ، وَإِذْ بِشَخْصٍ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْسُمُ الْأَمْرَ.. شَخْصٌ تَلَخَّصَ قُدْرَتَهُ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ، هِيَ أَنْ ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وَقَدْ عَرَضَ اسْتِعْدَادَهُ لِاحْتِضَارِ عَرْشِ بَلْقِيسَ فِي فِتْرَةٍ زَمْنِيَّةٍ قِيَاسِيَّةٍ، وَهِيَ أَقْلُ مِنْ مَدَّةِ إِرسَالِ شَخْصٍ إِلَى أَقْصَى مَكَانٍ يَرَاهُ سَلِيمَانُ بِوَضُوحٍ، ثُمَّ عَوْدَتِهِ.

قال هذا الشخص: ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا أَنَا بِكَ يَدٌ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

وفي دقائق معدودة رأى سليمان عرش بلقيس أمامه، فانصدع قلبه إجلالاً للجبار سبحانه وتواضعاً وشكراً، فسليمان نبي وولي يشعر بالقرب من الله مع كل نعمة، ولذا لما رأى العرش ﴿مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، تأمل سليمان العرش، فبدت له فكرة قد تسهم في إيقاظ بلقيس من خرافة الوثنية، فطلب من خدمه أن يضعوا بعض اللمسات على شكل العرش للتمويه، قائلاً: ﴿نَكْرُوهَا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدُونَ أَمْ تَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

أخذ العرش إلى ورشة ما.. وبدأ العمل عليه، بينما كانت صاحبه قد تجاوزت مدائن صالح ووادي القرى، حتى أشرفت على تلك التلة المقدسة. هنا توقفت القافلة، ونزل المسافرون، وعسكر الجند، وضربت خيمة كبيرة للملكة.



وكشفت عن ساقها

عسكرت قافلة الملكة بلقيس في الأرض المقدسة.. قرب قصر النبي سليمان صلى الله عليه وسلم، الذي كان يعد لها المفاجآت، وبعد أن استراحت، قامت بالاستعداد لدخول القصر.. اغتسلت من وعشاء السفر، وتزينت، ولبست أزياء ملكية فاخرة، وتهيأت للقاء أعظم ملك على الأرض، وقلبها ممتلىء بالهيبة.

أقبلت وحولها حاشيتها، والانبهار يلون وجوههم، مما يحيط بهم من تماثيل وجفان ضخمة، وحدائق ساحرة.. ظلوا يسرون، حتى أصبحوا أمام بوابات القصر فتوقفوا، حينها نزلت وتهادت، فاستقبلها الخدم بكل احترام.. دلفت البوابة، فإذا بالفخامة تصدمها وتسحرها، وبعد تجاوزها للمر المبهر، أوقفوها بكل ذوق أمام عرش عظيم، وضعوه في مكان زاده عظيمة.. التفت إليها الخادم، وقال لها: ﴿أَمْ كَذَّاءٌ عَرَشُكَ؟﴾

تأملته، وقد حيرها المشهد، وأذهلها السؤال، ثم قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾، ثم استأذنها بالموافاة، وبعد خطوات من الدهول، دلفت قصرًا آخر، أو بهوًا هائلًا، يسمى الصرح.. تأملته، فإذا بالمياه تتلألأ في سقفه.. تنساب في جدرانها، وتستقر على أرضيته.. أجواء تعصف بقلبها وعقلها، وهي ترى كل شيء يتلألأ فوقها وحولها ومن تحتها، ترددت في خوض النهر.. أبهرتها رؤية سليمان على عرشه في أقصى الصرح، وهي تتساءل: كيف تطفو قوائم عرشه على الماء، ولما همت بالتقدم، مدت يديها إلى فستانها السابغ، ورفعته بهدوء، وكشفت عن ساقها، كي لا يتبلل الفستان بالماء.

وقبل أن تخطو قدماها توقفت.. أفلتت مقدمة فستانها.. حينها هتف سليمان طالبًا منها عدم الحاجة لرفع ثوبها، فهو لن يتبلل بالماء، لأنه لا وجود للماء أصلًا.. أذهلها صلى الله عليه وسلم حين قال لها: إنها أمام ﴿صَرْحٍ مُّمَرَّدٍ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾، الجدران والممرات والسقف، وكل شيء حولها ممرد من زجاج.. فن أخذ،



يوحي للمشاهد بأن القصر مشيد من الماء.. براعة وإعجاز انهارت أمامه بلفيس.. تلاشت وثنياتها، ولمعت عيناها، إجلالاً للخالق الجبار.. للواحد الأحد، الذي منح عبده سليمان ذلك، ثم انصدع قلبها، حين علمت أن عرشها هو ذلك الذي رآته في مقدمة القصر.. تهدج صوتها، خشية لله، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

كان نبي الله يرقب المشهد، دون أن يتسرب الغرور إلى قلبه.. مشهد زاده إيماناً وامتناناً، وشكراً لله، وعدلاً وتواضعاً مع خلقه، فهو الذي أعطاه، وهو القادر على سلبه إياه.. مملكة من يراها يظنها خالدة، لكنها مملكة عظمى، اختفت بلمح البصر.



مملكة سليمان مملكة استثنائية

حكم سليمان مملكة عادلة قوية، لكنها كانت استثنائية في كل شيء، لأنها لم تكن، ولن تكون لغيره.. كانت مختلفة تماماً عن أي مملكة على الأرض.. مختلفة حتى عن مملكة والده داود، حيث إنه لم يكن للشعب أي دور في تمدها الخاطف والمبهر، أما سر هذا التمدد الكبير والخاطف لمملكة سليمان، فليس لقوة البشر دور يذكر فيه، فشعبه هم بنو إسرائيل وهم قلة.

السر كان في المعجزات والخوارق والجنود غير البشرية، التي سخرها الله لنبيه: الريح.. الطير.. الجن.. إسالة النحاس.. الإبهار في الصناعات المختلفة، حتى قصره المسمى (الصرح)، لم يكن لليد البشرية دور في بنائه.. كان عامراً بزعماء الجن، لا برؤوس البشر.. كانوا مسخرين له.. يوكل إليهم المهام الشاقة في داخل مملكته، من أقصاها إلى أقصاها.. مهام صعبة، ليست ضمن طاقة البشر.. كانوا مذللين لا يجرؤون على التحدث، قبل أن يحدثهم.

تلاشت في عهده خزعبلات شياطينهم، التي يلقونها على السحرة، ويخدعون السذج بها، ومن تلك الخزعبلات ادعائهم علم الغيب.. اتضح كل ذلك حين جلس سليمان على عرشه، وهو يشعر بتعب شديد، وحوله خدمه من كبار الجن، وإذ به يغير من طريقة جلوسه، فانحنى على عصاه، التي تسمى المنسأة، واتكأ عليها، وفجأة شخص بصره، وسكن جسده.. صعدت روحه إلى بارئها.

مات سليمان، والجن تجول خارج القصر.. لا أحد ممن في الداخل، يستطيع الاقتراب منه أو مبادرته.. معتقدين أنه يفكر أو يتأمل، أو أنه سابع في مناجاة قلبية مع الله، ولا أحد ممن في الخارج يجرؤ على الدخول.. مرت الأيام تلو الأيام، وبنو إسرائيل خارج القصر منشغلين بديناهم كالعادة، بينما كان الجن يعملون بجد دون توقف.. يعانون من تلك التكاليف، التي لا يدرون متى تنتهي، وفي أحد الأيام دبت إلى عصا سليمان حشرة الأرض، التي تسمى دابة الأرض، التي تنخر الخشب.. تمدد نخرها ببطء، حتى تفتت أسفلها، وفجأة تردد في الصرح دوي ارتطام بالأرض.

حذق الجن بمصدر الصوت، فإذ بسليمان ممدد على الأرض.. نهاية قال الله عنها: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، فتحت أبواب القصر، ودخل أبناؤه وزوجاته، وتفرق المردة والجن.. هنا بدأ تآكل الدولة العظمى، دون أن يسل عليها سيف أو ترمى بسهم.



انهيار مملكة سليمان

فتحت بوابات القصر المهيّب، فدخل أبناء سليمان عَلَيْهِ السَّلَام وزوجاته الصرح ييكون.. لم يعد الصرح مبهرًا كما كان.. أصبح خواءً بلا روح، فسليمان لن

يعود إليه.. لن يتهادى بعد اليوم في ممراته الفاخرة، خلا عرشه من التسبيح والتهليل والامتنان لله الواحد القهار.. خلا من إلقاء الأوامر على الجن والطيور والريح.

مات سليمان، فارتخت قبضته، وانفلتت خيوط الدولة الهائلة.. بدأت تتآكل.. تنهار بسرعة، كما ظهرت بسرعة.. ها هي أطراف مملكته تتفكك.. تنفصل عن العاصمة، فور معرفتها بموته، وليس لدى بني إسرائيل جيش قادر على حمايتها، أو قوة تستطيع بسط نفوذ خليفته.. رحل سليمان فبكاه بنو إسرائيل.. بكاه المؤمنون من الإنس والجن، وافتقدته الطيور، وبعد أن انتهوا من دفنه، تفرق كل شيء.. تفرق المردة وكبار الجن، واحتفظ الهدهد ببقايا رسائله، وشعر الشعب بفراغ هائل.. فراغ لم يستطيعوا ملؤه، لأنهم لم يشاركوا يوماً في تشييده.

انهارت تلك المملكة العظيمة فجأة، لأنها لسليمان فقط.. هو من طلب ذلك، حين قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾، انهارت، لأن جندها ليسوا من البشر، وإنجازاتها ليست من البشر، ولا يمكن أن تكون لغير سليمان، حتى النبي محمد ﷺ الذي مكنه الله يوماً من عفريت من متمردي الجن، سرعان ما أفلته، حين تذكر دعوة سليمان، وقال: «إن عفريتاً من الجن تقلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فردده خاسئاً»^(١).

انكشفت مملكة سليمان داخل الأرض المقدسة، فخلفه ابنه رجب عام، وسرعان ما دب الخلاف بينه وبين أجنحة بني إسرائيل، فانقسمت الدولة

(١) صحيح البخاري (٣٤٢٣).

الصغيرة إلى دولتين شمالية وجنوبية، حيث أصبح شمال فلسطين للأغلبية من بني إسرائيل، الذين حولوها إلى دولة وثنية، تتناوب الدول على غزوها، حتى محاها الآشوريون، بينما حكم رجب عام القدس، وجعلها عاصمة لدولة جنوب فلسطين. وقد تعرضت هي أيضا لعدة غزوات حتى محاها نبوخذ نصر فدمر الصرح، وبيت المقدس، وأحرقها، وأحرق التوراة معها، وأخذ بني إسرائيل عبيداً، وكان من أسباب تلاشي الدولتين: فشو الشرك والظلم.. أي التخلي عن رسالة داود وسليمان: التوحيد والعدل.



أيوب والابتلاء

سُلب أحفاد داود مملكتهم، لأنهم تخلوا عن التوحيد والعدل، لكن نبياً من بني إسرائيل اسمه (أيوب)، لم يسلب الملك فقط.. سلب كل شيء.. خسر ماله، وجاهه، وكل ما يملك، ثم سلبه الله نعمة الصحة، فبدأت الأمراض تدب إلى جسده، حتى ضعف، وأصيب بالهزال، وغدا ناحلاً جداً، وكأنه هيكل عظمي مغلف بجلد.. نفر منه أهله وأصحابه، ولم يعد أحد يطيق الاقتراب منه أو خدمته.



وحدها زوجته الوفية ظلت تحن عليه.. تطعمه وتنظفه وتعتني به، ظلت على ذلك أسابيع وأشهر وسنوات، حتى جاء ذلك اليوم، الذي كانت فيه شاردة الفكر.. مهمومة تفكر بحاله وبحالها، إذ بدا لها شيطان من شياطين الإنس أو الجن.. اقترب منها كالمشفق الحاني، ثم أخبرها أن بإمكانه شفاؤه مقابل أمر ينفذه زوجها.. عرض عليها أن يشفي حبيبها، مقابل أن يذبح قرباناً له.

كانت الزوجة في حالة اكتئاب شديد، وكان أبواب السماء والأرض سدت في وجهها، وفي لحظات القنوط تلك تقبلت الفكرة الكارثية.. نهضت من

مكانها تقتلع خطواتها، حتى أشرفت على مكان حبيبها.. أقبلت عليه، فإذا هو يفطر القلب.. منطو على آلامه وأوجاعه.. لا شيء فيه يوحى بالحياة.. لا شيء يغري بالبقاء معه ورفقته، سوى ماض جميل، ولسان يذكر الله ويناجيه، وكأنه لم يفقد شيئاً من جاهه، فالله جاهه ووجاهه.

اقتربت من إلفها المبتلى، وحيته وجلست بجانبه.. واسته، واعتنت به، ثم نظرت إليه بعين باكية، راجية ومحبة، وذكرته بشبابه، ونضارته السابقة، وسط استغرابه من هذه اللغة الجديدة، وإذ بها توقف استغرابه، باقتراح الذبح لغير الله.

صدم أيوب من هذه الدعوة الصريحة للشرك، وغضب رغم ما به من آلام، وكأن حبيبته تعلن انفصالها عنه.. عاتبها عتاباً شديداً، فهي وإن كانت حبيبته، إلا أن الله أحب إليه منها.. فحلف رغم تلاشي قواه: أن يعاقبها على دعوتها للشرك. أدركت الزوجة الطيبة فداحة الأمر، فسكتت، ثم نهضت حزينة وغادرت، وكان كل شيء بينهما قد هده ذلك الشيطان.

عادت تجر خطاها، ويقتلها الندم. نظر أيوب إلى حبيبته، وهي مقفية، وتأمل حاله، وقد أمسى وحيداً، ليس له سوى الله، فتوجه إليه بقلب باك، وهو يقول: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَزْهَمُ الرَّجِمَاتِ﴾، و﴿نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ يَضِبُّ وَعَذَابٍ﴾، وإذ بالرحمة تنزل، والوحي ينزل، ويقول له: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.



جزاء أيوب

نزل الوحي على أيوب الناحل من شدة المرض، المنظوي ككومة من العظام، تلتحف الحزن والألم.. نزل الوحي يأمره أن يضرب برجله

﴿أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، ضرب أيوب ببقايا قوة رجله الناحلة الهزيلة على الأرض، فإذ بالمعجزة تتفجر تحتها ماء.

ابتسم أيوب، وامتلاً قلبه بالسعادة، وهو يرى الماء يترقرق تحت قدميه.. قاوم ضعفه، وحاول الجلوس حتى اعتدل، ثم مد يديه المرتجفتين نحو الماء، وغرف غرفة، وغسل وجهه، فإذ بالمعجزة تسري مع كل قطرة تنساب على جلده الرقيق، والانتعاش يسري في كل عضو يغسله.. غرف بيديه وشرب.. ويوماً فيوم شعر بقوة تنعشه.. تغسل آلامه وأوجاعه، وتذهب أنيه وصداعه.. بدأ جسده يعود للحياة شيئاً فشيئاً.. مرت أيام حتى شفاه الله وصح بدنه، وعادت له نضارته، لكنه لم يعد لبيته.. ظل في مكانه، وكأنه لا يريد ترك نبع الحياة هذا.

في أثناء ذلك كانت الزوجة الحانية تتململ.. تقتلها خناجر الندم على تركه وحيداً.. قررت العودة لخدمته، حتى وإن رفضها، فحبه يملأ قلبها، رغم ما به من بلاء.. نهضت وأخذت طعاماً وشرباً، وأدوات للعناية به، كانت تأخذها عادة.. تهادت خلال الطرقات، تفكر بردات فعله، ومفاجآت استقباله.. متوجسة من صد الحبيب.. شرقت بها الهواجس وغربت، حتى أقبلت على المكان، فإذا هو غير المكان.. لا رائحة، ولا عفن، ولا أنين.. تغير المكان، فأين الحبيب؟

تلفت فلم تجده، لكنها وجدت شخصاً غريباً هناك.. اقتربت من الغريب، وسألته عن مالك قلبها، وهو ينظر إليها بعينين تفيضان بالعتاب. تساءلت عيناها عن سر نظراته، فعرفها بنفسه، فأجهشت بالبكاء، شكر الله وفرحاً وندماً، لكن هل هي نظرات الوداع يا أيوب؟

كان عتابه بحجم حبه لها وحبها له، وإذ بالوحي ينزل عليه، ليعيدها إليه.. الرحمن الرحيم، يقول له: ﴿وَأَخْذُ يَدِكَ ضِعْفًا فَأُضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنَتُ﴾.

انطلق أيوب يبحث عن شمر أخ.. عن مجموعة أعواد، يجمعها ضغثًا، ولما وجد مبتغاه، قبض عليها جميعًا بكفه.. كان أحد منها، ثم ضربها بها ضربة عتاب وكفارة وشوق، حتى لا يحث يمينه، ثم أخذ بيدها، وعادا لبيتها، بعد أن تجاوز النبي المبتلى الامتحان، ونال شهادته من الرحمن، الذي أثنى عليه، فقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وبالقدر الذي كان فيه أيوب صبورًا، كان أحد الأنبياء في مكان آخر عاجزًا عن التحمل، فحلت به كارثة لا تطاق.



يونس غاضب

انتشر الشرك والظلم في مدينة نينوى، الواقعة في شمال العراق، فبعث الله فيهم نبيًا منهم اسمه يونس بن متى.. يدعوهم للتوحيد والعدل، وترك الوثنية والخرافة، فالله خالق السماوات والأرض ومالك الملك، ولا يرضى معه شركًا، لكن قوم يونس كبقية الأمم، ظلوا على تراث آبائهم وأجدادهم.. لا يريدون فتح عقولهم، والتأمل في تفاهة آلهتهم، التي يصنعونها بأيديهم.. أصنام لا تتكلم، ولا ترى، ولا تسمع.

طال الأمر بيونس، فيئس من قومه، وقرر الهجرة من قريته ومغادرتها.. فعل ذلك قبل أن يأذن الله له.. شاهده أهل القرية، وهو مقف قد بلغ به الحزن والغضب منتهاه، فانكسرت قلوبهم، وهم يرونه يختفي خلف السراب.

غاب يونس، ومرت أيام ولم يعد، ف شعر أهل بلده بحزن شديد، واجتاحهم خوف أشد، فهم يعرفونه جيدًا.. لم يكذب عليهم أو يغشهم يومًا.. تذكروا مصير الأمم التي حدثهم عنها: أقوام نوح وهود وصالح، فتعقلوا، ثم عقدوا اجتماعات دار فيها نقاش جاد وهادف.. توصلوا بعدها إلى أخذ الدرس من تلك الأمم، فيونس لم يتركهم إلا لأنه يدرك أن كارثة ستحل بهم، كما حلت بمن قبلهم.

قررُوا العودة للتوحيد، ونبذ الوثنية والخرافة، وترك الظلم والجور، فإذ بالمدينة مع مرور الأيام تتغير.. أصبحت أكثر سعادة وأمنًا وألفة.. غدت مدينة للتوحيد والسلام والعدل.. لا ينقصها سوى شيء واحد.. هودرة تاجها ورأس مالها.. لا ينقصها سوى ابنها البار (يونس بن متى).

لكن أين هو يا ترى؟ لقد هام على وجهه أيامًا وليالي وحيدًا حزينًا، لا يؤنسه سوى ذكر الله، حتى حطت به قدماء ببلدة ساحلية.. لم يتوقف للتمتع بزرقة بحرِها وأجوائها، التي قد تنسيه أحزانه.. قرر أن يقطع البحر بعيدًا.. رأى إحدى السفن الصغيرة مزدحمة تستعد للإبحار.. دنا منهم وسألهم أن يحملوه.. لا يهمه أين وجهتهم، ولا ما ميناؤهم اللاحق.. المهم أن يبعده عن ذكرياته المرة مع قومه. وافق ربان السفينة، فركب وانحشر في فراغ داخل المركب.

أبحر كما تبحر مراكب اللاجئين والمشردين.. لا مكان فيه للابتسام أو الاسترخاء أو حتى النعاس.. الكل خائف.. الكل متشبث.. تعلو الشهقات مع الأمواج وتنخفض.. الكل خائف متوجس في عالم أزرق، اتصلت فيه السماء بالماء.

قطع المركب الثقيل أميالًا في عمق البحر، وإذ بالريح تهب، والبحر يضطرب، فأدرك الربان أن مركبه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب.



يونس خارج المركب

ركب يونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السفينة ﴿أَبْقِ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، الذي يوشك على الغرق لثقل حمولته، فكلما مالت به الأمواج أو انخفضت، غمرته المياه.. تأمل الربان مركبه، وأدرك أنه غارق لا محالة، إلا إن تخلص من بعض الركاب..



هتف بهم، وواجههم بالحقيقة، فإذ بالوجوه المبللة تتجههم؟ وإذ بالأيدي
تزداد تشبثاً بالمركب والحياة، فلا متبرعون على ظهر المركب، ولا فدائيون
ولا حتى متحرون.

هنا تقرر إجراء قرعة، ومن تصيبه سيقفز في الماء، أو يرمى في البحر.
لم يكن هناك وقت، فالموت يطل عليهم مع كل موجة.. يبلل وجوههم مع
كل طشة ماء.. أجريت القرعة بطريقة ماء، وقلب يونس معلق بالله، ولسانه
يلهج وهو يرى القافزين، وفجأة حلق الركاب به.. حاصرته عيونهم.. تأمل
وجوههم، فأدرك أن القرعة وقعت عليه، فأصابه الفزع ونهض من مكانه ثقيلًا،
والتف نحو حافة المركب، وسلم أمره لمن أنجأ نوحًا وفلق البحر لموسى.
قام على حافة المركب ثم قفز.. انغمس في الماء، ثم طفى، وحاول السباحة
قرب المركب، لكن الموج فرق بينهما.. غاب المركب عن ناظره، وهو
يصارع الأمواج ويعانق الموت.

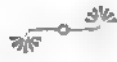
لم يعد يرى سوى الماء والسماء.. لا هو الذي يطال تلك، ولا هو الذي
يستقر على هذا.. ظل يصارع، وفجأة انتزعته موجة.. رفعت، ثم هوت به داخل
فوهة عملاقة وسط البحر.. انزلق نحو أعماقها، حتى ابتلعه الظلام، وكأنه
داخل كهف وسط البحر.. لا يدري ما الذي حدث له، ولا أين هو.

الشيء الذي يعلمه هو: أنه حي غارق في ظلام دامس.. يتحسس بيده
أرضية وجدرانًا لينة.. مر اليوم الأول وهو ينتظر الموت. مر اليوم الثاني
كالأمس مظلمًا، لا شمس، لا أرض، ولا حتى بحر.. يتقلب بين خرير ماء،
وأصوات نوافير ماء وهواء مخيفة.

ظل يونس جنين الظلمة، ثم أدرك أنه داخل جوف حوت مهول، أرسله الله
ليريه قدرته عليه، حين ترك قومه، فجع لربه بالتسبيح والتقديس، ﴿فَكَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ظل يناجي خالقه، ويبكي ويعتذر، ويردد: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، حتى أنهكه الجوع والعطش، وفجأة انفتحت البوابة العملاقة، وإذ بموجة من أعماق الحوت تقذف به على رمال الشاطئ.

رفع يونس رأسه منهكًا من الجوع والخوف والإعياء، فرأى الحياة من جديد.. رأى الشمس والنور، ولامس وجه الأرض.. وتأمل هذا المخلوق العملاق، وهو بعد أن أدى مهمته.. يلتف نحو البحر لينغمس فيه محدثًا تلاطمًا هائلًا.



وعاد يونس

كان يونس صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقذوفًا على الشاطئ، بعد أن تلقى ذلك الدرس القاسي من الله.. كان في حالة إعياء من شدة الجوع وقلة النوم، وإذ بمعجزة إلهية، يراها قربه.. شجرة من يقطين، يقول الله عنها: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهْوَ سَقِيمٌ﴾ ١١٥ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقُطِينِ.

استعاد يونس شيئًا من قوته ومعنوياته، فزحف نحو تلك اليقطينة، ومد يده، وبدأ يأكل.. نام ثم صحا، وتناول مجددًا منها حتى تعافى، ونهض على قدميه.. كان في خلوة مع ربه، على ذلك الساحل.. يناجيه يتوب إليه.. يعتذر عما بدر منه، وإذ بملاك الوحي يهبط عليه.. يأمره بالعودة لدياره وقومه، فهم قد تابوا من بعده، لكن توبتهم لا تكفي، فهم بحاجة إليه، كي ينشر الوعي والعدل بينهم.

نهض يونس ومشى على الساحل، وواصل السفر حتى أشرف على الديار.. أقبل عليهم، فإذ بالوجوه غير الوجوه، تلاشى التجهم والإكفهار عن ملامحها، وإذ القلوب غير القلوب.



ابتهجت المدينة بعودة ابنها الحبيب، ونبيها الكريم.. التفوا حوله يعانقونه.. يحيونه، ويعتذرون إليه، ويعتذر منهم، ويقص عليهم قصته مع الحوت.. كان قومه حالة فريدة، قال الله عنها: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧) فَأَمَّنُوا فَتَقَعَتْهُمْ إِلَى حَيٍّ، انتشر التوحيد على أرضهم، وظلوا ينشرونه، وينعمون بالعدل سنوات وسنوات، في الوقت الذي تناسلت فيه ذرية سليمان، وبنو إسرائيل في الأرض المقدسة، تتناوب الأمم في غزوهم وتشريدهم، كلما أخلوا بالتوحيد، وتركوا العدل، وتطبيق شريعة ربهم.

غزاهم الأقباط الوثنيون والفرس والفرس، وكاد البابليون أن يبيدوهم، وأخيراً اجتاحتهم الروم الوثنيون، واحتلوا بيت المقدس وما حوله، فأرسل الله نبياً اسمه زكريا، يدعو للتوحيد والعدل، ويعاني صلف الوثنيين، لكنه لم يكن يعاني من الوثنيين فقط، فمعاناته الأشد كانت مع قومه، وبالتحديد من منافقي بني إسرائيل، كانوا عملاء للسلطة الرومانية الوثنية، لا هم لهم سوى المال وجمعه، بل إن بعضهم تحول لنصرة الوثنية على التوحيد.

كان المؤمنون قلة حول زكريا، وكان من تلك القلة صديق له اسمه عمران، وقد توجه عمران وزكريا إلى إحدى الأسر الإسرائيلية المؤمنة، ليخطبا فتاتين شقيقتين صالحتين.. اسم أحدهما حنة، والأخرى إيزابيث. تزوج زكريا من إيزابيث، وعمران من حنة. مرت السنوات فلم يرزق زكريا بذرية، بينما رزق عمران بولد سماه هارون.. ثم حملت زوجته وفي أثناء حملها توفي عمران.

شعرت حنة بالحزن على حبيبها وحملها، فتوجهت لربها تستودعه جنينها.



اليتيمة والصالحون

بعد وفاة سليمان ﷺ وتفتت دولته بمئات السنوات، وبعد غزوات وثنية متكررة على فلسطين من الجنوب والشرق والغرب.. جاء الروم

الوثنيون من الشمال، فاجتاحوا كل فلسطين، واحتلوا بيت المقدس، فرضخ لهم بنو إسرائيل.

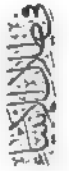
وفي إحدى تلك السنوات المريرة تزوج النبي زكريا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصديق له اسمه عمران من فتاتين إسرائيليتين مؤمنتين، يقال لإحدهما إيزابيث، ويقال للأخرى حنة.. مرت السنوات والشباب الأربعة يعيشون حياة سعيدة مع الله، ومعانة من الوثنيين، لم يرزق زكريا وزوجته خلالها بأي مولود.

أما عمران وحنة فرزقهما الله ابنا سمياه على اسم نبيهما هارون عَلَيْهِ السَّلَام، وبعد سنوات من ولادته حملت زوجته مرة أخرى.. كانت سعيدة بحملها، لكن الأقدار فجعتها بوفاة حبيبها وزوجها عمران، أشعرتها بآلام لا تقل عن آلام الحمل.. شعرت بغيمة اليتيم، تخيم على حملها، فعاشت حزنا ثقيلا، لم يخففه سوى مناجاة الله، واللجوء إليه.

لم تجد أرحم منه سبحانه، لذا نذرت جنيها لله وحده، والقيام على خدمة دار العبادة.. ﴿قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وبعد تسعة أشهر من المعاناة، دوت صرخة بريئة في بيت عمران.. تأملت حنة مولودها، فإذا هي فتاة عذبة كالمنطر.. تنازعتها المشاعر، فقد كانت تحلم بصبي، يخدم بيت الله، ويتفرغ لعبادته، وهي مهمة ليست للإناث.

ثم ما الذي ستفعله فتاة للدين، وقد أدخل الحاخامات في الكتاب المقدس، نصوصا كثيرة تضطهد المرأة.. ما الذي ستضيفه مريم، والكتاب المقدس يحرم على الأنثى حتى الكلام في دار العبادة.. يحرم عليها حتى طرح السؤال.

تلاطمت أمواج الحيرة بحنة، فنادت ربها وهو أعلم بها، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا



بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، بعد تلك الدعوات الباكية، أشرقت مريم اليتيمة على دنيا حنة، فأمطرتها بالسعادة.. عوضتها فقد والدها عمران، كما أن توكل أمها على ربها سبحانه، انتشلها من حيرتها، وذلك حين ابتهجت ذات يوم، حين رأت زوج أختها النبي زكريا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه بعض أقاربها المؤمنين، يقدون على بيتها، يريدون كفالة يتيمة، التي قال الله عنها: ﴿فَنَقَّبَلْنَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، كلهم يريد مريم ابنة له.. تنافس لم تحله سوى القرعة.



أفضل يتيمة على الأرض

كانت مريم عَلَيْهَا السَّلَام طفلة كالقمر.. تملأ بيت أمها بالبراءة والجمال، اجتهدت في تربيتها، فألقى الله في قلوب الخلق محبتها، حتى تطلع الصالحون من أقاربها، وفي مقدمتهم النبي زكريا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إلى كفالتها. تحيرت أيهم أولى: كلهم أولى، وأمام هذا النقاء من الرجال الأتقياء، لم تجد أمها عدل من القرعة.

اجتمع الكرماء في مكان واحد، وكتب كل واحد اسمه، ثم ألقوا أقلام قرعتهم في وعاء، أو مكان محدد، ثم أتى شخص، ومد يده دون تحديد إلى تلك الأقلام، فأخذ بطريقة عشوائية واحدا منها. رفعه وقرأه، فإذا بعيني زكريا تلمعان فرحا، وهو يفوز بكفالة أفضل يتيمة على وجه الأرض.

بدأ كفالتها، فواصل تعليمها، وخصص لها غرفة للتعبد، تسمى المحراب، فنشأت بين أم وخالة مؤمتين، وزوج خالة نبي تقي. كبرت مريم، وشاخ زكريا، واشتعل رأسه شيئا، وأصبحت مريم في ريعان شبابها، وبلغت سن الزواج، لكنها ظلت بتولا، كثيرة المناجاة لله والأنس بذكره، وإذ بالكرامات تنهال

عليها.. كرامات أدهشت زكريا وزوجته، وحيرتهم. رغم أن الله وصف زكريا، فقال: ﴿وَأَصْلَحَ نَسْلَهُ، زَوْجُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾.

اكتشف زكريا كرامات مريم ذات يوم.. حين مربها، وهي في محرابها في حالة مناجاة لله، فإذا به يرى طعامًا عندها، لم يشتره، ولم تحضره زوجته أو أمها.. تكرر مشهد الطعام عدة مرات، ومريم لا تفشي أسرارها مع ربها، ولا تفخر على غيرها بكراماتها.. كانت مشغولة بما هي فيه من نعيم روحي، زادها تواضعًا. زادتها الكرامات شكرًا، فلم تنسب شيئًا لنفسها.

ازداد فضول زكريا، فتوجه نحو محرابها وحياها، فردت التحية.. نظر إلى الطعام، ونظر إليها وقلبه يرتجف، وقال: ﴿يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا؟﴾ هنا أجابته إجابة الأولياء العارفين الشاكرين، فقالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أخذته الكلمات بعيدًا.. تعلم وهو المعلم من فتاة يتيمة يكفلها ويعلمها. أن السرف في الله، وليس في العبد. السرف في عطاء الله، الذي لا حدود له، لا في عبادات الإنسان المحدودة. أدرك أن سر الأولياء هو الثقة بالله، والاعتماد عليه، وعدم التطلع إلى ما في أيدي خلقه.

خرج من محراب مريم البتول، وقلبه يبكي، ويتمنى مثلها، ويقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وإذ بصوت يناديه، يقشعر له بدنه.



زكريا يشكو لربه

خرج زكريا ﷺ من محراب مريم البتول الطاهرة، بعد أن أيقظته إجابتها. توجه نحو محرابه. دخله وبقي وحيدًا، منزويًا عن العيون، منكسرًا

بين يدي خالقه، ﴿نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا، أفصح عن أمنيته، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَكَانَتْ أَمْرًا نِيَّ عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ (٥) يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا، وإذ بصوت مهيب بين جدران المحراب، تقشعر له الأبدان، حوله إلى شخص آخر تمامًا.

نادته ﴿الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ذهل زكريا وارتيك، ومن شدة ارتباكك سأل سؤالاً هو من طرحه قبل قليل، فقال: ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرًا نِيَّ عَاقِرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، ما زال زكريا مندهلاً.. لم يكتف بنداء الملائكة وبشرياتهم.. أراد علامة زكريا بndاء الملائكة. أراد علامة أخرى، وإذ بالإجابة تصدمه. آية كالعتاب حين قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِ وَالْإِنْكَارِ﴾.

خرس لسان زكريا، ولم يعد قادرًا على الكلام. وبعد مدة خرج من المحراب.. مشى في الأسواق يحييه الناس، فيرد بالإشارة.. يكلمونه، فيهرز رأسه، ويحرك يديه، وسط استغرابهم. كانت علامة وآية ومعجزة خاصة به، لذا ظل الغموض يلتف حوله، حتى مرت الأيام الثلاثة، فانطلق لسانه، وواصل تعليم بني إسرائيل، ونشر التوحيد بينهم، وسط أجواء الاحتلال الوثني، وبعد أشهر شعرت زوجته بأعراض الحمل، فاجتاحته السعادة، وبعد تسعة أشهر داهمتها آلام المخاض، فزادت من ضعفها، ثم ولدت غلامًا جميلًا، سماه الله قبل أن يخلق.

كانت سعادة زكريا وزوجته لا توصف.. ملأ يحيى بيتهما بالحياة والأنس. احتفت به خالته، وحملته ابنة خالته مريم ودلته.. أصبح الرضيع يتقلب بين دلال ثلاث من أطيب نساء الدنيا.

مرت الأيام ومريم لم تتزوج، أشغلتها العبادة عن التفكير في الزواج، حتى جاءت اللحظة التي غيرتها، حين نهضت إلى غرفة مفتوحة باتجاه الشمس، دخلتها، ثم أسدلت ستر الباب. وما إن أصبحت لوحدها، حتى ارتجف قلبها خوفاً.. طيف غريب يدخل عليها دون استئذان. رجل لا تعرفه، يقتحم خلوتها بربها.. أصابها الرعب والهلع، فلاذت منه بربها، وخوفته بالجبار سبحانه، وقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾.



مريم أفضل امرأة

اقشعر بدن مريم عَلَيْهَا السَّلَام حين رأت رجلاً غريباً، لا تدري من هو، ولا من أين أتى؟ يقتحم غرفتها. شعرت بالذهول، فلم تجد مهرباً وملاذاً سوى الله، وقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾، وإذ بصوته المهيّب، يزيد لها قلقاً، ويقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، تحيرت: هل سيعتدي عليها، أم ماذا سيفعل؟

لم يعطها الغريب مهلة للتفكير، سرعان ما فاجأها بشيء آخر.. فاجأها ببشارة لم تتصورها يوماً.. بشرها بمولود وهي التي لم تعاشر رجلاً في حياتها، بل زاد على ذلك حين حدد جنس مولودها، ونسبه أيضاً، قائلاً: ﴿يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، ثم أذهلها حين أخبرها أن طفلها هذا سيحمل معجزاته معه لحظة ولادته، قائلاً: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

مريم الآن في أشد حالات الدهول.. كيف سيحدث هذا، وهي التي نذرت نفسها، ونذرتها أمها لله؟ كيف ستصبح أمًا، وهي لم تتزوج، ومن سيصدقها؟ نظرت إلى جبريل بعينين باكيتين، خشية الفضيحة، وقالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي

عَلَّمَ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ يَغِيًّا ﴿١٠﴾، لكن الروح القدس أزال خوفها، وطمأنها وزادها إيماناً، ﴿١١﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿١٢﴾.

إذا فطفلها معجزة تحدث كما تحدث أي معجزة ربانية.. بكلمة (كن)، فيكون.. المسيح مخلوق بكن..

امتزجت المشاعر داخل قلب العذراء البتول عليها السلام، ثم ما لبثت أن رفرفت روحها في السماء مسرة، وشكرًا لله حين بشرها بأعظم بشارة، مرت بها امرأة في الدنيا قائلاً: ﴿يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ﴾.

هذا الاصطفاء لا تعني رفع التكاليف عنها.. إنها نعمة وابتلاء من الله لهذا النقاء، لذا طالبها الملاك بمواصلة التقرب من الله، فقال: ﴿يَمْرِيْمُ اقْنَبِي لِزَكِيٍّ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾، بعدها نفخ الروح في رحمها عَلَيْهَا السَّلَام، ثم صعد للسماء، أما هي فظلت على الأرض مذهولة.. تتلون جدران غرفتها بالفرح، بالهواجس، بقائمة التهم التي تنتظرها مستقبلاً حين يظهر حملها.

أمضت العذراء ليلتها في مناجاة، وشعرت بعد شهر بانقطاع الحيض، ثم مرت الأسابيع، وإذ بها تخفض رأسها، وتمد يديها نحو بطنها، وتتحسسها، فإذا هو قد كبر.. لم يعد خصرها نحيلًا، فشعرت بالخوف من نظرات كالخناجر، تنتظرها في الطرقات.

ضاقت القدس بمريم، وهي لا تضيق، وكأنها بلا شوارع.. فتوجهت نحو غرفتها ودخلتها، ومدت يديها نحو الأوتاد وخزانتها، فأخذت ثيابها ومشطها، وما تحتاجه، ثم وضعتها في مزودتها، وحملتها وخرجت، وهربت من المدينة.



البتول تهرب من بيت أهلها

مريم الطاهرة تهرب حياء من الناس، وخوفاً من سكاكين ألسنتهم، حين يعلمون بحملها.. غادرت تحملها الثقة بمعية الجبار سبحانه.. مشيت بين جدران القدس الحبيبة، وطرقاتها المزروعة بجنود الاحتلال الروماني الوثني، حتى توارت عن الأنظار ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ، مَكَانًا قَصِيًّا﴾، بحثت في ذلك المكان العامر بالبساتين والنخيل عن ملجأ، حتى وجدت.

ظلت هناك شهراً تعاني الغربة.. يقتلها الشوق لأُمها.. لمريها زكريا.. للأهل والديار، ولمحرا بها وغرفتها الشرقية. وتحن إليها صديقاتها وقرباتها.. يستفسر الحاخامات عن سر اختفاء البتول سليمة الأنبياء.

أصبحت في الشهر التاسع، وأصبحت ثقيلة الحركة والخطوات، وذات يوم كانت تتهادى ببطء بين النخيل، وإذ بها تثن فجأة، وتضع يدها أسفل بطنها، وتتوقف من شدة الألم: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلِ﴾.

مدت يدها نحو الجذع، واتكأت عليه، ثم ثنت ركبتيها بصعوبة، حتى لامست الأرض، واستقرت عليها وجلست، وما إن جلست حتى تفاقم وجعها، وارتفع أنينها.. تصيب عرقها، وفاضت عيناها من شدة الطلق. تلفتت، فلم تر أحداً حولها. لا أم. لا أخت. لا صديقة، بل لا أحد من البشر يسعفها، فتمنت الموت من شدة الألم، وهي تبكي. تصرخ، وتقول: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾، وفي غمرات الموت أشرق الحياة.. أشرق حبيبها على الدنيا بلا صراخ.

أشرق الوليد المعجزة، فالتقطت أمه العذراء أنفاسها، والتقطته، وضمته، وأمطرته بدموعها وعرقها، وإذ بالصوت الذي بشرها بعيسى، يزيح حزنها، ويناديها: ﴿أَلَا نَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَاكِيَّ سَرِيًّا﴾.

تلفتت الأم العذراء -صلى الله عليها وسلم- تبحث عن السري، فإذا المعجزة.. جدول ماء، يجري بجانبها. مدت يديها، وبدأت تغرف منه،

وترتشف، وتغسل طفلها ووجهها، وإذ بالملاك الذي لا تنتهي بشائره، يسعدها بخارقة أخرى، فيقول: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا ۖ فَكُلْهُ وَأَشْرِبْهُ وَفَرَى عَيْنًا﴾، مدت يدها الناعمة المتعبة للجذع ودفعته، وإذ بالمعجزة:

الجذع الثابت يهتز بكف العذراء الضعيفة، والشماريخ فوقها تتأرجح، فتساقط حبات الرطب الحلوة الملونة بين يديها. تبهرها الرحمة، فتلتقط الحلوى وتغسلها بماء السري وتأكل دون أن تنهض من مكانها، ثم تحني رأسها، فيتناثر شعرها المبلل على القمر، الذي يزين حجرها، فتزيع بعضه عن وجهه، وترضعه، فيقبل على نهر الحياة حتى يرتوي، ويغفو.

فتمهده بشوب من ثيابها، وتأمله، فينسيها جماله كل ما مربها من آلام، وبعد أيام تذكر قول الملاك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، فتنهض وهي تحمله لتهديه إلى القدس الحبيبة.



طريق الصمت

استردت مريم عَلَيْهَا السَّلَام بعض عافيتها ونشاطها، فخفق قلبها للقدس الحبيبة.. نهضت فجمعت متاعها، ووضعت خمارها على رأسها، وودعت جدول الماء ونخلتها، والمكان القصي الذي احتضن غربتها، ومهدت قرة العين، وحملته لتهديه للقدس.

ارتفعت مع الدروب، وانخفضت، وهي تذكر قول الملاك لها: ﴿فَإِنَّمَا تُرِيدُ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، نهادت حتى أقبلت على مدينتها الحبيبة، فلإذ بأمواج المشاعر تصطفق في قلبها.. الشوق والخوف.. الاتهام والبراءة.. مشيت صامتة تتحاشى العيون والتجمعات، حتى صادفت أشخاصًا أو شخصًا لم تستطع تحاشيه.. تعرف عليها.. أنتت

مريم؟ ومريم لا ترد. ما هذا الطفل؟ ومن هو؟ ومن هو أبوه؟ لم لا تجيبين؟
لم تستطع البتول التخلص من حصار الشك والقذف والاتهام ولا التفلت
من حصار الأسئلة والعيون، فتوقفت: لم لا تجيبين؟ تداعى الإسرائيليون
الفضوليون حولها، يتهمونها بالرديلة، والوثنيون يتفرجون دون اكتراث.

أتى الحاخامات، فأخضعوها لمحاكمة علنية في طرقات القدس. هذا
ما كانت تخشاه أفضل فتاة على الأرض:

بدأت المحاكمة: ما هذا الرضيع الملفوف يا مريم؟! نحن لا نعلم أن لك
زوجًا.. أمك لا تعرف لك زوجًا.

فاضت عيناها، وهي تتلقى الطعنات حين ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالَ أَيْنَ مَرْيَمُ
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (٢٧) يتأخّذ هزّون ما كان أبوك أمرًا سوء وما كانت أمك بغيا، كيف
تشوهين سمعة آل عمران؟

رفعت مريم رأسها، واحتضنت رضيعها بيد واحدة، ورفعت الأخرى لتشير
بإصبعها نحوه.. كلما طرحوا عليها سؤالًا أشارت إليه.. تعجبوا منها؟ هل
جنت الفتاة؟

أجل.. نحن نسألك عن هذا الملفوف في المهد؟

وفجأة توقفت إشاراتها، وأصيب القاذفون بالخرس.

سكت الجميع. سكت كل شيء، ونطق الرضيع.. تكلم وهو بين لفائف المهد،
وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ، آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبِرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ
وَيَوْمَ أُمْتُ وَيَوْمَ أُمُتُ حَيًّا.﴾

اتسعت الأعين، وفُغرت الأفواه.. أسقط في أيدي المحاصرين.

وذهل القضاة.. زادت مريم طهرًا في عيونهم، ومكانة في قلوبهم، فأفسحوا الطريق لهذا الأمير كي يمر.. ساروا خلفه، وخلف أمه، كالحاشية، بعد أن أوقفوهما كالعسكر. أجمتهم المعجزة المبهرة، وكأنها ذكرتهم بمعجزة أكبر منها.

فلئن خلق الله عيسى بلا أب، فإن أباه آدم خلق بلا أب وبلا أم.



الله يحدد هوية عبده عيسى

اتسعت أعين اليهود حول مريم.. خرس الذين قذفوها واتهموها بالخنا.. ابتلعوا ألسنتهم حين تكلم الطفل في مهده، وأفصح لهم عن هويته، وأنه عبد لله الذي خلقه ويميته ويبعثه، فارتفعت مكانة مريم بين الناس، فأفسحوا لها الطريق، كي تمر مبجلة.

سار الحشد خلفها، وخلف رضيعها، وأدرك المؤمنون بأن خلق عيسى معجزة كمعجزة أبيهم آدم، الذي خلقه الله بلا أب وبلا أم، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وحدد الله هويته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢١) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

أصبحت مريم ملء السمع والبصر، واستأنفت تبتلها ورهبانيتها ومناجاتها، وعيسى يزين محرابها وحياتها بجماله وبرأته.. يكبر فيكبر حبه في قلبها، ويبدأ الوقوف وهو ينتفض ويسقط، ثم ينهض ويدرج وهو يتأرجح ويتعثر.

نلاعبه ويلاعبها، يكبر عيسى فتأخذه إلى خالته، أو تزورهم خالته، فيلعب مع ابنها يحيى، وتزداد صداقتهما، وهما يمضيان سنين المراهقة، وسط إعجاب

الناس بأخلاقهما، وبرهما لوالديهم خاصة يحيى الذي آتاه الله الحكم صبياً،
ويبلغان سن الرجولة، فينشغلان مع نبي الله زكريا بنشر الوعي والتوحيد بين
الإسرائيليين والوثنيين، فيضيق الروم المحتلون بالثلاثة، وتبدأ المضايقات،
ويتم القبض على يحيى، ويودع السجن، ويتلقى ألواناً من التعذيب.

وفي أحد أيام المعاناة تلك، يسمع يحيى وهو في زنزانته قرع أحذية من
بعيد.. يرتفع الصوت شيئاً فشيئاً في الممرات الصخرية، حتى توقف أمام
زنزانه، أدخلوا المفتاح في القفل وأداروه، وفتحوا الباب، ثم أقبل الجلادون
عليه، وسحبوه عبر الممرات بعنف، ثم أدخلوه في مكان ملطخ بالدماء.

وضعوا رأسه على شيء صلب، ثم رفع أحدهم منشأراً، فوضعه على
رقبته، وبدأ ينشرها حتى هوى رأسه على الأرض. مد أحدهم يده إلى رأس
النبي الشاب، ثم التقطه يقطر دمًا، وأخذته نحو حاكم فلسطين الوثني. ابتسم
الطاغية الوثني، وأمر بوضعه على طبق من فضة، ليقدمه هدية لعاهرة.

خيم الحزن على القدس.. رحل النبي الشاب يحيى بن زكريا شهيداً، فبكاه
الإسرائيليون الموحدون، وانفطر قلب أمه، وبكته مريم، وبكاه صديقه ورفيق
دربه، وابن خالته عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وعاد زكريا كما كان فرداً، أنتزع ابنه البار منه.
لكن مهلاً؟ كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه بأن يرثه يحيى؟



الحزن يخيم على القدس

أنتزع يحيى الابن البار من أبيه زكريا، وهو في عتفوان شبابه.. حرمة
الوثنيون رؤية أحفاده، فانفطر قلبه، وبكى حبيبه، وسلم أمره لربه، لكن مهلاً؟
كيف يموت يحيى قبله، وقد استجاب الله دعاءه، حين قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝﴾.

أجل قد استجاب الله له، فورث يحيى والده وهو حي.. ورثه النبوة، فالأنبياء لا يورثون مالا، حيث يقول النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»^(١).

لم يسكت زكريا.. احتج لدى السلطة الوثنية على تلك الجريمة بحق ابنه وفلذة كبده، فعلم الحاكم الوثني، فأصدر أمرا بالقبض على الشيخ النبي الحزين.. خيم الحزن على تلك العائلة المؤمنة، وضاعت بها الأرض، حين سمعوا لغط الشرطة الوثنية، وهي تطرق الباب للقبض على الشيخ الحزين، لكنها لم تجده.. بدأ الجلادون بتمشيظ شوارع القدس وأزقتها، وتفتيش بيوت اليهود الموحدين ويساتينهم، وكان زكريا مجرم، أو قاطع طريق.

قلبت الشرطة القدس حجرا حجرا، وأخيرا تمكنت من القبض على النبي الطاعن في السن، الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيئا، واحترق جوفه حزنا على فلذة كبده وأمنيته. اقتادوا نبي الله للسجن، مصفدا بالحديد.. يترنح وهو يقاد بعنف، وتردد ممرات السجن الحجرية صلصلة السلاسل، التي تثقل يديه وقدميه وشيخوخته.

أوقفوه أمام الزنزانة، وفتحوا بابها ثم رموه فيها، وبعد مدة نفذوا حكم الإعدام فيه.. استشهد الشيخ بعد استشهاد ابنه في ظل حكم روماني وثني، لا يطبق التوحيد ولا العدل، أعدم زكريا، وهل هناك أشد من قتل نبي، أو قتل أمر بالعدل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

سال دم نبیین یهودیین کریمین، والأشنع أنه قد شارك في سفك دمائهما حاخامات خدمة وتزلفا لسلطة رومانية وثنية.. تغير بنو إسرائيل كثيرا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحايل مع موسى وهارون وغيرهما.. سلط الله عليهم

(١) سنده صحيح رواه أحمد (٩٩٧٢) وقد مر معنا وهو عند البخاري لفظ آخر.

(البابليون والفرس وأخيرًا الروم)، وها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في محاولة للقضاء على آخر نبي يهودي.



مطاردة آخر نبي يهودي

تغير بنو إسرائيل كثيرًا، فبعد أن مارسوا المناكفة والتحاييل مع موسى وهارون وغيرهما.. ها هم يتورطون أكثر، فيسهمون مع الوثنيين في قتل نبيين إسرائيليين منهم.

جرائم كبرى أغضبت الجبار سبحانه، فحكم عليهم بالذلة والمسكنة، بحيث لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا التصدي لأعدائهم إلا بحبل من الله، أو عن طريق أمم أخرى، تحميهم أو تدافع عنهم، فقال سبحانه ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا لَا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٌ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

وها هم يشعرون بنجم عيسى يرتفع بالنضال، ونشر التوحيد، ورفض الظلم، ليدؤوا التخطيط لنحر آخر أنبياء اليهود عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم.. كان عيسى قد تجاوز الثلاثين، لكنه كبقية الأنبياء من قبله.. بدأ بأهله وأسرته، ثم بشعبه الإسرائيلي، الذي انحرف الكثير منهم، وأصبحوا في صف الوثنيين.. توجه إليهم في شوارعهم وأسواقهم ودكاكينهم، وداخل المسجد الأقصى.

هتف بهم، مبشرًا المؤمنين منهم بالجنة، ومبشرًا أيضًا ببعثة رسول، يأتي من بعده هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومؤكدًا على أنه يؤمن بكل ما جاء به موسى من التوحيد في التوراة، فقال: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ إِلَيَّ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَمُّهُ أَحْمَدُ﴾.

نظر بعض اليهود إلى بعض بتعجب، فهذا الشاب في نظرهم لا يستحق أن يكون معلمًا لحاخاماتهم الكبار، الذين يتاجرون بالدين، حتى اتخذهم الناس أربابًا من دون الله: يحرمون عليهم الحلال، ويحلون لهم الحرام، فيطيعونهم.. لم تعجبهم دعوة المسيح، لذا هددوه، وذكروه بمصير زكريا ويحيى ودمائهما، التي لم تجف بعد إن لم يتراجع، لكنه لم يتراجع.. مضى يقدم الدليل لهم تلو الدليل..

ذات يوم وقف أمامهم يناديهم، فلما تحلقوا حوله.. انحنى ومد يديه نحو التربة، فأخذ قليلًا منها، ثم سكب عليه بعض الماء، ثم بدأ يعالجه بأنامله، حتى تحول إلى طين، ولما أصبح الطين متماسكًا، قام بتشكيله على هيئة طير، ثم رفعه لهم، ولما ركزوا أبصارهم فيه، إذ بلون الطين يتغير، وإذ بالطين نفسه يتحول.. قربه من فمه، ثم نفخ فيه.. خيم الصمت على الحضور، ينتظرون نهاية المشهد.



المسيح والمعاناة

رفع المسيح ابن مريم ﷺ تمثاله الطيني؛ ليراه الإسرائيليون والوثنيون، ولما غرزوا فيه أبصارهم.. قربه من فمه، ثم نفخ فيه، وفجأة تغير لون الطين.. تغير شكله.. كساه الريش، ثم دبّت فيه الحياة، فانتفض ريشه، وتحرك رأسه، وفتح عينيه الصغيرتين، وبدأ يتلفت، وكأنه يقول للمتفرجين: آمنوا.

رفع المعجزة عيسى معجزة ربه بيديه أكثر، فإذا بالطير يرفرف بجناحيه ويطير.. يحلق بعيدًا، لتحلق خلفه عقول وأرواح، إلا عقولاً صدئة.. عقول حاخامات الظلام وسدنتها.. شعروا بزلزال يصدع دجلهم.. شاب صادق

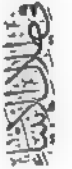
ونزيه، يفضح استغلالهم للدين وللناس، لذا رموه مباشرة بتهمة تناسب
والمشهد.. التفتوا لجمهورهم وصاحوا كما صاح فرعون من قبل: هذه خدعة
قديمة.. هذا سحر مبين وواضح.

سكت المسيح.. أسكته الحزن، ثم غادر المكان ثقيلًا، فالقدس وساكنوها
يشهدون أنه ما كذب يومًا.. طفولته تشهد وشبابه.. غادر عيسى المكان، لكن
لم يكن لوحده.. أخذ معه بعض القلوب، التي هزتها المعجزة فأمنت.. أصبح
له صحابة، وأصبح له أعداء، من تجار الدين.

بدأ المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجدد التوحيد في نفوس أتباعه، ويأمرهم بعبادة الله
وحده فقط، ويأمرهم بالقسط والعدل، فلم يتعرض له الوثنيون بداية.. الذين
واجهوه هم من قبيلته بني إسرائيل، وبالتحديد هم حاخامات تربطهم بالسلطة
البيزنطية الوثنية والنائب البيزنطي مصالح مادية، لذا شرعوا بالتخطيط، لتحطيم
المسيح حين رأوا أتباعه يكثرون شيئًا فشيئًا، لأنه كلما آمن به رجل أو امرأة
خسر هؤلاء الحاخامات أتباعًا ودراهم يأخذونها منهم بغير وجه حق.. بدؤوا
تكرار المماحكات التي مارسها أسلافهم مع موسى والأنبياء قبله، بينما كان
المسيح يفهمهم بالمعجزات.

ذات يوم مر على ميت ينوح أهله عليه، فمسحه ودعا ربه سبحانه، فإذا
بالميت ينهض مجددًا.. مر بأبرص فشفاه الله على يديه، ناداه أعمى وسأله أن
يدعوه بالشفاء فدعا الله، فإذا بالتور يمزق ستار الظلام عن عينيه، لينتقل إلى
عالم تزيينه الأشكال والألوان.

لم ينسب عيسى شيئًا من تلك الخوارق المعجزة لقدراته الذاتية.. بين لهم
أن كل الذي يجري على يديه كان بأمر الله قائلًا: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنْخِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أدهشت المعجزات طلبه المسيح



الحواريين، بل أغرتهم بالمزيد، فتوجهوا يوماً إليه، طالبين منه معجزة تخرس الجميع، وتشمل الجميع، ويلمسها بنو إسرائيل بأيديهم.



مائدة من السماء

توجه الحواريون نحو عبدالله ورسوله عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، فطلبوا منه طلباً غريباً، وكأنهم يريدون أن يغروا أهلهم اليهود بالتوحيد والإسلام لله، ولما وقفوا أمامه قدموا مطلبهم بصيغة مؤدبة. قدموه على صيغة استفهام: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ؟﴾.

لم يقولوا: أنزل علينا، ولم يقولوا: اطلب من الله، ومع ذلك أغضب طلبهم عبدالله عيسى صلى الله عليه وسلم فنهزمهم، وقال: ﴿أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وكأنه يقول لهم: أما يكفيكم ما رأيتم من الآيات والمعجزات، ما ثبت لكم أني عبدالله ورسوله، وأن التوحيد هو الحق. ألم تؤمنوا بعد، أم أنكم تنهجون منهج الحاخامات والكهنة المرتزقة، الذين يخشون الحق، لأنه سيوقف تدفق أموال المساكين والمغفلين باسم الدين إلى جيوبهم؟

غضب المسيح ابن مريم صلى الله عليه وسلم من هذا الطلب، فخاف الطلبة من غضب الجبار سبحانه، وقدموا اعتذارهم لله سبحانه، ثم لعبده عيسى ابن مريم، وبينوا أنهم لم يطلبوا ذلك شكاً في أنه عبدالله ورسوله، ولكن لتقوية إيمانهم، ورفع معنوياتهم، وسط أجواء الإحباط، التي زرعتها الروم الوثنيون، وتجار الدين من الحاخامات. قال الحواريون: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

سكت المسيح عبدالله صلى الله عليه وسلم. لم يجبههم، فالأمر ليس بيده، بل بيد خالقه ومرسله، لذا توجه إليه وحده، ودعاه وحده سبحانه، وناشده أن ينزل

عليهم مائدة من السماء تسعدهم. ويجعلونها هم وذريتهم عيدًا يحتفلون
بذكرها كل عام. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا
عِيدًا لَأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

لم تنزل المائدة مباشرة. نزل وعيد شديد من الجبار سبحانه، لكل من
يكفر من اليهود والنصارى، بعد أن يأكل من تلك المائدة ثم يرتد. وعيد شديد
يخلع القلوب، حيث قال سبحانه لعبد ابن مريم ﷺ محذراً: ﴿قَالَ اللَّهُ
إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

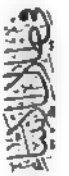
وفي اليوم الموعود كان المسيح ﷺ في المكان الذي حدده له خالقه،
وحوله الحواريون وكلهم شوق لمعجزة ربهم، وحول هؤلاء تكدس النصارى
المؤمنون واليهود الفضوليون، وفجأة ارتفعت الرؤوس نحو السماء. وارتفعت
التأوهات والأيدي، وأشارت الأصابع نحو شيء مذهل يهبط عليهم.

ارتجفت القلوب وفاضت العيون، وهي تتملى مائدة ملونة فاخرة، بما
لذ وطاب. مائدة لم تمسها نار، ولم تخرج ثمارها من بين التربة والسماد،
ولم يقدد لحمها من ظهور البهائم. مائدة هضيم. ليس فيها عظام، ولا نوى،
ولا قشور، ولا جلود، ولا شيء، لا يمكن أكله والتلذذ بطعمه.

مائدة من السماء. أبدعها الله وخلقها كما خلق عيسى ابن مريم. بكلمة
واحدة: (كن فيكون).

استقرت المائدة على الأرض. لم يكن هناك تراحم لاهتبالها. إنها فاخرة
جداً، وكافية لأولهم وآخرهم، لذا لا داعي للهلع وخشية النفاذ.

جلس الجميع حولها. يأكلون والطعم يسافر بهم مع كل لقمة. واللذة
تحلق بهم مع كل مضغعة، والهمهمات ترتفع، والالتفاتات تعبر عن الدهشة
لا تتوقف. سكنت الأفواه المشغولة عن الكلام. تركت التعبير للحواجب



التي ترتفع إعجابًا، وللعيون التي يتسم بعضها، وفيض بعضها. مائدة جعلت قلوب المؤمنين ترتجف. تشني على الكريم سبحانه على هذه اللوحة الأخاذة، وكان أكثرهم شكرًا هو عبدالله ورسوله عيسى صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يكون كذلك، وربهم يمطره بمعجزات لم تكن لمن قبله.

شعب الجميع وهم يودون لو لم يشبعوا، أما المائدة فلم ترفع، ولم يكن لها فضلات أو بقايا أو نفايات. تلاشت بعد أن شبع الجميع، وامتلا الجميع، ثم نهض المسيح، وهو يشكر خالقه وخالق المائدة، وتوجه لقومه راجيًا إياهم أن يؤمنوا، ويلتزموا بتوحيد ربهم، ثم أخبرهم بمصير من يكفر بالله، بعد أن رأوا ولمسوا وأكلوا معجزة لم تكن لغيرهم، وكأنه يقول لهم: إن موائد الجنة أفخر وألذ. فأطاعه المسلمون النصاري، وانسحب الكثير من الإسرائيليين، وكأنهم يقولون: يا له من ساحر.

حزن المسيح لكفرهم، لكنه لم ييأس ظل يدعوهم للتوحيد، يفقههم في دينهم. لكن عيون الشياطين كانت تلاحقه وترصد حركاته.



المسيح وأمشاط الحديد

ظل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم يفقه شعبه الإسرائيلي في دينهم... يأمرهم بتطبيق التوراة.. ينهاهم عن الشرك بالله وعبادة غيره.. ينهاهم عن صنع تماثيل للمخلوقات، التي تدب على البر، أو تسبح في البحر، أو تطير في السماء. حذرهم من عقوق الوالدين والربا والزنا وأكل الخنزير.

كان المسيح باختصار مصدقًا للتوراة، متبعًا لأحكامها، فبدأ التضييق عليه، حيث لاحظ الحاخامات تزايد صحابته، وانتشار دعوته.. لم يكونوا ضد انتشار التوحيد.. كانوا ضد تفعيل أحكام التوراة، التي تنهى عن الزنا والربا

والمكوس وأكل أموال الناس بالباطل، لأنهم يتعاشون على جيوب المغفلين
والأتباع السذج، لذا قرروا إزاحة المسيح عن طريقهم.

اتهموا أمه، وقذفوها فلم يفلحوا.. شوها سمعته فلم يفلحوا.. لم يبق
لديهم سوى حل واحد، هو استعداد الحاكم البيزنطي الوثني السفاح، الذي
قتل زكريا ويحيى، ولما بدأت المضايقات قرر المسيح أن يشكل من أصحابه
فريقاً، يعتمد عليه بعد الله في نشر الدعوة، فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾

سكنت الأغلبية خوفاً، ونطق اثنا عشر رجلاً، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، لم يكتف هؤلاء الحواريون بذلك..
توجهوا نحو الله، يشهدونه على بيعتهم، ويقولون: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، لكن عيون الشياطين كانت
تلاحقهم، وترصد حركاتهم وتدرسها، ثم توجه لنائب الإمبراطور البيزنطي،
لتقدم تقاريرها الشيطانية له.. قدموا تقارير تدين المسيح ﷺ، وتتهمه
بالسعي للسلطة، وإذ بالحاكم الوثني يصدر أمراً بالقبض عليه لإعدامه..
انتشر العسكر يستجوبون أنصار المسيح الموحدين، فخلت شوارع القدس
من عيسى.. اختفى المسيح ﷺ وتوارى عن أعين الحاخامات وسياط
العسكر.. لم يعد يراه أحد.. فقد جمع تلاميذه الحواريين وأخبرهم بعزمه
على الانسحاب من المشهد، ريثما يخف الضغط، أو يجد بلداً بديلاً، فهو
بشر، ولا طاقة له بهذا البطش الوثني، لذا أخذ تلاميذه، وصعد بهم مرتفعاً
يتناوبون في النزول والتزود بالطعام.

بكت القدس أظهر شبابها، وبكت مريم حبيبها وابنها، فلم يرف للجند
جفن، ولم تلتن قلوب الحاخامات، التي وصف الله أسلافها، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ظل الأشرار يراقبون ويبحثون،
حتى عثروا على خاصرة رقيقة، يمكن تسديد طعنة للمسيح من خلالها.

التلميذ الخائن

مر عبدالله ورسوله المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باضطهاد، مر به الموحدون قبله، اضطهاد بلغ درجة مفزعة لا تطاق، وهي كشط الجلد واللحم بأمواس على شكل أمشاط، حتى قال النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إن المؤمن منهم» اليمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه»^(١).

اختفى المسيح لكن الوثنيين لم يقبضوا على تلاميذه، فهم الوسيلة الوحيدة للوصول إليه.. ظل الأشرار يرقبون بعض تلاميذ المسيح، يتسوقون هنا أو هناك.. حاولت إغراءهم وتهديدهم، فلم تجد أذانا صاغية، وفي أحد الأيام صادفوا تلميذاً من تلاميذ المسيح، اسمه يهوذا الإسخريوطي.. اقتربوا منه.. هددوه فلم يلن للضراء، وأغروه فانهار للإغراء.. سال لعابه للمبلغ الذي قدموه له، فوافق بعد إلحاح على أن يدلهم على مكان المسيح.

لم ترق فكرة الوصف والإحداثيات للحاخامات والروم الوثنيين.. أرادوا خطة لا تثير التلاميذ، ولا تلفت انتباههم. فطلبوا أن يقودهم (يهوذا) بنفسه نحو المسيح، بحيث يدخل الغرفة التي يختبئ بها، فيداهمونها بعده، فوافق تحت إغراء بريق الذهب أو الفضة، وفي اليوم المحدد تجهزت فرقة المطاردة العسكرية، فجاء يهوذا، وطلب منهم أن يسيروا خلفه، بمسافة حتى لا يراهم التلاميذ، ثم بدأ بالمشي في ساعة من الليل متأخرة.

سار وسار والجنود يرصدونه.. تسللوا كالحيات بين الصخور والأغصان.. يكمنون هنا، ويتهامسون هناك.. ظلوا يصعدون، ولما أشرفوا على المكان كان المسيح ابن مريم وأصحابه عَلَيْهِمُ السَّلَام قد ناموا.. لم يدر بخلدهم أن صاحبهم

(١) صحيح البخاري (٣٦١٢).

قد وقع ضحية إغراء المال.. لم يدروا أنه الآن في الطريق يقود فرقة مطاردة،
للقبض على نبيهم المسيح، وتسليمه للسلطة الوثنية.

دبت الوحوش الشريرة نحو الغرفة كالعناكب السامة. هنا تقدم يهوذا
وحده كي لا يشير ذعرهم.. تقدم ليعانق نبيه، فيدخل الجند، فيقبضون عليه،
أما المسيح ساعتها فكان على الأرض، لكنه كان في عالم آخر. لم يكن نائمًا.
كان عالمًا من المشاعر.

اختلفت لديه مشاعر الحزن على فراق أمه الحبيبة، وصحابته المخلصين،
وأتباعه المضطهدين.. بمشاعر مختلفة تمامًا.. مشاعر السعادة والاستعداد لرحلة
المعراج النورانية المذهلة، فقد هبط الملاك، الذي بشر أمه والعالم به.

هبط جبريل دون أن يشعر به التلاميذ.. نظر إلى المسيح نظرة من يقول:
حان موعد الرحلة يا ابن مريم، ونظر المسيح نظرة المودع لأحبابه النيام، ثم
اقترب منه جبريل، وأخذه، وعرج به عاليًا نحو السماء، وفجأة استيقظ التلاميذ
وهم في حالة خوف وفزع.



وداعا أيتها الأرض

استيقظ التلاميذ واحدًا واحدًا على وقع أقدام شخص، يمد يده نحو
وجوههم، يتصفحها واحدًا واحدًا، على وميض السراج. لكن الذي أصابهم
بالذهول هو أن المسيح كان ينادي نفسه بصوت منخفض.

لم يكن المسيح.. إنه يهوذا، والتلاميذ ينظرون إليه باستغراب. لا يدرون
ما سر تأمله لوجوههم وهمسه لنفسه. تصفح كل الوجوه، إلا وجه المسيح،
لم يعثر عليه.. لم يدرك أنه في الملاء الأعلى في السماء، وبين الملائكة، وأن الله
أنقذه من كيد الحاخامات وسيوف الوثنيين.



انتهى يهوذا من تصفح الوجوه، بعد أن استيقظ الجميع.. لكن التلاميذ حدقوا به باستغراب.. لا يدرون سر تأمله لوجوههم، وهو قد رقد معهم قبل قليل.. كان الوضع مرتبكا.. ساد الصمت، وتكلمت العيون.. هم يحدقون به، دون أن يتكلموا إجلالاً له وهيبة، وهو يتساءل عن سر صمتهم.

وفجأة علا الضجيج.. داهم الجلاوزة الوثنيون المكان.. تصحبهم صلصلة السلاسل والسلاح والصراخ، يبحثون عن يهوذا الذي سيعانق المسيح المطلوب الأول للإمبراطورية البيزنطية.. علا صراخ قائد الجند، وهو ينادي يهوذا، ويبحث عنه فلا يجده، ويهوذا ينظر إليه وهو يكاد يجن، والتلاميذ ينظرون إلى يهوذا، فيزداد جنونه، وهو ينصت لصراخ التلاميذ، يقولون له: اهرب يا رسول الله، اهرب. اهرب يا عيسى، ويهوذا يقول: لست المسيح.. أين ذهب المسيح أنا يهوذا؟

تعقد المشهد، فهناك أحد عشر شاهداً يشيرون إليه على أنه المسيح، فأين اختفى يهوذا الخائن؟

قبض الجند على المسيح الذي أمامهم، وهم لا يدرون أنهم يقبضون على دليلهم الخائن (يهوذا الإسخريوطي)، الذي عاقبه الله، فألقى عليه آخر معجزات نبيه عيسى ﷺ.. ألقى عليه صورة المسيح، فتم اعتقاله، على أنه المسيح، أما المسيح الحقيقي، فخرج به جبريل عليه السلام، ورفع نحو السماء، ليبقى هناك حتى الموعد المحتوم.

حزنت أمه مريم البتول، لكن الله سبحانه ربط على قلبها، ولا بد أنها قد علمت بحقيقة ما جرى فأخفته، لكن شوق الأم لحبيبها ظل حتى ماتت.. تتذكره كلما رأت محرابه وغرفة نومه.. كلما رأت ثيابه وبقايا طفولته.. كلما مرت بغرفتها الشرقية، أو بتلك النخلة التي تساقطت عليها رطباً جنياً في ذلك المكان القصي، حيث ولدته.

عبر هذا الطريق حملته، وفي هذا الطريق المقدسي حاصرتها الألسن والاتهامات، وهنا نطق رضيعها، فانقضت عنها غمامة الظلم والاتهامات.. هنا كان يلعب المسيح مع يحيى، وهنا كان يدرسهم زكريا.. من هنا كان يصحبها إلى بيت المقدس، وهنا فاضت عيناها، وهي تراه نبياً ينشر التوحيد ويدعو للعدل.

رحل عبدالله ورسوله عيسى.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟



المسيح بين الوفاة والموت

رحل عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم.. رفعه الله إلى السماء.. توفاه الله، لكنه لم يمت، فما الفرق بين الوفاة والموت؟

الوفاة حالة من الغياب تشبه النوم أو الإغماء، أما الموت فحالة مفارقة تامة للروح للجسد الذي يتحلل بعدها، فخالق الأنفس والأرواح سبحانه، يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، ثم يبين الفرق بين الحالتين، فيقول حَزَنًا: ﴿فِيَمِيسُكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَرُسُلُ الْآخِرَىٰ إِلَيَّ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

اختفى عبد الله ورسوله عيسى ابن مريم عن وجه الأرض، وبكاه تلاميذه المخلصون، وبكاه أتباعه، وأسدل الستار على آخر أنبياء اليهود بني إسرائيل، بينما كان الجنود يسحبون يهوذا الخائن، نحو السجن على أنه المسيح.. أدخلوه في زنزانة بانتظار الحكم عليه، وبعد أيام صدر الحكم بإعدامه صلباً.

وفي اليوم المحدد أخذ نحو الموقع، ثم شد على الصليب، ودقت المسامير في يديه وقدميه، ثم أنزل في اليوم اللاحق، ثم وضع في غرفة تحت الأرض على أنها قبر، ليكتشف الناس أن جثته اختفت.. هنا تحيروا.. أين ذهبت جثته؟ هل اكتشف الرومان أنه الرجل غير المطلوب، فأخرجوه خشية الفضيحة.. لا أحد حتى اليوم يستطيع إثبات شيء من ذلك.

اختفى عيسى عن الأرض، واختفى معه الإنجيل، فهو لم يحدد تلاميذًا يكتبون الإنجيل والوحي، كما فعل النبي محمد ﷺ مع القرآن، والمسيح أيضًا لم يأمر بحفظ الإنجيل في الصدور والسطور، كما فعل النبي محمد ﷺ مع القرآن، كما أن المسيح لم يجعل للحافظ الأولية في إمامة الصلاة، كما فعل النبي محمد ﷺ.

اختفى عيسى ﷺ وهو يعبد الله وحده، ويصلي ويصوم لله حده لا شريك له.. ويعترف أن معجزاته منه سبحانه.

كان مختونًا، ولم يأكل الخنزير، كما نهى أتباعه عن صنع التماثيل والأصنام، فما الذي حدث بعد رحيل المسيح وجعل النصارى يكدسون التماثيل في الكنائس ويأكلون الخنزير؟ من الذي أمرهم بترك الختان؟ وقبل ذلك كله، والأخطر على الإطلاق: من الذي أمرهم بعبادة المسيح نفسه وعبادة جبريل معه؟

أسئلة يجيب عليها ذلك المخبر والسفاح اليهودي الذي تقطر يدها دما، وهو يسوق مجموعة من الأبرياء النصارى، ليعدهم بأمر من الدولة الرومانية الوثنية.. مجرم أزعجه انتشار التوحيد النقي.. لم يشف غليله اختفاء عيسى، والهدف من اختفائه قد فشل، فها هو التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط.. هنا لا بد من الانتقال للخطة البديلة.

الخطـة البديلة وشيطانها

اختفى المسيح، ومع ذلك ظل التوحيد ينتشر، والمتآمرون يشعرون بالإحباط بعد فشل مخططهم.. هنا كان لا بد من الانتقال للخطـة البديلة، وهي خطـة، لا تستهدف الأشخاص، فقد ثبت أن استهداف الأشخاص واضطهادهم، يكسبهم شعبية وأتباعًا جددًا، ويحرض الناس على السؤال والاستقصاء عنهم، ثم اعتناق أفكارهم.

الخطـة البديلة كانت من إبداع مجرم من شعب المسيح.. من بني إسرائيل أنفسهم اسمه (شاءول)، وهو عميل للروم، وكانت مهمته هي التجسس وملاحقة الحواريين وبقية المسلمين من أصحاب عيسى ﷺ.. يتبعهم في فلسطين.. يلاحقهم في القدس.. في أي مكان يسمع بهم، ثم يقبض عليهم، ويشحنهم ليتم إعدامهم في دمشق، ثم ماذا؟

تعـب شاءول، فكلما أعدم نصرانيًا موحدًا على دين المسيح أسلم عشرة.. ضاغت جهود شاءول، فاجتمع مع أسياده، وقرر تنفيذ خطته البديلة، وهي نسف دين عيسى ابن مريم ﷺ من الداخل، ولن يكون ذلك إلا بنسف التوحيد، وسينفذها على خطوات:

الخطوة الأولى مرحلة يمارس فيها النفاق والتظاهر بالتقوى والورع لمدة أشهر، حتى صدقه بعض النصارى، فأقبلوا عليه يسألونه: ما الذي غيرك يا شاءول؟ ما الذي حولك من مجرم سفاح إلى ملازم للمحراب؟

هنا بدأ شاءول بالخطوة الثانية، وأزاح الستار عن مسرحيته، التي غيرت العالم.. وأطلق كذبه التي دمرت التوحيد في نفوس الملايين من المسيحيين.. قال لهم: إنني كنت ذات ليلة في الطريق إلى دمشق، أسوق مجموعة من أتباع عيسى الموحدين الأبرياء لإعدامهم، وفجأة دوى هزيم رعد، وبرق أصابني بالعمى، وزلزلني، وشلني عن الحركة، فسقطت على الأرض، وإذ بصوت يصيح بي: يا شاءول.. يا شاءول لماذا تضطهدني وأنت نبي؟



رفعت رأسي نحو مصدر الصوت، فإذا به يطلب مني أن أذهب إلى قس اسمه حنائيا.. نهضت خائفاً، ومشيت حتى وجدت من يدلني عليه، فذهبت إليه، وأخبرته بما جرى لي، فمسح عيني، فسقط منها مثل القشور، وعاد لي بصري!

انطلت هذه الكذبة على الجهلة والسذج، بينما ظل كثيرون متشككين مرتابين، هنا.

بدأ شاءول بممارسة النفاق، أي التظاهر بالتخلص من ماضيه الأسود، وكان أول ما تخلص منه هو اسمه. استبدل اسم (شاءول) باسم جديد هو (بولس الرسول). خطوة تعاطف البعض معه بعدها، وصدقوا أنه رسول.

بعدها.. بدأ بتنفيذ خطواته الثالثة، وهي الأخطر، لأنها دمرت العقيدة المسيحية حتى اليوم.



الخطوة الأخطر لشاءول

في أحد الأيام دعا شاءول النصارى المصدقين له، والمرتابين منه للاجتماع، فانطلقت الخطوات نحوه.. كانت العيون مشدودة، والقلوب تخفق بانتظار جديده، وإذا به ينطق كفرة بكل رسالات السماء.. كفرة بكل رسالات الأنبياء.

بصق (شاءول بولس) أمام الجمهور المتحلق حوله أكبر أكذوبة في التاريخ، فقال لهم: إنه مر بطريق دمشق مرة أخرى. ذلك الطريق الذي ادعى أن المسيح ظهر له فيه، وكان الوقت ليلاً أيضاً، وإذا بالرعدي يقصف في الأجواء كتلك الليلة أيضاً، وإذا بالمسيح يظهر أيضاً ويقول له:

يا شاءول.. يا شاءول. اذهب لأتباعي وأخبرهم أنني نسيت، وأن كل الأنبياء قبلي نسوا أيضًا. كلنا نسينا أن نخبر العالم أنني ابن الله.

انفجر المكان بالاحتجاج.. بصيحات الاستهجان على هذه الوثنية، ودبت الفوضى حول الدجال، وكفر الحواريون بهذا الإفك، الذي ﴿تَكَاذُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ (١٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا، لكن النصارى كبقية شعوب الأرض.. منهم المؤمن قوي العقيدة، ومنهم الساذج والأبله، الذين صدقوا هذا الأفاك المدعوم من الوثنيين، وحاخامات اليهود، فأصبحوا أتباعاً له.

مرت الأيام فبدأ (بولس. شاءول) الدجال يواصل تنفيذ مخططه في غيبة الإنجيل الصحيح.. بدأ بالعبث بأحكام التوراة والإنجيل.. أباح لأتباعه أكل الخنزير.. أباح لهم ترك الختان، وفي النهاية تمكن شاءول من تصميم دين جديد.. صمم ديناً أقرب للوثنية، فهو متعدد الآلهة.. دين لا يبالي بالذبح باسم الله، ولا بأكل الخنزير، الذي حرّمه المسيح نفسه، ولم يبال بسنن الأنبياء منذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام وهي الختان، لا سيما والكتاب المقدس كثيراً ما يعير الوثنيين بأنهم (غلف).

ظل (شاءول. بولس) يتوسع في البدع لدينه الجديد، ليخترع لهم إلهاً جديداً، ويضيف إلهاً ثالثاً هو الملاك جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، بل وتتكاثر الأناجيل يوماً بعد يوم من إنجيل واحد إلى أكثر من مائتي إنجيل متناقضة.

الكارثة هنا أنها تحتوي على أكثر من عشرين ألف خطأ باعتراف القساوسة اليوم^(١).

(١) أجل (٢٠٠٠٠ خطأ) في كتاب يُفترض أن يبقى نقيّاً كما أقرت بذلك هيئة من الخبراء الإنجليز قامت عام (١٧٢٠) بإحصاء عدد الأخطاء في (الكتاب المقدس)، فقدرتها بأكثر من عشرين ألف خطأ. دُكر ذلك في مقال نشر في مجلة (Awake) عدد سبتمبر من عام ١٩٥٧م. انظر تفاصيل أخطر حول تلك الأخطاء في كتيب: (خمسون ألف خطأ في الكتاب المقدس).



استمر الحواريون تلاميذ عيسى الأنقياء على منهجه بعد رحيله.. استمروا بنشر التوحيد هم وتلاميذهم، وقد كانوا يشكلون الأكثرية النصرانية الساحقة لأكثر من ثلاث مئة عام، حتى جاء ذلك اليوم الأسود، الذي حكم فيه إمبراطور بيزنطي، اسمه (قسطنطين)، وهو الذي بنى القسطنطينية، وسميت المدينة باسمه، فقد كانت أمه المسماة (هيلانة) قد اعتنقت عقيدة (شاءول بولس)، وإذ بابنها قسطنطين يقلب المسيحية، ويغيرها بحد سيفه.



الدين الذي أطفأ الأنوار في أوروبا

ظل (قسطنطين) على عقيدته الوثنية، يعبد آلهة وأصنامًا متعددة.. إلها للحرب، وإلها للمطر، وإلها للخصب، وهكذا، لكنه تعاطف مع عقيدة أمه وهي عقيدة (شاءول)، وبدأ يناصر اتباعها، لأنها لا تتناقض مع وثنيته ذات الآلهة المتعددة.

وفي أحد الأعوام، وبالتحديد في عام ثلاث مئة وأربع وعشرين (٣٢٤م)، وبعد أن انتشرت النصرانية الإسلامية التوحيدية (عقيدة المسيح وعقيدة كل الأنبياء) انتشارًا كبيرًا قرر هذا الإمبراطور أن يفرض عقيدة أمه (الأرثوذكسية) بالسيف، ولكن بطريقة ذكية توحى بالإنصاف، لأنه يشعر بالقلق تجاه الأكثرية المسيحية، التي تؤمن أن الله واحد أحد، سبحانه لا شريك له.. لم يلد ولم يولد، وأنه ليس كمثله شيء..

قرر قسطنطين أن ينصر عقيدة أمه، لذا أصدر أمرًا بجمع قساوسة الأرض في مدينة (نيقية) الواقعة على بحيرة نيقية على أرض الأناضول، ليتباحثوا ويدرسوا ويتناقشوا، ثم يقرروا أي العقيدتين أصح: عقيدة المسيح، أم عقيدة بولس الدجال؟ انطلق رسل الدولة البيزنطية.. يعبرون الفيافي والقفار، ويشقون

البحار والأنهار.. يحملون رسائل الإمبراطور إلى كبار قساوسة ورهبان العالم في ذلك الوقت.

وصلت الرسائل، فرحب بها القساوسة النصارى، وشدوا الرحال نحو نيقية ظناً منهم أن مؤتمرًا علميًا حرًا في انتظارهم.. أمضوا أيامًا وأشهرًا للوصول.

وفي شهر مايو من عام ٣٢٥ للميلاد، وصل أكثر من ألف ومئتين من قساوسة الأرض، فبدأت جلسات المؤتمر في العشرين من مايو، وأدلى كل عالم وراهب بدلوه في أخطر قضية مسيحية وهي هل المسيح إله أم بشر؟

تكلم أتباع (شاءول بولس) وهم الأرثوذكس وكان ق بثرثرة عجزوا فيها عن تقديم دليل على ألوهية المسيح، ثم تكلم أتباع عيسى ابن مريم فأفحموهم، وأثبتوا أن المسيح مجرد نبي ورسول كريم، ولا يتميز عن بقية الرسل إلا بمعجزة خلقه. وكان إمام هؤلاء الموحدين هو العالم والقس (إريوس).

ظن الجميع أن المسألة قد حسمت للتوحيد، ولكن.

صدم قسطنطين بنتائج المؤتمر، فقد كان ألف قس، وهم الأغلبية الساحقة على دين المسيح، يقولون: إن الله واحد أحد، لا شريك له، ولا ولد له، وأن عيسى نبي من الأنبياء، وخلق من مخلوقاته، وكان إمام هؤلاء الموحدين قس اسمه (إريوس)، أما الأقلية فكانوا على دين (شاءول بولس) الأرثوذكسية، أي يقولون: إن عيسى ابن الله. وكان قائدهم هو بابا الإسكندرية، واسمه (الكسندروس الأول).

صدم قسطنطين الوثني بنتائج مؤتمر نيقية.. تلفت فوجد أن الأغلبية الساحقة عكس توقعاته.. كلهم موحدون على دين التوحيد.. دين عيسى ابن مريم، وحق بالأقلية، فإذا هي على دين شاءول، الذي اخترع فكرة أن عيسى ابن الله، وسمى نفسه (بولس الرسول).



غضب الإمبراطور وهو يرى دين أمه دينًا للأقلية، وبعد انتهاء المؤتمر قرر إرغام الأكثرية على دين (بولس)، وكأن النصرانية اختراع بشري، يخضع لمزاج الحاكم.

أصدر أمرًا بملاحقة الأكثرية، الذين لا يعترفون بالوهية المسيح، وأشهرهم القس (إريوس)، فانطلق الجند لمطاردتهم، وبدأت محاكم التفتيش الفظيعة، تبحث عن كل من يقول: لا إله إلا الله. لتبطش به سحرًا ونحرًا، وطالت المطاردات والتصفيات اليهود والفلاسفة أيضًا؛ لتدخل أوروبا عصور ظلمات وقمع، لا مثيل لها، حتى في العصور الوثنية.

عصور لم تفق منها إلا على يد محمد ﷺ.



عصور أوروبا المظلمة

على يد الطاغية الوثني (قسطنطين) ولدت أول دولة مسيحية شاءولية، وبقوة السيف بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، ونفذت الإعدامات بحق المثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء، فقسطنطين هو أول حاكم لأول دولة تحكم باسم المسيح. هي أول دولة تنفذ أمر المسيح الذي يقول في أحد الأناجيل: (أعدائي هم الذين لا يرضون أن أكون ملكًا عليهم. هاتوهم واذبحوهم قدامي).

بل إن قسطنطين قام عام (٣٣٥م) ببناء عاصمة مسيحية أرثوذكسية على أنقاض مدينة (بيزنطة) الوثنية، وسماها (القسطنطينية) حيث هدم كل المعابد فيها، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية، التي تدين بدين أمه، وهو دين (شاءول بولس).

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقاً من القسطنطينية. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى. عصور امتدت لألف عام، فاضطر المسيحيون الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.

ظل هذا الحكم مرعباً للمسيحيين الموحدين وللإهود وللغلاسة، حتى بعث الله النبي محمداً ﷺ، حيث اعتنق الكثير من الموحدين الشرقيين الإسلام، وشعر الإهود بالأمان. أما في أوروبا، فأوروبا ظلت غارقة في الظلام، ولم ترفع رأسها منه إلا بعد عام ألف وأربع مئة وثلاث وخمسين للميلاد (١٤٥٣م) على يد حملة القرآن.

هذا العام بالضبط هو الذي حدده المؤرخون، والمثقفون الأوروبيون لبدء عصر النهضة الأوروبي، وهو بالتحديد تاريخ تحول القسطنطينية، من أول عاصمة للمسيحية، إلى عاصمة إسلامية، حيث تحولت إلى منار لكل أوروبا، بعد أن كانت قبوا للمحاكم التفتيش الأرثوذكسية.. كانت نفقاً كنسياً قبع في أوروبا أكثر من ألف عام.

ولذا أرخ المؤرخون الأوروبيون عصر النهضة بدخول القرآن للقسطنطينية، حيث انطلقت ثورة على المسيحية للمسيحية نفسها. ثورة قادها قس ألماني يدعى (مارتن لوثر)، والذي تأثر بتعاليم الإسلام.

تأمل (لوثر) الإسلام فلم يجد فيه رجال دين. لا بابا ولا حاخامات أو كرادلة أو بطارقة أو قساوسة، أو حتى رجال دين يبيعون صكوك غفران. أو كهنة يغفرون لمن يشاءون ويحرمون من يشاءون.

هنا تمرد لوثر على رجال الدين، فرفض وجود بابا.. رفض أن يكون للنفس الحق في أن يغفر للناس، بل أراد أن تكون قراءة الكتاب المقدس متاحة للجميع، كما يتاح القرآن للجميع، وليس حكراً على القساوسة.

لكن هذا الإنجاز العظيم كان ناقصاً.. كان قاصراً على نقد آلية عمل الكنيسة، لكنه لم يصل إلى أعماق الدين المسيحي. لم يحاول البحث عن الإنجيل الأصلي، أو الأقرب للصواب، فالله أنزل إنجيلاً واحداً، وهم الآن لديهم أكثر من مائتي إنجيل، يناقض بعضها بعضاً، وكل إنجيل منسوب لمؤلف من البشر غير الآخر. فسبحان من حفظ القرآن بنفسه، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

إنه القرآن الذي أيقظ أوروبا، فتخلت عن سلطة رجال الدين والتخلف. الذين يأكلون أموال الشعوب باسم الله سُبحانه وتعالى عما يقولون، وحاشا المسيح الذي عاش مناضلاً أن يكون كما يصوره هؤلاء.

المسيح هو أخو محمد ﷺ، وربهما واحد، ودينهما واحد، وهو التوحيد، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ورسالتهما بعد التوحيد هي العدل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.



محمد ﷺ بعد فترة من الرسل

على يد الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين) وبقوة السيف، بدأ فرض دين (شاءول بولس) الأرثوذكسي، ومعه بدأت عمليات إحراق الكنائس المخالفة للأرثوذكسية، كما نفذت الإعدامات للمثقفين والفلاسفة، وسالت دماء الأبرياء على يد أول دولة للمسيحية، ولم يسمح إلا ببناء الكنائس الأرثوذكسية.

في هذا التاريخ بالتحديد، وانطلاقاً من القسطنطينية.. قامت هذه الدولة بإدخال أوروبا في عصور الظلام، التي تسمى القرون الوسطى.. عصور امتدت لألف عام، فاضطر الموحدون إلى الانزواء في الصوامع والانكفاء على الذات، أو الهروب، أو التظاهر بالأرثوذكسية.. ظل هذا الحكم مرعباً

للمسيحيين الموحدين ولليهود وللفلأسفة؁ حتى بعث الله النبي محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؁ حيث اعتنق الكثير من الموحدين الإسلام؁ وشعر اليهود بالأمان؁ وذلك بعد فترة من الرسل؁ أي بعد فترة دامت أكثر من ست مئة عام من رفع آخر الأنبياء الإسرائيليين إلى السماء؁ وهو المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد كان ذلك بعد أن بشر أصحابه وشعبه الإسرائيلي بنبي يأتي من بعده؁ هو النبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

رفع المسيح وهو حزين لجحود قومه وتكذيبهم له.. بعده خلت الأرض من الرسل؁ وازداد تشظي الديانات السماوية؁ حتى اختلط بعضها بالوثنية.. نسي أهل الأرض خالقهم العظيم.. خالق السموات والأرضين؁ وتعلقوا بأخشاب وأحجار وأشجار وفئران وحيات وأبقار؁ يعبدونها من دون الله؁

كانت الجزيرة العربية قد تحولت إلى الوثنية بالكامل.. حتى مكة معقل التوحيد.. أصبحت أسيرة للوثنية؁ أما كعبتها التي بناها إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؁ فكانت تئن من الشرك؁ حيث قام الوثنيون بتحويلها إلى طاولة؁ توضع على ظهرها أصنامهم؁ التي بلغت ثلاث مئة وستين صنمًا.

في تلك الفترة كان في مكة فتاة حزينة على فراق حبيبها؁ وزوجها الذي توفي وتركها وهي في أشهر حملها الأول؁ مما جعل حزنها يزداد على جنينها الذي سيولد يتيما؁ ولن يرى في هذه الدنيا أباه؁ لكن وفي إحدى لياليها تلك رأت في نومها شيئًا أبهجها.

رأت نورًا عظيمًا ينبعث منها؁ وكأنه شمس؁ أشرقت على الجزيرة العربية؁ حتى أضاءت قصور الشام وقلاعها^(١).. استبشرت الفتاة (آمنة بنت وهب)

(١) وهو حديث قوي؁ له عدة طرق؁ رواه أحمد (٢٢٢٦١)؁ وغيره بألفاظ منها: «رأت أمي أنه يخرج منها نور؁ أضاءت منه قصور الشام».

بتلك الرؤيا، واطمأن قلبها على حملها، ولما أصابتها آلام المخاض القاتلة..
أذهلها الألم عن الدنيا، ولم يخفف تلك الآلام إلا رؤية طفلها الجميل محمد
بن عبد الله بن عبد المطلب.. يوضع بين يديها الحانيتين.



من المولد إلى التكذيب

انزاحت آلام (آمنة) بجمال محمد، كما انزاحت آلام مريم عند نخلتها،
وكان من عادة بعض بيوت مكة استرضاع أطفالهم في البادية، فأرسلوه مع
مرضعة طيبة اسمها حليلة السعدية، حيث بادية هوازن الجميلة، ثم عاد إلى
آمنة ليؤنس وحشتها، لكن فرحته بها لم تدم.

ماتت آمنة مخلقة جرحاً في قلبه لم يندمل، فتولى رعايته جده عبد المطلب،
ليتجاوز سن المراهقة دون أن يعرف بطيش أو سفه أو وثنية.. اشتغل برعي
الغنم في شبابه مقابل دراهم معدودة، ومارس في شبابه السفر للتجارة.

لكن سفره الأبعد، والأطول، والأجمل، فكان عبر معارج التأمل، والسياحة
في الكون، والتفكير في خلق الله سبحانه. كان محمد موحداً ينفر من الأصنام،
ويأبى عبادتها، ولما تجاوز العشرين بسنوات، أعجبت به أعقل امرأة في
قومه.

امرأة اسمها خديجة بنت خويلد، وكانت أكبر منه سنًا، فعرضت عليه
الزواج أو عرض عليها، وتحققت أمنيته فرزق منها بأربع زهرات: رقية
وزينب وأم كلثوم وفاطمة.

اقترب محمد من الأربعين، فأصبح أكثر تأملاً، وحباً وتوقاً للخلوات بربه..
يسث مناجاته لله وحده، بعيداً عن ثقافة الأصنام، وإذ به يرى أشياء، ويسمع

أصواتًا لا يجد لها تفسيرًا، مما حدا به إلى البحث عن مكان يمارس فيه
مناجاة خالقه، بعيدًا عن لوثات الوثنية.

وجد غارًا في جبل اسمه حراء، فجعل منه مكانًا للتعبد، يقضي فيه أيامًا
وليلًا، وفي ليلة من ليالي العشر الأواخر من شهر رمضان، سنة ثلاث وعشرين
قبل الهجرة، وبينما كان في الغار، إذ به يرى طيفًا يدخل عليه، ويعانقه، ويأمره
قائلًا: ﴿اقْرَأْ﴾.

كررها هذا الزائر الغامض ثلاث مرات، ومحمد ساكت لا يدري ما يقرأ،
ثم تلا الشخص الغريب عليه كلام ربه قائلًا: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثم أفصح
له عن هويته وعرفه بنفسه وأخبره أنه الملاك جبريل، ثم بشره بالنبوة!.

انحدر محمد ﷺ خائفًا من الجبل، يتصبب عرقًا وحيرة، ولما دخل
على حبيته، طلب أن تغطيه، وأخبرها الخبر، لكن الزوجة العاقلة استبشرت
خيرًا، وقدمت له أكبر دفعة معنوية. حين بشرته بأن الله لن يخزيه، لأنه رجل قد
في أخلاقه. صادق في حديثه. يكرم الضيف، ويغيث الملهوف، ويعين الناس
على مصائبهم. قائلة: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل
الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(١).

غفا محمد ﷺ على تلك الوسادة الفاخرة من الخلال، والصفات
الحميدة، لكن خديجة لم تكتف برفع المعنويات، فقد نهضت في الصباح،
وأيقظت زوجها وطلبت منه أن يصحبها، فوافق فتوجهت به إلى شيخ كبير من
أقاربها، وكان من العباد النصاري الموحدين، واسمه ورقة بن نوفل، فأخبره
محمد ﷺ بما جرى له، فبشره ورقة أن الذي هبط عليه.. هو الملاك
الذي نزل على النبي موسى ﷺ.

(١) صحيح البخاري (٣).

بعد أيام. ظهر الملاك جبريل ثانية لمحمد، وبشره بالنبوة مجددًا، فانطلق
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيته، وأخبر زوجته الطيبة خديجة فأسلمت رَحِمَ اللَّهُهَا، وأسلمت
بعدها بناته، وابنه بالتبني زيد بن حارثة، وصديقه أبو بكر الذي سمي بالصديق
لتصديقه مباشرة، فهو لم يعرف عنه كذبًا، وبعد أسابيع نزل الملاك جبريل
فأمره بإعلان نبوته والبدء بقييلته، وتلا عليه قول الله تعالى له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ
الْأَقْرَبِينَ﴾.

نهض النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة وتوجه نحو المسجد الحرام، لكنه
لم يذهب للكعبة، بل توجه إلى جبل صغير على ضفاف المسجد اسمه جبل
الصفاء، ثم صعداه وأشرق عليه كالشمس، وبدأ يهتف بفروع، وأسر قبيلته
فريش ويقول:

«يا بني فهر.. يا بني عدي». إلخ. إلخ.

أنصت الناس للصوت المرتفع، فتداعوا نحوه وأقبلوا، فإذا هو صوت
الرجل الصادق الذي كانوا ينادونه بلقب انتزع من احترامهم وقلوبهم.. لقب
الأمين، وما دام الأمين هو من يهتف، فلا بد أن الأمر خطير، لذا أقبلوا وكلهم
شوق لخبره، وتحلقوا حول الجبل، لدرجة أن (الرجل إذا لم يستطع أن يخرج،
أرسل رسولاً لينظر ما هو) وعندما اصطك الجبل بحلقة من العيون المفتوحة
والقلوب المرتجفة والأذان المنصتة. لم يخبرهم محمد الأمين بالأمر؟

بل طرح عليهم أولاً سؤالاً، لينتزع من إجابته اعترافاً موثقاً بمئات الشهادات
أنه أصدقهم على الإطلاق، فهتف بهم وقال: «لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي
تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟».

عندها هتفوا جميعاً: (نعم)، ولم يكتفوا بنعم.. قدموا لابنهم محمد سبب
ثقتهم به. قدموا له تزكية بالإجماع قائلين: «ما جربنا عليك إلا صدقاً».

هنا أعلن النبي محمد ﷺ خطورة رسالته والأمانة التي يحملها، فقال: «فلاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». وإذ بعمة الشقي أبي لهب، والذي زكى قبل ثوان ابن أخيه محمداً أعظم تزكية. إذ به يصرخ كالأحمق، ويقول: «تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟»^(١).

انتفض بعده عشاق الظلام وسدنة الأصنام فرفضوا التوحيد، وأولهم عمه هذا. صاحب الاسم الوثني: (عبد العزى بن عبد المطلب) الملقب بأبي لهب، وتابعه حاقد من أقرانه، يكنى بأبي جهل، لكنه ﷺ لم يكف عن الدعوة.. أمضى معهم ثلاث سنوات مريرة من الدعوة والمعاناة، لم يسلم خلالها إلا عشرات.

حينها أدرك ﷺ أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه في دعوته للخارج.



أول شخص يشيد دولة بعقد

أدرك النبي ﷺ بعد ثلاث سنوات مريرة من الدعوة للتوحيد والعدل: أن بيئة مكة الوثنية طاردة، فتوجه بدعوته للخارج عن طريقين.

إما التوجه بنفسه للمدن القريبة من مكة كالطائف.

أو انتظار القادمين من خارج مكة، لأداء الحج أو العمرة.

كان عليه السلام يبصر الجميع بالتوحيد.. ينشر الوعي بينهم، لكن عمه (أبا لهب) لم يتركه، ولم يكتف بتكذيبه.. ظل يلاحقه كظله.. يشوش عليه.. يكذبه، ويؤذيه بألفاظ بذيئة، وهو لا يلتفت إلى ذلك الظلامي الحاقد.

(١) صحيح البخاري (٤٧٧٠).

يشس أبو لهب وأمثاله من الطغاة من إيقاف دعوته، فعرضوا عليه المال والمنصب والنساء، كي يتراجع، لكنهم كمن يطلب من الشمس أن تعود من حيث أتت.. ظل صامداً، حتى تفاقم حقدهم؛ لدرجة أن حاول طاغوت اسمه عقبة بن أبي معيط أن يقتله خنقاً بثوبه، وهو ساجد لربه عند الكعبة، فأنقذه أبو بكر، وهو يقول: ﴿أَفْتُلُون رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

ومرة أراد الطاغوت الآخر (أبو جهل) إهانة النبي ﷺ، فطلب إحضار مشيمة ناقة، ليلقوها على ظهره وهو ساجد داخل المسجد الحرام، فعلمت ابنته فاطمة بذلك، فأقبلت حزينة حتى أراحتها عن ظهره^(١).

هكذا أفقدهم حقدهم احترام ميزتهم بين العرب وهو المسجد الحرام، وبعد عشر سنوات من المعاناة والتكذيب كثر أتباع النبي ﷺ، لكنه لم يشكل منهم ذئاباً منفردة، ولا كتائب للانتقام، وتصفية الخصوم، ولم يحاول القفز على السلطة.. ظل يستخدم سلاحه الوحيد.. الكلمة.. القرآن.. الإقناع.

بعد عشر سنوات ظهر النور في نهاية النفق الوثني.. قدم رجالا من مدينة يثرب للحج بعد عام أسود كبدتهم الوثنية فيه خسائر فادحة.. جراء الشحناء بينهم والثرات، وكانوا قد رفضوا التوحيد على مدى العشر سنوات الماضية، لكن جراح الجاهلية جعلتهم ينصتون للنبي ﷺ هذه المرة بقلوبهم، فوجدوا رسالة الإسلام رسالة تصالحية ستلتئم بها جراحهم النازفة.. رسالة تدعو للتوحيد والعدل والسلم الاجتماعي، مما جعلهم يبائعونه، ويعقدون معه اتفاقاً ملزماً له ولهم.

اتفاق بنى محمد ﷺ على أسسه دولة الإسلام، ليكون أول شخص في التاريخ يشيد دولة بالكلمة.. بالعقد بالمواثيق، دون أن يحمل حتى سكيناً.

(١) قصة أبي بكر رواها البخاري (٤٨١٥)، وقصة فاطمة رواها مسلم (١٨٩٤) والبيهقي (٢-٢٨).

بايعه أهل يثرب على أن يكون زعيمهم، ولكن بشرط أن يهاجر إليهم، واشترط عليهم أن يدافعوا عنه وعن دينه ورسالته، التي لم تكن للتوحيد فقط، بل رسالة للتوحيد والعدل والسلام الاجتماعي.

وبعد عامين من ذلك اللقاء.. جرى أعظم حدث بعد البعثة.

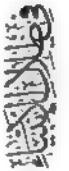


الإسلام يجعل يثرب الثارات مدينة للحب

عاد زعماء يثرب إلى يثرب، بعد اتفاقهم مع النبي ﷺ، وخاطبوا قومهم بالاتفاق والمعاهدة معه، فافتتح أكثرية أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج ووافقوا على استقباله ونصرته، فقام النبي القائد محمد ﷺ بإعداد الخطة والترتيبات لمغادرة مكة، برفقة صاحبه أبي بكر الصديق، وبشكل سري، لأن طواغيت قومه الوثنيين علموا بأمر الهجرة، فقرروا اغتياله قبل أن يهاجر، لكن خطة الهجرة العظيمة كانت خطة بالغة الإحكام، طاشت بسببها ضربات قريش في الهواء.

في البداية انتفى ﷺ جبلاً يقال له جبل ثور للاختباء.. انتقاه بطريقة ذكية، فطريق يثرب يقع في الشمال، والجبل في الجنوب، ولما انطلق لم يسلك طريق القوافل، بل سلك طريق السواحل، وهكذا حتى وصل، ولما وصل استقبله المسلمون بالسلاح تعبيراً عن الفداء، لكنه ظل متمسكاً بسلاح الكلمة، ورسالة التسامح.

بداية غير اسم يثرب الكئيب إلى اسم صار علماً على كل المدائن.. سماها (المدينة)، لم يبدأ ببناء قصر له، بل بدأ ببناء المسجد.. منبع التوحيد، ومنازة الوعي.. يجتمع فيه الرجال والنساء خمس مرات، بعد أن يتطهروا، ويظهروا



ثيابهم... يتلقون فيه دروساً عقدية وأخلاقية وتربوية واجتماعية واقتصادية، بل كان المسجد بيت من لا بيت له، ومأوى من لا مأوى له من المهاجرين الفقراء.

كان النبي ﷺ بلا زوجة بعد رحيل خديجة لأكثر من سنتين، لذا بنى له غرفة متواضعة ملاصقة للمسجد.

قام النبي ﷺ بعد ذلك بخطوة غاية في الرحمة والعظمة، وهي المؤاخاة بين أهل المدينة والمهاجرين.. إخوة فاقت إخوة النسب، لدرجة أن المهاجر يرث الأنصاري، والعكس، فهل كان ذلك يعني إهمال بقية الشعب من الوثنيين واليهود، وإقصاءهم؟

إطلاقاً، فتلك إخوة عقيدة، أما بقية الشعب فكانوا محط اهتمامه، حيث قدم ﷺ ثقافة تسامحية، تجاه مكونات شعبه المتنوعة، فهناك أقليات وثنية، وقبائل يهودية عديدة، متحصنة في حصون منيعة.

وإذ بالنبي ﷺ يشكل منهم نسيجاً وطنياً متناغماً ومتآلفاً، ليقدّم ولأول مرة في التاريخ مفهوم (المواطنة)، حتى قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم)، لكن ذلك أجج غضب طواغيت الوثنية الإقصائيين في مكة.



حكمة قيادية لا مثيل في احتواء الآخر

قال أحد الصحابة: (كان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاطاً: منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ، ومنهم المشركون

الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون،.. فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك^(١).

أراد القائد الحكيم ﷺ استصلاحهم لا تفرقهم.. استصلاحهم لا زرع العداوة بينهم، بل كان النبي القائد محمد ﷺ يتعامل مع اليهود في شأنه الشخصي بطريقة بالغة الود، لدرجة أنه كان يسرح شعره على طريقتهم، ومع ذلك قابله هؤلاء الوثنيون واليهود بالأذى والسب والتطاول، حتى قال أحد الصحابة: (كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جل ثناؤه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾).

بل بلغ القرآن درجة غير مسبوقة في بث روح التسامح بين شعب دولة القرآن، وذلك حين أمر نبيه بالصفح، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ثقافة رائعة، أشرقت على يثرب.. أنستها دماءها، التي فجرتها الثارات الوثنية الجاهلية لقرون، من أجل كلمة أو بغير أو حصان.

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣/ ١٩٧)، ووصله أبو داود (رقم ٣٠٠٠)، ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠)، فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري. التهذيب (٤/ ٣٥١): وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين. التقريب (١٧٦)، وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

إنجازات راقية وتمدنة، أصابت زعماء قريش بالجنون.. خاصة حين تجاهل صلى الله عليه وسلم مراراتهم وقمعهم له على مدى ثلاثة عشر عامًا، فمنذ أصبح قائد دولة لم يفكر يومًا بالانتقام ممن ظلمه، بل قابل صلف قريش بالتسامح.

حمى قوافلها، وسمح لمواطنيه باستقبال طواغيتها، الذين اضطهدوه، واضطهدوا أصحابه: كأمية بن خلف، وأبي جهل، الذي دخل المدينة فلم يمس أحد منه شعرة، بل لبى صلى الله عليه وسلم طلبه، وحصل على مراده، ورجع لمكة آمنًا.

جن جنون قريش، فحاولت إفساد هذا الإنجاز الحضاري في المدينة.. قرر طواغيت مكة خلق جيوب خيانية، وخلايا إرهابية وثنية، داخل جسد دولة النبي صلى الله عليه وسلم.. أرسلوا رسالة سرية لزعيم الأقلية الوثنية، ويدعى (عبدالله ابن سلول) يهددونه فيها أنه إن لم يطرد محمدًا وصحبه فستغزوهم قريش بجيش لا قدرة لهم على صده، فجهز ابن سلول كتيبته، وتسليحوا واستعدوا، لكن تلك الرسالة والتحركات وصلت لقائد الدولة صلى الله عليه وسلم.



إبداع النبي صلى الله عليه وسلم لمفهوم (المواطنة)

حين تكون القيادة عادلة وحكيمة، يصبح الشعب عيونًا للوطن.. علم النبي صلى الله عليه وسلم برسالة طواغيت قريش الوثنيين التحريضية، واستجابة الشريحة الوثنية من شعبه لها، وعزمهم على الخيانة والتمرد، فلم يستبشر بما حدث، ويستغله لتصفية ابن سلول وبقايا الوثنيين.

كان أرقى من ذلك بكثير، لدرجة أن ابن زعيم الوثنيين عبد الله ابن سلول جاء غاضبًا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعارضًا قتل أبيه المشرك، والتخلص منه، نظرًا لخياناته، وقائلًا: (يا رسول الله، والذي أكرمك لئن شئت لأتيتك برأسه؟).

وإذ بالنبي محمد ﷺ يكشف عظمة القيادة ورحمة النبوة.. لم يفرح بتلك الكلمات، للتخلص من رأس الخيانة، بل حول حياة ذلك المنافق إلى ربيع داخل دولة القرآن.. حين هداً ابنه المؤمن، وقال له: «لا، ولكن برأباك، وأحسن صحبته»^(١)، ثم توجه ﷺ إلى ابن سلول وكتيبته الخيانية، فخطبهم من منطلق المواطنة الراقية، وقال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)^(٢).

فشلت محاولة طواغيت قريش الوثنيين، فانتقلوا للخطة البديلة وهي تحريض القبائل اليهودية، وأرسلوا لهم رسائل تهديد، قالوا فيها: (إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء)^(٣)، فعلم ﷺ بوصول تلك الرسالة، وترحيب اليهود بها.

هنا اختلف موقف القائد ﷺ، فاليهود ليسوا أهل البلد، بل هم ضيوف لاجئون، ومع ذلك لم يستغل الفرصة لطردهم، أو اضطهادهم كما فعلت بهم الأمم التي لجأوا إليها على مدار التاريخ، بل تعامل ﷺ معهم كما تتعامل الدول الراقية مع اللاجئين، بل وأرقى.

توجه إليهم قبيلة قبيلة، ولم يتركهم حتى وقع معهم وثيقة مواطنة تكفل

(١) سننه قوي رواه البزار (٧٩٧٨): حدثنا محمد بن بشار وأبو موسى حدثنا عمرو بن خليفة حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وابن عمرو بن علقمة حسن الحديث من رجال الشيخين وابن خليفة قال عنه البزار ثقة، والبقية ثقات.

(٢) صحيح إسناده الإمام الألباني في كتابه صحيح سنن أبي داود (٥٨٢/٢) رقم (٣٠٠٤)، فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع كتابي الصحيح من أحاديث السيرة.

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

كافة حقوقهم وتحافظ في الوقت نفسه على سيادة الدولة التي يقيمون فيها..
وثيقة ملزمة للطرفين.

هكذا أفشل النبي القائد ﷺ كل خطط الوثنيين لشق اللحمة الوطنية،
فلم يبق أمام طواغيت قريش سوى محاولة كالانتحار.



أكبر جريمة لقريش بعد الشرك

جريمة لم يجرؤ عليها أحد قبلهم، وذلك حين أصدر أبو جهل قرارًا بمنع
أهل المدينة وأي مسلم من حقهم، وحق كل إنسان على الأرض منذ إنشاء
مكة.. هذا الحق هو أداء الحج والعمرة.. هنا ارتكبت قريش أكبر جريمة بعد
الشرك، وهي الصد عن المسجد الحرام، فأصبح السكوت عن ممارسات
الوثنيين مستحيلًا عند أهل المدينة، لذا أصدر أحد الوزراء النافذين، وهو
سعد بن معاذ رضي الله عنه قرارًا مماثلًا.

أصدره وهو في مكة، حيث منعه الطاغوت الوثني أبو جهل من أداء العمرة،
فأصدر قرارًا بمنع قوافل قريش من المرور نحو الشام، فأقره صلى الله عليه وسلم من
باب المعاملة بالمثل.. هنا شعر الوثنيون بالفشل، فقرروا شن الحرب.



نبي يصنع دولة قوانين ووثنيون يؤججون الحروب

فشلت كل محاولات طواغيت قريش الوثنيين في إشعال حرب أهلية،
وفتنة طائفية داخل دولة النبي صلى الله عليه وسلم، لذا قرروا غزو المدينة، وقد حدث
ذلك في أشهر وأهم معركة، وهي (بدر)، ففشلوا فشلًا ذريعًا، وخسرت قريش
أهم طواغيتها جملة واحدة.

عاد بعدها النبي القائد محمد ﷺ لاستئناف بناء دولته وشعبه، حيث نزلت عليه أحكام الزكاة، ليتكافل المجتمع، ويخنو الغني على الفقير، ولو كان الفقير يهوديًا أو مسيحيًا أو مشركًا، ثم شرع الصيام تلك العبادة التي تشع روحانية وصحة وتكاتفًا بينهم، ثم نزلت أحكام القضاء، وحق الترافع لحفظ الحقوق في نظام قضائي راق، طبقه النبي ﷺ على نفسه، وهو قائد الدولة، وكان خصمه في ذلك أعرابي وثني غريب، لا ناصر له.

ف ذات يوم دخل هذا الأعرابي سوق عاصمة دولة القرآن (المدينة)، ومعه فرس يريد بيعها.. كان قائد الدولة محمد ﷺ حينها في السوق بين شعبه، فرأى الفرس فأعجبته، فاقرب من صاحبها وسامها.

وافق الوثني وتمت الصفقة، فطلب قائد الدولة ﷺ من الأعرابي أن يلحق به ليعطيه الثمن، لكن نظرات رجال جاءوا متأخرين، حاصرت الوثني وفرسه، فصاروا يسومون الفرس، فطمع الوثني، وأبطأ الخطى، فلما زادوا السوم ازداد طمعه، فصاح بالنبي ﷺ: (إن كنت مبتاعًا هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته)؟

استغرب قائد الدولة وقاضيهما ﷺ تلك الكلمات، فالصدق والأمانة أبرز صفاته، حتى قبل أن يكون نبيًا، لذا عاد نحو ذلك الوثني، مستفسرًا.. لا مهددًا ومتوعدًا، فقال: «أوليس قد ابتعته منك؟» فأنكر الوثني، وحلف كذبًا، وقال: (لا والله، ما بعته) فقال النبي ﷺ: «بلى، قد ابتعته منك».

هنا تداعى المواطنون حول قائدهم، غاضبين من وقاحة هذا الغريب، لكن الغريب لم يخف، ولم يأبه بمشاعرهم، لأنه أدرك لأول مرة أنه لا يتواجد داخل قبيلة أو عشيرة قد تنحاز لشيوخها، بل داخل دولة يحكمها نظام يسري على الجميع.. نظام يحتكم له حتى قائدها، لذا طلب الوثني من قائد الدولة

محمد ﷺ إثباتًا قائلًا: (هلم شهيدًا يشهد أنني بايعتك؟) ^(١) عندها أكد النبي القائد ﷺ لشعبه مبدأ استقلال القضاء في الإسلام.

فامتثل للنظام وهو نبي الله، وامتثل وهو قائد الدولة، وهو القاضي أيضًا، فصار يبحث عن شاهد عيان، أما المواطنون فتفاقم غضبهم من هذا البائع الذي بلغت به الوقاحة تكذيب نبيهم ﷺ، وبخسه حقه داخل دولته، لكنهم لم يمسه بسوء، لأن لدولتهم قانونًا يكفل حماية حقوق المواطن وغير المواطن.



مواصلة التحضر الإسلامي وتواصل الحقد الوثني

نزلت أيضًا على النبي ﷺ أحكام جنائية، لضبط الأمن، والحفاظ على الأرواح والممتلكات، جعلت الأمن يسود في دولة القرآن.. أمن أثار جنون قريش مرة أخرى، فكررت الاعتداء في غزوة أحد، فشلت، أيضًا رغم تحقيقها لنصر معنوي، جراء استشهاد بعض المسلمين العظماء، أمثال حمزة عم النبي ﷺ.

كانت بدر وأحد بالنسبة للمسلمين دفاعيتين.. لم يسعوا لهما، ولم يبدأوهما، أما الغزوة الثالثة (الخندق)، فكانت أشنع غزوة وثنية على دولة القرآن، لكن المحير أن الذي خطط لهذه الغزوة بالغة الخطورة لم يكن طواغيت قريش، فقد تعبوا وملوا من الفشل.

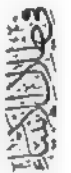
(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤٠ رقم ٣٦٠٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٢٧)، سنده صحيح رواه أحمد (رقم ٢١٨٨٣)، وغيره من طرق عن شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، قال: حدثني عمارة بن خزيمة الأنصاري: أن عمه، حدثه وهو من أصحاب النبي. وشعيب من أثبت تلاميذ الإمام الثقة الزهري. وشيخ الزهري ثقة، وثقه ابن سعد والزهري.

كانت هذه الغزوة المرعبة للأسف من تخطيط مواطنين يتمنون لأقلية من دولة النبي ﷺ هم قبيلة بني النضير اليهودية، فهذه القبيلة قررت ذات يوم اغتيال النبي ﷺ، وذلك عن طريق استدراجه لمناظرة مع حاخاماتها، ثم قتله في أثناء الحوار، لكن مواطنة يهودية أمينة، سربت الخبر لقائدها ﷺ وهو في طريقه للمناظرة، فرجع هو والوفد المرافق له للمدينة مباشرة، ثم حشد كتيبة، وتوجه بها نحو الخونة لا ليبيدهم، ولكن ليلزمهم بتوقيع اتفاقية ووثيقة مواطنة أخرى، لا خيانة فيها ولا تأمر.

اتفاقية ملزمة للجميع، وتضمن أمن الجميع، لكن بني النضير رفضوا المواطنة، وفضلوا الجلاء إلى مدينة خيبر، فوافق النبي ﷺ، ولم يعاملهم حسب شريعتهم، التي تحكم على المدن الخائنة بقتل شيوخها وشبابها ونسائها وأطفالها، كما تأمر بتنجيس بيوتها.

سمح النبي القائد ﷺ لهم بالمغادرة بسلام إلى خيبر، حتى إن بعضهم صار يقتلع أبواب بيته ويأخذها، خشية أن يستفيد المسلمون منها، ولما وصلوا خيبر بدأ زعيمهم حبي بن أخطب يخطط لحشد أكبر جيش عرفته الجزيرة العربية، لسحق دولة القرآن.. تم تشكيله من معظم القبائل العربية الوثنية، وقد أقنعهم هذا الحاخام بشن هجوم خاطف على المدينة، والقضاء على النبي والإسلام، ودولته في ساعات قليلة.

كانت المعركة سهلة على الخريطة، وكانت أعظم خطر مر على المسلمين ودولتهم، حيث ضاقت بهم الأرض، وهم يرون الآلاف تصطك حولهم، لا سيما والتوقيت كان في الشتاء، حيث يشتد البرد، ويقل الطعام، لكن دهاء النبي القائد ﷺ العسكري أفضل غزوة الأحزاب تلك، فقد كانت المدينة محصنة بالجبال من ثلاث جهات، لذا أمر ﷺ بحفر خندق في الجهة المكشوفة، التي لا جبال فيها، فلما وصلت الجيوش الوثنية، صعقت



بالخندق، وتلاشت أحلامها، لكنهم رابطوا لأسابيع، انهارت بعدها عزائمهم، جراء الانتظار والملل والبرد، وعدم القدرة على الاقتحام، ثم أكملت الريح المعجزة المهمة، فاقتلعت خيامهم، ونثرت طعامهم.. بعدها أصبح وثنيو قريش في حالة ضعف لا أمل معه.



دولة القرآن موجهة للإنسان والسلام والبناء

انسحبت جيوش الأحزاب الوثنية تجر جر أذيال الفشل، بينما واصل النبي ﷺ نشر الوعي والثقافة، فأدرك الكثير من الوثنيين أن محمدًا نبي، بعد أن رأوا المعجزات وسلمية التعامل.

كثر المتأثرون بحسن خلقه ﷺ وإدارته وتعامله مع الضعفاء والفقراء والعبيد من شعبه ومن غير شعبه، لدرجة أنه كان يومًا بين رجال دولته، وإذا بطيف امرأة من شعبه في عقلها شيء.. تقبل من بعيد نحوهم، فيخفق قلبها له وحده، وتناديه من بينهم، فيقبل رأس الدولة وسيد حقوق المرأة.. تاركًا عظماء الرجال نحو مواطنة مسكينة، ولما اقترب منها، قالت: (يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟).

فبشرها أن كل الشوارع تؤدي لقلبه، وأن كل الدروب في خدمتها، قائلاً: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك»^(١)، فأخذته كما شئت، ثم نحتت في مسامعه حاجتها، ولم تنصرف حتى حصلت عليها.

النبي محمد ﷺ الذي يصفه أعداؤه بقاطع الطريق.. يشاهد يومًا مجموعة من الوثنيين الجياع الحفاة، ليسوا من شعبه.. كانوا شبه عراة من

(١) صحيح مسلم (٢٣٢٦).

شدة الفقر.. يدخلون عاصمة دولته، فلم يشتمهم، أو يهينهم، أو يشمت بهم، بل تغير وجهه حزناً ورحمة وشفقة بهم، لأنهم بشر، ثم فر من مكانه، وانطلق نحو بيته.. يبحث عما يسد جوعهم، ويكسوهم، ويخفف ما بهم، فلم يجد، فانطلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو مركز التثقيف والتنوير والشعور بالآخر.

انطلق نحو المسجد، فرقى منبره وخاطب شعبه، وقال ملغياً كل الفوارق الدنيوية بين الشعوب بآية من القرآن، تفيض رقيّاً، وقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ثم حثهم على الصدقة فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تصدق رجل من دينار، من درهم، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمره».

وإذ بالمشهد داخل المسجد يتلأأ رحمة، حتى قال أحد الحضور: فجاء رجل من الأنصار بصرة، كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب. ثم يصف مشاعر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأثره وسروره بهذا المشهد الإنساني فيقول: رأيت وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتهلل كأنه مذهب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجرهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

تهلل وجه النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كسا وأشيع وثنياً فقيراً مُعدماً غريباً، ليس من مواطنيه، وليس على دينه.. أشرق وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كسا إنساناً فقيراً، وطيب خاطره، ولم يسأله قبل أن يطعمه عن دينه، ولا عن ولائه، بل قرأ فيه إنساناً كرمه الله، وأمر برحمته.

(١) صحيح مسلم (١٠١٧)، والنسائي الصحيح (٢-٥٣٩).

نبي الرحمة والعدالة

لم يأمر أرحم الراحمين جَلَّ رَعْلَا نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يكون رحمة للعالمين فقط، بل جعله رحمة لهذا الكوكب ومن عليه، وما عليه.. كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرقق قلوب أتباعه على الحيوان، بل يخيفهم من أذيتة، فيقول: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلاً»^(١)، دخلت النار رغم عباداتها بسبب ظلمها لهرة، بينما «غُفر لامرأة مومسة، مرت بكلب على رأس ركي يلهث، كاد يقتله العطش، فترعت خفها، فأوثقته بخمارها، فترعت له من الماء، فغفر لها بذلك»^(٢).

كان النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَّةً من المشاعر.. ينعم بها الشعب، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير والطيور.. كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون.. يشاهد طيرًا مفجوعًا فيخفق قلبه رافة به، فيهتف بأصحابه في مشهد رآه، ورواه أحد الشباب، فقال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش. فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»^(٣).

ومن رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قام بغرس وكبس ثلاث مئة نخلة لوحده، ويديه.. فعل ذلك من أجل تحرير عبد اسمه سلمان الفارسي من سيده اليهودي، الذي

(١) صحيح مسلم (٢٦١٩).

(٢) صحيح البخاري (٣٣٢١).

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود (٢٦٧٥) وغيره من طرق عن أبي إسحاق الشيباني عن الحسن بن سعد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه.. الشيباني ثقة وكذلك شيخه وشيخ شيخه، وقد روي مرفقا على قصتين بالسند نفسه.

اشترط عليه ذلك، ولو كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يظلم اليهود، كما يتهمه أعداؤه لحرر العبد، واسترق اليهودي، فهل تعرف الدنيا قائدًا يلطخ يديه بالطين والسماذ كرامة لعبد.

إنه نبي الرحمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. يفعل ذلك بعد غزوة الأحزاب، التي مرت بسلام، فأصبحت دولة القرآن مهابة، ولا أحد يستطيع منع شعبها من التوجه لمكة لأداء العمرة.

لذا أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه بالاستعداد لذلك، فأوقفته قريش، وهي في حالة لا تستطيع منعه، لكنها رجته أن لا يدخلها هذا العام، لحفظ كرامتها بين العرب، فوافق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولأنه بنى دولته على المواثيق، فإنه لم يرجع إلا بوثيقة موقعة تضمن حق شعبه في زيارة مكة بعد عام، متى شاءوا مثلهم مثل غيرهم، وبعد نقاش وحوار في مكان يسمى (الحديبية)، قدم القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنازلات، وأبدى مرونة كبيرة، لدرجة أنه سمح لمن أراد أن ينضم لمعسكر الشرك من شعبه أن يفعل.

بل وقع على شرط مرير، وهو أن يلتزم برد أي مسلم أو مشرك من مكة، يريد الالتحاق بدولته، كما كفلت الوثيقة السماح لأي قبيلة بالدخول في حلف مع دولة الإسلام، أو حلف مع معسكر الشرك القرشي، وأن تتوقف المعارك بين الطرفين لمدة عشر سنوات.

شروط كشفت مدى التسامح الإسلامي أمام الصلف الوثني، مما دعا بعض القبائل الوثنية للدخول في حلف مع دولة القرآن، أو التخلي عن الوثنية، والدخول في الإسلام، واعتناق التوحيد، لكن رغم ذلك.. قامت قريش بخرق المعاهدة بعد عامين، فدفعت الثمن غالياً.

الفتح العظيم

خرقت قريش معاهدة الحديبية رغم أنها مجحفة بحق دولة الإسلام وشعبها، وهنا طفح الكيل، فالصبر على هذا العبث الوثني غير مجد.

فقد حدث ذلك حين غزا الوثنيون قبيلة (خزاعة)، التي دخلت في حلف مع دولة القرآن، فطالبت قبيلة (خزاعة) نبي الله ﷺ بتفعيل الاتفاقية الموقعة بينهما، مما نتج عنه فتح مكة، وزوال سلطة الوثنية للأبد.

المدحش هنا أن فتح مكة كان دون قتال! كما أنه لم يكن جهاد طلب ولا جهاد دفاع. كان قمة في التحضر، لأنه يعرب عن مدى رقي دولة الإسلام حين استجابت. ملتزمة بمعاهدتها لقبيلة وثنية مظلومة. تمت خيانتها والاعتداء عليها، من قبل طواغيت قريش الوثنيين.

تم فتح مكة، فاستسلمت زعامات مكة الوثنية كلها وهي صاغرة، أما المبهر هنا، فهو أن النبي القائد ﷺ لم ينتقم منهم، ولم يذكرهم بجرائمهم بحقه، واضطهادهم له ولأصحابه، وقمعهم له لأكثر من عشرين عامًا، بل تهادى نحو الكعبة، ولما أصبح أمامها صلى، ولما فرغ من صلاته نهض ليلقي خطاب النصر. في وقت كان الطواغيت يرتجفون داخل بيوتهم، وبعضهم دخل الكعبة خوفًا من سيف الفاتح العظيم.

كان المسجد مزدحمًا، لأنه قد أعلن أنه من دخل المسجد فهو آمن.

انحشر الوثنيون داخل المسجد ورائحة عرقهم وخوفهم تزكم الأنوف، والقلوب ترتجف. خيم السكون بانتظار بيان النصر الأول، ورفعت الرؤوس المنكسرة، نحو هذا القائد المنتصر عليها، وهو يمسك بخشبتي باب الكعبة، فيأذبه عالم مهيب من التواضع والخضوع لربه سبحانه، الذي فضله واختاره لرسالته.

بدأ النبي القائد محمد بن عبد الله بحمد الله الواحد الأحد لا شريك له.

أثنى عليه سبحانه، ثم جال بطرفه، ونظر للجموع الوثنية التي كانت تقلب اسمه محمدًا، فتسميه بعد بعثته: (مذممًا)، وتصفه بالساحر، والكاذب. جال بطرفه نحو قوم اضطهدوه وقتلوا أحبابه وطرده من مدينته، وقتلوه وحرضوا عليه ومنعوه من بيت ربه لأكثر من عشرين عامًا. نظر للجموع الوثنية ثم هتف بها وهو يمسك بعضادتي الباب، ثم قال:

«يا معشر قريش ما تقولون؟».

وإذ بالطغيان يتلاشى وهم يردون بكل أدب ويقولون: نقول ابن أخ، وابن عم رحيم كريم. ثم كرر سؤاله: «يا معشر قريش ما تقولون؟». قالوا: نقول ابن أخ وابن عم رحيم كريم. ثم قال: «يا معشر قريش ما تقولون؟». قالوا نقول: ابن أخ وابن عم رحيم كريم.

هنا تفجرت شلالات الرحمة. تطهرهم من دنس الحقد الجاهلي، والغل الوثني. هنا تألق محمد ﷺ كالبدور. في سماء الوثنية المعتمة، ليزيل سوادها ويلهج بكلمة كادت تقتلهم فرحًا، حين هتف بهم فقال: «فإني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم. يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»^(١).

بعد هذا الخطاب المحلق في سماء الرحمة والتسامح. امتلأ المسجد بصراخ الفرح والابتهاج والتهاني، ليحتل هذا القائد القلوب، لدرجة أن دخلت قبائل الجزيرة العربية كلها في الإسلام دون قتال، وانضمت لدولة القرآن. بعد هذا الخطاب المتسامح للغاية. هذا يعني شيئًا واحدًا. هو أن الحلف الوثني

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى (١١٢٣٤)، وغيره من طريق الثقة سلام بن مسكين عن شيخه الثبت ثابت البناني، عن عبد الله بن رباح وثقه ابن سعد والنسائي، عن أبي هريرة. وله شواهد قوية عن ابن السني وغيره.



كان حلفًا هشًا. كان حلفًا عاطفيًا لا عقل له. كان حلفًا غير مقنع على الإطلاق. حلف عصبية يقوده طواغيت وثنيون.

لم تكن لديهم قضية أو قناعات. مجرد عصبية جاهلية عمياء.

بعد دخول القبائل العربية في الإسلام. انتهى الخطر الوثني العربي، وبرز خطر أكبر منه. ظهر الخطر العالمي على دولة النبي ﷺ.

بدأت إمبراطوريتا الروم وفارس بالتوجس من هذه الدولة الناشئة، لذا بدأتا التحرش، من خلال بث الجواسيس، وحشد الجيوش، بل والاعتداء على دولة الإسلام، فقد شنتا حربين على دولة الإسلام. هما: (ذات السلاسل) و(مؤتة). بل وصلت النبي القائد ﷺ أنباء عن تحركات إمبراطورية الروم باتجاه دولة القرآن.

هنا حشد النبي ﷺ جيشًا هائلًا بعد أن وصلتته الأخبار بأن الروم سيغزون دولته. سار بجيشه وسار حتى وصل منطقة تبوك ثم عسكر هناك، ليبقى في تبوك قرابة الشهر.

ترى لو كان هدفه التوسع في المناطق المجاورة، والاعتداء على دولها. هل يتوقف، ثم يعود للمدينة؟

بعد تلك الغزوة أصبحت الجزيرة العربية آمنة برسالتي الأنبياء (التوحيد والعدل)، ولما حان موعد الحج. أدى النبي القائد ﷺ الحج. هو والمسلمون في حجة تسمى (حجة الوداع).



الوداع المرير

الختام..

وبعد الفراغ من الحج عاد النبي ﷺ للمدينة، وبعد أشهر أصابه مرض ألزمه الفراش. بعدها ضعف الحبيب ﷺ ضعف الموت، ثم رحل عن الدنيا، بعد أن أخذ معه القلوب والذكريات والأشواق.

أهالوا عليه التراب والحب والدموع ﷺ، وبكاه من في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال والأطفال، وبكته المدينة.

احترقت القلوب على ساكن القلوب. بكى الشعب ذلك النبي، الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.

بكوا محمدًا الذي هداهم الله به، ووحدهم به، وبنى لهم دولة مهيبة، ومجدًا شاهقًا، لكنه لم يبين لنفسه قصرًا، ولا لشعبه سجنًا.

مات الحبيب دون أن يترك في منزله دينارًا أو درهمًا، أو يترك بعده عبدًا أو أمة، فقد كان ﷺ لا يدخر شيئًا لغد، فكل ما يأتيه يقسمه بين شعبه، ولذا كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب، التي تمر بهم.

فارق محمد ﷺ الحياة جسدًا، لكنه بقي سنةً ومنهجًا، فنهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالحزن واللوعة. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.

نهض الصحابة بعد أن دفنوه في غرفة زوجته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فلم يعكفوا عند قبره، أو يبنوا على قبره قبابًا، أو مباني، أو حتى يكتبوا عليه شيئًا.

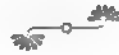
لم يحولوا ذلك القبر الكريم إلى بناء مرصع بالجواهر، أو مطلّي بالذهب، بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها، ولم تفارقه. أما الصحابة فلم



يمضوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا حتى بقراءة القرآن.

لقد علمهم محمد ﷺ كيف يصنعون الحياة. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال. نهضوا من عند قبره، فحملوا رسالته (التوحيد والعدل) إلى العالم؛ لينقذوه بها، كما أنقذهم هو قبل ذلك بها. ف صلى الله عليه وسلم عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وجزاه عنا خير ما جرى نبيا عن أمته، وجمعنا به وبأنبيائه في جناته في الفردوس^(١).

◀ محمد الصوياني



(١) للمزيد من التفاصيل الصحيحة حول سيرته عليه السلام، راجع (كتاب السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة)، ومختصره (مختصر السيرة)، وهما للمؤلف.

المحتويات

٧	آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمال في الجنة
٨	لحظات السجود والتمرد
١١	رحلة الهبوط المريرة
١٢	من مشاعر أول يوم على الأرض
١٤	التأقلم مع أجواء الأرض
١٥	القاتل الأول
١٦	بداية الوثنية والشرك
١٨	نوح وعالم الوثنية الأول
١٩	خدعة قوم نوح
٢١	الورشة المخيفة
٢٢	واهتزت الفلك
٢٣	نوح يصبح من شدة الألم
٢٥	ماذا بعد نوح؟
٢٦	عودة الشرك بعد نوح
٢٨	هود بن إرم
٢٩	حين تمطر السماء عذاباً
٣١	أسبوع بين السماء والأرض
٣٢	الآية المخيفة
٣٤	الناقة والمجرمون التسعة

٣٥	من هو قدار بن سالف؟
٣٧	تمتعوا ثلاثة أيام فقط
٣٨	إبراهيم في العراق
٤٠	حوارات إبراهيم
٤١	إبراهيم والطيور الأربعة
٤٣	القبض على إبراهيم
٤٤	اتركوا إبراهيم فالجاني أمامكم
٤٥	محاكمة بلا قضاة
٤٧	دعوة مظلوم على منصة الإعدام
٤٩	محطات خطيرة في الطريق للقدس
٥٠	القبض على سارة
٥٢	سارة في معية الله
٥٤	هاجر لم تعد خادمة؟
٥٥	لماذا تتركني يا إبراهيم؟
٥٧	الموت يجول في الوادي
٥٩	الوادي ينبض بالحياة
٦١	زمزم يحول الوادي إلى مدينة
٦٢	إسماعيل يودع هاجر
٦٤	ورحلت هاجر
٦٦	إسماعيل لا يناقش أوامر الله
٦٧	كيف كان شكل البيت عند بنائه؟
٦٩	ما الذي أضحك سارة؟
٧٠	قرية للأنذال وقطاع الطرق
٧٢	لوط في غاية الإحراج
٧٣	وخرج لوط من زنزانه
٧٥	هل طارت مدينة سدوم؟
٧٦	هلك قوم لوط، وولد بنو إسرائيل



٧٨	قمر بين الكواكب
٧٩	انتهى وقت اللعب يا يوسف
٨٠	مسيرة اللطم والنواح
٨٢	الطفل والقافلة
٨٣	أجل عبد على الأرض
٨٥	حصار عاشقة
٨٦	يوسف يتلقى الطعنات
٨٧	درس للشامتات
٨٩	انتقام عاشقة
٩٠	أصبح نبياً في السجن
٩٢	يوسف في عمرات النسيان
٩٣	يوسف يرفض مغادرة السجن
٩٤	وأصبح العبد أميراً
٩٦	نبي وزير في دولة وثنية
٩٧	هؤلاء الذين أتعسوا حياتي
٩٩	هل هناك بشر آخر ينتظر بنيامين
١٠٠	لا تدخلوا من باب واحد حتى لا أخسركم
١٠٢	أهذا أخي الذي حرمت منه؟
١٠٣	بنيامين لص وشقيق للص
١٠٥	يعقوب يبكي بنيامين
١٠٦	عندما يصيبك الشوق بالعمى
١٠٧	لماذا تذكرنا بيوسف يا أبي؟
١٠٩	الإخوة في المحكمة
١١٠	آخر قصص قميص يوسف
١١٢	بنو إسرائيل في مصر
١١٤	يوسف يفشي السر
١١٥	شعيب نزيه يستحق الرجم

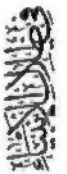


١١٦	شعيب والخيار الأخير
١١٨	رحل قوم شعيب وعاد الفراعنة
١١٩	الأهرامات بين إبداع التصميم وتحلف الهدف
١٢١	مداومة بيت عمران
١٢٢	آسية الملكة المصرية الطيبة
١٢٤	أم موسى مبعولة في قصر عدوها
١٢٥	موسى بين شعيبين وديانتين
١٢٦	موسى من أمير إلى مطلوب
١٢٨	موسى يهرب من مصر
١٢٩	الغربة والحزن تحت الظل
١٣١	موسى وأشق مهر يدفع لفتاة
١٣٢	اخلع نعليك
١٣٤	عد يا موسى
١٣٥	افتحوا الباب لحبيب القلب
١٣٧	موسى والذكريات
١٣٨	من ربكما يا موسى؟
١٤٠	لغة العقل والدليل
١٤١	التوحيد يعود للحي الإسرائيلي
١٤٢	السحرة يشترطون
١٤٤	موسى يمنح السحرة تقاعدًا مبكرًا
١٤٥	ساحة احتفالات أم ساحة للإعدامات
١٤٧	كل من في القصر مضطرب إلا واحدًا
١٤٨	تفعيل قانون التطهير العرقي
١٥٠	الآيات لا تجدي مع المعاند
١٥١	استسلام أم خديعة
١٥٣	طريق الموت الفاخر
١٥٤	تاريخ تدشين الطريق الفاخر

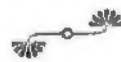


١٥٦	موسى يترك قافلته
١٥٧	إلى أين ستذهب يا موسى؟
١٥٩	الوثنية بين الإسرائيليين مجددًا
١٦٠	المعسكر الإسرائيلي فوضى ووثنية
١٦٢	موسى يلقي ألواح التوراة
١٦٣	البحر يبتلع الإله المزيف الآخر
١٦٥	بنو إسرائيل وأول عقوبة تنزل بهم
١٦٦	أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سيناء
١٦٨	القبيلة المغرورة تتواضع
١٦٩	أنهار ومن وسلوى ونظام
١٧١	مخلوقات غريبة على الساحل
١٧٢	ساحل القردة
١٧٤	شددوا، فشدد الله عليهم
١٧٥	يعشقون أرض البصل، ويرفضون الأرض المقدسة
١٧٦	انتهى عصر المعجزات يا بني إسرائيل.
١٧٨	ليس بنبي، لكنه أعلم من نبي
١٨٠	أول الدروس صدمة
١٨١	صدمة الدرس الثاني والثالث أكبر
١٨٣	لم لا يطاق علم الخضر؟
١٨٤	المساحة بين الولي والنبي
١٨٦	قارون رجل أعمال برتبة مجرم
١٨٧	حين ارتجت المدينة
١٨٩	جيل رباة موسى وهارون
١٩٠	داود البطل
١٩٢	داود بين الجبال وأسراب الطيور
١٩٤	داود خائف
١٩٥	إنابة داود وتوبته

١٩٧	أم تفجع مرتين أيام داود
١٩٨	توبة سليمان
٢٠٠	عجائب مملكة سليمان
٢٠٢	سليمان غاضب
٢٠٣	بلقيس أحكم من وزرائها
٢٠٥	بلقيس في الطريق
٢٠٦	أسرع الجن وأقواهم
٢٠٨	وكشفت عن ساقها
٢٠٩	مملكة سليمان مملكة استثنائية
٢١٠	انهيار مملكة سليمان
٢١٢	أيوب والابتلاء
٢١٣	جزاء أيوب
٢١٥	يونس غاضب
٢١٦	يونس خارج المركب
٢١٨	وعاد يونس
٢١٩	اليتيمة والصالحون
٢٢١	أفضل يتيمة على الأرض
٢٢٢	زكريا يشكو لربه
٢٢٤	مريم أفضل امرأة
٢٢٦	البتول تهرب من بيت أهلها
٢٢٧	طريق الصمت
٢٢٩	الله يحدد هوية عبده عيسى
٢٣٠	الحزن يجنم على القدس
٢٣٢	مطاردة آخر نبي يهودي
٢٣٣	المسيح والمعاناة
٢٣٥	مائدة من السماء
٢٣٧	المسيح وأمشاط الحديد



٢٣٩	التلميذ الخائن
٢٤٠	وداعا أيتها الأرض
٢٤٢	المسيح بين الوفاة والموت
٢٤٤	الخطوة البديلة وشيطانها
٢٤٥	الخطوة الأخطر لشاءول
٢٤٧	الدين الذي أطفأ الأنوار في أوروبا
٢٤٩	عصور أوروبا المظلمة
٢٥١	محمد ﷺ بعد فترة من الرسل
٢٥٣	من المولد إلى التكذيب
٢٥٦	أول شخص يشيد دولة بعقد
٢٥٨	الإسلام يجعل يثرب الثارات مدينة للحب
٢٥٩	حكمة قيادية لا مثيل في احتواء الآخر
٢٦١	إبداع النبي ﷺ لمفهوم (المواطنة)
٢٦٣	أكبر جريمة لقريش بعد الشرك
٢٦٣	نبي يصنع دولة قوانين ووثنيون يؤججون الحروب
٢٦٥	مواصلة التحضر الإسلامي وتواصل الحقد الوثني
٢٦٧	دولة القرآن موجهة للإنسان والسلام والبناء
٢٦٩	نبي الرحمة والعدالة
٢٧١	الفتح العظيم
٢٧٤	الوداع المرير





عن أي أحبة ستتحدث هذه الورقات؟ عن أبي آدم عليه السلام.. الذي يأخذني الشوق إليه، والانصات لقصصه حين كان يضج جمالاً ودهشة وسط النعيم بين الملائكة، وقصة ارتبأكه وتردده على تلك الثمرة المحرمة بتحريض من عدوه الذي تزداد عداوته له ولنا كل يوم.

أم عن التحرق لتقبيل يدي أمي حواء وعناقها، ومسح دمعاتها الحرى وأنيبها وحنينها لفلذة كبدها الذي حرمت منه في عز شبابه؟ أم عن نوح... النبي الصامد كجبل قرابة ألف عام، أم عن النبي الأمة إبراهيم الخليل وحياته التي أمضاها في الترحال والأسفار والغربة والتضحية؟ أم عن النبي الأُمي... حبيب القلب ونوره... محمد بن عبدالله الذي طالما أبكتنا سيرته ومواقفه ورحمته وجرأة الحاقدين عليه...؟

صلى الله وسلم على كل أحبتي، ما أعظمهم وأجلهم...! كانوا أنبياء مذهلين...! عانوا وعانوا لنشر أعظم رسالتين... تتعطش البشرية لهما:

- رسالة للسماء، وهي التوحيد التي يقول مرسلها سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

- ورسالة لإعمار الأرض بالنظام... رسالة العدل الذي أمرهم بالحق بإرسائه ونشره بين خلقه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.

فمنهم من وصل، ومنهم من قضى في الطريق، ومنهم من قطعتة السيوف والسواطير، ومنهم من مات في الزنازين، وبعد سنوات وسنوات من المعاناة... يأتي النبي منهم يوم القيامة ومعه الأمة، ويأتي النبي ومعه الخمسة أو الثلاثة، ومنهم من يأتي ومعه رجل واحد فقط، ومن الأنبياء من يأتي وحيداً ليس معه أحد...، خذله أهله وقومه.

لم تكن رحلة الأنبياء نزهة ولا استجماماً... كانت بذلاً وتضحيات ونبلاً.

هذه ورقات قطفتها من أصح كتاب في هذا الكون...؛ قرآن وكلام ربي عز وجل، ومن أحاديث حبيبي عليه الصلاة والسلام الصحيحة، والصحيحة فقط، فلا مكان في ديننا للكذب والتلفيق، والترفيف من أجل التشويق والإثارة والتأثير.

جمعني الله وإياكم بهم في جناته ونعيمه... في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم...، حينها سننصت لهم، وهم يروون لنا تفاصيل مبكية ومذهلة طالما اشتقنا معرفتها.

محمد الصوياني

ISBN: 9786035093927



9 786035 093927

قصص الأنبياء

تواصل معنا



CONTACT US

